موسوعة

الحضارة الإسلامية

تأليف أحمد أمين





إهـــــداء ٢٠١٢

شادى عصام محمد عبد العزيز

جمهورية مصر العربية

موسوعة
الحضارة الإسلامية

المجلّد الرابع عشر

فيض الخاطر (4)

أحمَد أمين

مَوسُوعَة الحَضارَةِ الإسلامِيَّةِ

المجلّد الرابع عشر

فيض الخاطر (4)

دار نوبليس

2006

اسم المجموعة: موسوعة الحضارة الإسلامية

اسم الكتاب: فيض الخاطر (4)

المؤلف: أحمد أمين

قياس الكتاب: 20 × 28

عدد الصفحات: 224

عدد صفحات المجموعة: 5352

مكان النشر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: 961-1-583475

تلفون: 961-1-581121/ 961-3-581121

بريد إليكتروني: E.MAIL: www.nobilis_international@hotmail.com

الطبعة الأولى: 2006

الأغاني المصرية

بالأمس وقع في يدي كتاب من طريق المصادفة البحتة عنوانه «مجموعة الأغاني الشرقية» وهي الأغاني التي سجلت على «الأسطوانات» من شركة «بيضافون» و«جرامفون» و«أوديون» و«بوليفون»؛ وكنت في ذلك اليوم ضيق الصدر، لا تتفتح نفسي لتفكير، ولا قراءة ولا كتابة؛ فحمدت الأقدار التي رمَت بهذا الكتاب إليّ، أو التي رمتني على هذا الكتاب؛ فلديّ ساعات فراغ لا أعرف كيف أقضيها، فلا أنا صالح لجد ولا لعب.

أخذت أقلب فيه، وأقرأ وأقرأ، ثم قلت: اجتهد أن تسلط عليه البحث الجامعي، أو ليست الدراسة الجامعية تجعل من الحبة قبة، ومن الهزل جداً، وإن شاءت فمن الجد هزلاً؟ وقد وصفتها مرة بأنها تميت الحي وتحيي الميت، فهي تحيي اللاتينية واليونانية والحبشية والأكادية وقد ماتت، وتنبش الأحجار وقد دفنت، وتبعث ما في القبور وقد طويت؛ وهي تميت الحي، فتدرس اللغات الحية دراسة تميتها وتفقدها روحها، وتبعد عن تذوقها؛ ولذلك قلَّ أن تخرج الجامعة أديباً شاعراً أو كاتباً، وإنما تخرج أديباً ناقداً أو أديباً عالماً؛ ومن كان أديباً من رجال الجامعة فمن طبعه ومن نفسه، لا من الدراسات الجامعية، وإن شئت فقل إنه أديب على الرغم من الدراسات الجامعية، لا أديب بفضل الدراسات الجامعية.

ما لنا ولهذا؟ فقد أنفقت أمس في كتاب «الأغاني» هذا، فقلت - أولاً - أحصر عدد ما فيه من أغان، وأعرف موضوعاتها؛ فرأيت أن الكتاب ينقسم إلى قسمين: قسم خاص بالأدوار والمواويل والمذاهب والتواشيح والطقاطيق، والقسم الثاني «للقصائد»؛ ووجدت أن في الكتاب بقسميه 1199 أغنية، بين دور وموال وتوشيح وطقطوقة وقصيدة، ووجدت أنها كلها في الحب، ما عدا خمس عشرة أغنية في موضوعات غير الحب، أي أن نسبة ما قيل في غير الحب للحب كنسبة واحد إلى مائة تقريباً.

ثم موضوعات غير الحب بعضها أيضاً يتعلق بالحب؛ فامرأة تشكو من أن زوجها تزوج عليها أربعاً في أغنية «جوزي اتجوز عليّ أربعه»؟ وامرأة تشكو حماتها في أغنية «حماتي عليّ قوية وأنا ما اقدرش على العيشة ديه»، ورجل يشكو العزوبة في أغنية «العزوبة طالت عليّ،

قومي اخطبي لي حلوة وغنيه» ثم ماذا؟

استعجبوا يا أفنديه

لتر الجاز بروبيه

وطقطوقة في شكوى الحشاشين من عدم الإنصاف، إذ تصادر الحكومة الحشيش وتترك الخمر، مطلعها:

انصفنا يابا - دحنا غلابه

حنشدّ فين ونحشش فين

دي بقت بميتين

الوقيه

ورجل يتحسر على حرمانه من «الجنيه»، فيقول:

غاب الجنيه قلبي عليه

جرى له إيه هو في سفر

رمز الحياه باب النجاه

يشفي العليل يجلي النظر

وشكوى من دودة القطن، مطلعها:

يا شيخ العرب يا شنودة

والقطنه كلتها الدودة

والبنات عاوزة تجوز

والجدعان نفسها مصدودة

وطقوقطة في زيادة النيل:

البحر أهو زاد - عوف اللّيه

غرق البلاد - عوف اللّيه

ثم بعض قصائد وطنية، كمارش البرلمان:

وطني أنا بالروح أفديه

حب الوطن دا من الإيمان

تـــعـــيـــش مـــصـــر حـــره

ويلاحظ أن الأغاني الوطنية في لغتها ونغمتها وعباراتها جارية على نمط الحب:

مـــصـــر الـــجـــمـــيـــلـــة مـــا أحـــلاك
يـــا بـــخـــت الـــلـــي يـــكـــون فـــي حـــمـــاك
والـــلـــي يـــعـــيـــش تـــحـــت ســـمـــاك
ويـــمـــلا قـــلـــبـــه بـــهـــواك
يـــبـــقـــى ســـعـــيـــد

* * *

يـــا بـــلادي يـــا بـــلادي
يـــا ضـــيـــا الـــبـــلـــدان
لـــك حـــب فـــي فـــؤادي
مـــوقـــد نـــيـــران

وأغنيتان دينيتان تدعوان إلى التوكل على الله وترك الأمور تجري في مجاريها:

ســـلـــم الأمـــور لـــلـــرب
لا تـــخـــف ولا تـــرهـــب
إلـــزم بـــاب ربـــك
واتـــرك كـــل دون

ثم لنرجع بعد إلى الأغنية الساحقة وهي أغاني الحب، فنجد أنها تتنوع أنواعاً مختلفة: شكوى الغرام وما سببه الحب من سقام، فالهجر طال، والدمع سال، والجسم ذاب، والعقل راح، ونحو ذلك مما تمثله هذه الأغنية:

يـــامـــا شـــفـــت مـــرار وقـــضـــيـــت أيـــام
وأنـــا لـــيـــل ونـــهـــار إزاي أنـــام
والـــعـــشـــق ده نـــار وعـــذاب وهـــيـــام
وضـــنـــى وغـــيـــره وبـــكـــا وحـــيـــره

ثم شكوى العذال والدعاء عليهم وعدم الاكتراث بهم:

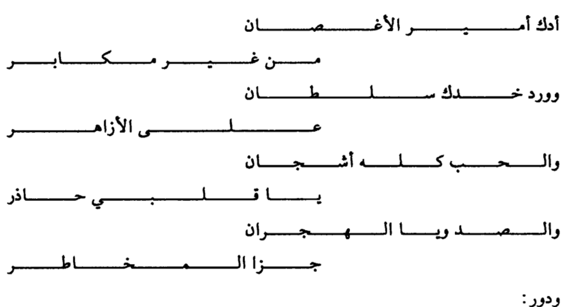
روح يا عذولي - مالك ومالي

لو ذبت وجدا - ما أفوت غزالي

ثم التفنن من الرجل في وصف من يحب، ومن المرأة في وصف من تحب.

فقوامه غصن البان، وورد خده على الزهور سلطان، والخد أسيل والجفن دابل، وحبيبه فريد عصره وأمير زمانه، كحيل العين خفيف الذات، جالس على عرش الجمال، إلى نحو ذلك من معان طال الزمان عليها وهي كأوراق اللعب وحجارة النرد أو الشطرنج، يلعب الأدباء بها فيختلف تصفيفها ويتحد عددها وجوهرها.

رأيتها مجموعة مختلفة العصر من عهد «عبده الحمولي» و«محمد عثمان» إلى الآن، ورأيت إنشاءها مختلف القوة، مما يدل على أن مؤلفيها بعضهم من أرقى الأدباء نزلوا إلى الميدان فألفوا بالعامية وسلموها للمغنين يلحنوها ويغنونها مثل دور:



أدك أمير الأغصان

من غير مكابر

وورد خدك سلطان

على الأزاهر

والحب كله أشجان

يا قلبي حاذر

والصد ويا الهجران

جزا المخاطر

ودور:

اللّه يصون دولة حسنك

على الدوام من غير زوال الخ

وبعضها مهلهل من وضع العوام وأبناء الشوارع وبنات الحارات كطقطوقة «دندرمه يا دندرمه» وطقطوقة «اسم النبي حارسك» الخ.

ثم منه حب عفيف مؤدب، وحب غير مؤدب وهو الأغلب، ومنه ما لا يمكن أن يقال إلا في حانة أو بيت دعارة. وبعضها استخدمت فيه مخترعات العصر وأساليب المدنية في الخلاعة والحرية، مثل طقطوقة «التاكسي على الباب مستني». وطقطوقة «قل لي على نمرة

تلفونك». وطقطوقة «بنجور يا هانم»، وطقطوقة «قابلني حبي وأنا رايحه الموسكي وسقاني كونياك على وسكي» الخ.

ثم هذه الأغاني على كثرتها لا ترى فيها ظلاً - إلا قليلاً جداً - لوصف المرأة المحبوبة بنبل الخلق وحسن المعاني وجمال الفكر وسمو النفس؛ إنما هي كلها حول خدها الوردي وعيونها العسلية، وأن نهودها رمان، وقدها غصن البان - والمرأة لا تتطلب من الرجل رجولته وحسن صفاته، إنما تطلب أن يكون جميلاً و«جدع قيافه» و«صغير في العمر» و«دمه خفيف» و«عاوج طربوشه».

ثم ما هذا الحزن الشائع في الأغاني؟ فالحب عذاب، والهجر عذاب، والعذال عذاب، والقلب مجروح و«دمي بدمعي امتزج» و«ما حيلتي غير دموع العين»، و«ما حد زيي على خِله انضنى حاله»، و«ناعس جفونك حرمني النوم» و«يا كتر نوحك على الأحباب»، «آسيت كتير لما حبيت» و«يا ما بآسي وبشكي» الخ الخ. وكثيراً ما تبدأ الأغنية بالسرور والفرح، ولكن سرعان ما تنقلب إلى غم وكمد، ثم التذلل المفرط والاسترحام المفجع، والاستغاثة بالناس، وبالأحباب وبالأعداء، وبالمسلمين وبالنصارى، حتى يتدخلوا في الحب ويتوسطوا في الوصل.

* * *

أما بعد فهذه صورة مصغرة لما قرأت، ثم تساءلت: ما وظيفة الغناء في الشعب؟ وهل تؤدي هذه الصورة التي عرضتها تلك الوظيفة؟.

إن الغناء فن من الفنون الجميلة كالتصوير والموسيقى والأدب. وهذه كلها وظيفتها نقل عواطفنا إلى غيرنا في ثوب جميل، وهي تقابل في الكلام غير الفني في نقله أفكارنا إلى غيرنا؛ فالفنون الجميلة لغة العواطف، والكلام لغة العقل؛ وإذا كانت اللغة قاصرة كل القصور في التعبير عن العواطف استعنا على تكميل نقصها بمحسنات من إشارة وتمثيل في الخطابة، واستعارات وكنايات وتشبيهات ومحسنات بديعية وخيال في الأدب، وألوان مختلفة في التصوير، وصوت جميل في الغناء؛ وآلات مختلفة في الموسيقى. والغناء غَنِيّ بهذه المحسنات، فهو يعبر عن هذه العواطف، مستعيناً بالأدب وجماله، والصوت وجماله، وكثيراً ما يقرن بالموسيقى وجمالها؛ فهو في هذا كله احتفال جمال ليس له نظير في هذا الباب.

إن الفنون كلها تنبع من عواطف، وتؤدَّى بشكل جميل إلى العواطف، فتثيرها وتخلق

المشاركة فيها؛ إنها - على اختلاف أنواعها - غذاء العواطف، كما أن العلم - على اختلاف أنواعه - غذاء العقل. وظلت المدارس جاهلة أن الإنسان عقل وعواطف، سائرة على أنه عقل فقط، فملأت برامجها بالعلم لغذاء العقل، وأهملت العواطف؛ حتى آمنت أخيراً بأنه عقل وعواطف، فعدلت برامجها وأدخلت فيها الموسيقى والرسم والتصوير والغناء، فآمنت - بعد كفر طويل - أن الفنون تربية يستكمل بها الإنسان بعض نواحي النقص فيه.

إن كان كذلك، أفليس عجيباً أن يكون موضوع الحب في أغانينا يستغرق منها تسعة وتسعين في المائة؟ كأن ليس لنا عاطفة إلا عاطفة الحب! ثم أي حب؟ إنه الحب المادي الوضيع، والحب المائع، والحب الذائب.

إن مثلنا - إذ ذاك - مثل أمة كل شعرها ونثرها الفني غزل، وكل تصويرها امرأة عارية، وكل أكلها نوع من الغذاء واحد، وكل حياتها لون واحد.

أين غذاء العواطف الأخرى في الغناء؟ أين غذاء عواطفنا في مشاهدة الطبيعة الجميلة؟ وأين عواطفنا في الإعجاب بالبطولة المجيدة؟ وأين عواطفنا في مواقفنا التاريخية الجليلة؟ وأين عواطفنا في كرهنا للنذل والجبان؟ وأين إعجابنا بالمرأة تنتج النتاج القوي الباهر؟ والرجل يضحي لأسرته، والرجل يضحي لقومه، إلى ما لا يحصى من عواطف! أعدمنا كل هذا ولم يبق إلا الحب؟

ألجأنا إلى هذا كله أننا نظرنا إلى الغناء على أنه مسلاة فقط، ولما يصل رقينا إلى أن نشعر أنه تربية للأمة.

إننا من أكثر الأمم حباً في الغناء، وحسناً في الصوت، وقدرة على تكييفه، فالغناء في الإذاعة، وفي القرآن، وفي الأذان، وفي النداء على المبيعات، وفي الذِّكر، وفي الزار، وفي الأفراح، وفي المآتم، وفي كل مظهر، ولكن كل هذا ضائع، لأننا لم نعرف استغلاله ويحمل وزر هذا الأدباء والمغنون؛ فالأدباء تأخذهم عزة الأرستقراطية فلا ينزلون إلى ميادين الشعب يضعون له غناءه، وإذا نزلوا لا يحسنون، لأنهم لا يدركون روحه؛ والمغنون مائعون تضع في حناجرهم أناشيد الحماسة والقوة فسرعان ما يقلبونها إلى تخنث وضعة وتذلل وبكاء. ومما يؤسف له ظاهرة شائعة، وهي تأنث المغنين وترجل المغنيات، كما كان من دواعي الأسف أننا ننحدر من سيئ إلى أسوأ؛ فقد استعرضت أغاني عبده الحمولي ومحمد عثمان، فرأيتها أقوى وأسمى وأعف من كل ما وصلنا إليه في أغانينا الحديثة في الكثير الأغلب. والأمة لاهية، تترك السم يفعل في عقولها وعواطفها، ولا تبحث عن دواء.

لا أحب أن تنعدم أغاني الحب، فما دامت عاطفة الحب موجودة، وهي - بحق - يجب أن تكون موجودة، فلا بد لها من غذاء، ولكني أحب لها غذاءً قوياً نقياً؛ وأحب أن يكون بجانب أغانيه أغان تعادله من حب للبطولة والنجدة والشجاعة والرحمة ولغيرها من العواطف.

إن العُود لم يخلق عبثاً له أوتار متعددة، والحنجرة لم تخلق عبثاً لها قوى متعددة، والغرب أدرك هذا كله، فعدّد مناحي موسيقاه، وعدد مناحي غنائه. فهل نحن فاعلون؟

ثم تساءلت عن السبب الاجتماعي الذي أدى إلى هذا التدهور! ثم إذا طُبق ما يقولون من أن الفنون عامة - والأغاني خاصة - أدل على حالة المجتمع، فماذا يمكن أن نستنتج من هذه الأغاني المصرية؟ فرأيت أن المقال يطول، فلنعد له في مقال تال إن شاء الله.

* * *

التقليم والتطعيم في الأدب

جرني التفكير في «الأغاني المصرية» إلى توسيع النظر في الفنون والآداب المصرية والعربية، فوجدتها كلها تحتاج إلى عمليتين هامتين خطيرتين: أولاهما عملية التقليم، والثانية عملية التطعيم. ولأقتصر في حديثي اليوم على التمثيل بالأدب العربي، فهو أخطر الفنون وأكثرها أثراً في حياة الشعوب.

* * *

واضح أن آداب الأمم تختلف باختلاف شخصياتها ومميزاتها وميولها، كما تختلف باختلاف أمزجة أدبائها، وكما تختلف باختلاف بيئتها، سواء كانت بيئة طبيعية من جو ووضع جغرافي، أو بيئة اجتماعية من سياسة ودين وأوضاع وتقاليد ونحو ذلك.

الأدب عامة يتطور بتطور الأمة، ويتفاعل معها، فيؤثر فيها ويتأثر بها. وإنك لتستطيع - بالنظر العميق - إذا درست أدب أي أمة في أي عصر أن تستنتج منه حالة الأمة الاجتماعية، وظروفها السياسية، ونظم حكمها، وحالة شعبها.

إن كان كذلك فمن المحال أن تعيش أمة على الأدب القديم وحده؛ أو على أدب العصور الوسطى فقط. وإلا كانت كالتاجر يعيش على تصفح دفاتره القديمة فحسب وهذا علامة الإفلاس.

إن أدب كل أمة يرسم المثل الأعلى لها، والمثل الأعلى ليس صورة ثابتة متحجرة؛ بل هو مرن، ويجب أن يكون مرناً، ويختلف بتقدم الإنسان وتغير ظروفه وملابساته، ويتقدم كلما خطا الإنسان خطوة إلى الأمام.

وهذا هو الشأن في الأدب العربي، فهو ليس أدب أمة واحدة؛ بل هو أدب أمم مختلفة في عناصرها، ونوع ثقافتها، ودرجة عقليتها، وموقع إقليمها، كما هو أدب أمم مختلفة العصور والأزمنة، والوضع السياسي، والحالة الاقتصادية، والمعيشة الاجتماعية - وهو في عصوره المختلفة قد صور المثل الأعلى أشكالاً وألواناً؛ فالمثل الأعلى الجاهلي غيره في

العصر الأموي، وهما غيره في العصر العباسي، وهو في العراق غيره في مصر.

وأمم الشرق في العصر الحاضر من حيث موقفها من المدنية الغربية، ومن حيث آمالها السياسية، ومن حيث عواطفها القومية، ومن حيث نظمها الاجتماعية، لا بد لها من مثل عليا جديدة تحض الجيل الجديد على الطموح إليه والسعي وراءه وإلهاب العواطف لنيله؛ وهذه وظيفة الأدب في كل أمة، ومنها الأدب العربي.

في الأدب العربي القديم لا نجد كل غذائنا، وفي الأغاني القديمة لا نجد ما يغذي كل عواطفنا، وفي كل فنوننا القديمة لا نجد ما يرسم كل مثلنا الأعلى الذي ننشده.

لقد قامت مناظرة مرة في أن الأدب العربي القديم يصلح غذاء للجيل الحاضر أو لا يصلح، فاخترت الشق الثاني. ولست أعني أنه قليل القيمة أو عديم المنفعة، ولكن أعني أنه وحده لا يكفي في الغذاء، وأنه ينقصه كثير من أنواع «الفيتامين» ليصلح به العقل وترقى به العواطف.

وللوصول إلى هذا الغرض لا بد من العمليتين اللتين أشرت إليهما، وهما التقليم والتطعيم.

أما «التقليم» فأعني به أن الأدب العربي مثله مثل تل كبير قمح، بعضه طين اختلط بالقمح فيجب أن ينقى منه، وبعضه حب مسوس يجب أن يستبعد، وبعضه صالح يجب أن يفرز وحده لنستعين به على الغذاء الصالح. لقد كان كله صالحاً أو على الأقل نتاجاً طبيعياً لعصره، ولكن ما كان صالحاً لعصر قد لا يصلح لعصر آخر.

إن الأوضاع السياسية للأمم - مثلاً - غيرت نظرة العصور الماضية إلى الحكام، فيجب أن نغربل الأدب القديم، فلا نقر منه ما يضع من شأن الأمة كأمة ويقدس الحاكم كَحاكم. والعلم بالأحوال الاقتصادية غيّر من نظرنا إلى الفقر، فلم يجعله قضاءً وقدراً فقط، بل جعله نتيجة طبيعية لحالة الأمة ووجوه دخلها وخرجها، ونظام ميزانيتها ومواردها ومصادرها. فالأدب العربي الذي يبعث على الرضا بالفقر كنتيجة محتومة لا دخل للأمة ونظامها فيه يجب أن يستبعد، وأحوال الأمم كلها الآن تستدعي نفوساً قوية في إيمانها، قوية في عقيدتها، قوية في عواطفها، فلنقس الأدب العربي بهذا المقياس؛ فما كان منه يبعث على الميوعة، وعلى الانهماك في الشهوات؛ وعلى الخذلان وضعف الثقة بالنفس والثقة بالأمة والثقة بالله يجب أن يعدم.

إن الأمم الآن تتطلب التضحية، وتتطلب مثلاً أعلى أساسه خير المجتمع لا خير الفرد وحده، وتتطلب إعداد الفرد للكفاح؛ فما كان من الأدب العربي يدعو الفرد أن يبحث عن لذته مهما كانت نتائجها على المجتمع يجب أن ينحى؛ والأدب الذي عماده أن فلاناً أعطاه من مال الأمة لقصيدة أشاد فيها بذكره فجعله مَلَكاً فوق البشر، ليس صالحاً لجيلنا بحال من الأحوال. بل إن مدح الملوك والأمراء والحكام يجب أن يكون أساسه العدل وخدمة الرعية، وأداء ما عهد إليهم بذمة وصدق، سواء أعطوا مالهم الخاص أو منعوا، كرموا أو بخلوا، وإن الأدب الذي يخيف من الموت، ويجعل الحياة كلها توقعاً للموت، وخوفاً من الموت، يجب أن يموت، ويحل محله تقديس الحياة والعمل للحياة، حياة الأمة وحياة الفرد، ولا بأس بالموت إذا الموت نزل.

* * *

امتحنْتُ هذه النظرية فقرأت كتاباً من كتب الأدب العربية، فوجدتني في كل صفحة من صفحات الكتاب قد علقت - في ذهني - على بعض الجمل بأنها غير صالحة، لأنها تبعث الضعف، وبعضها غير صالح لأن العلم الحديث أثبت كذبه، وبعضها غير صالح لأنه كان مثلاً أعلى قديماً وليس مثلاً أعلى حديثاً، وبعضها صالح كل الصلاحية لأنه يناسب زمننا كما كان مناسباً لزمنه، فهو مستحق للبقاء.

قرأت مثلاً قول المغيرة بن شعبة: «أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث: أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء، وأكرهها لروعة البريد، وفوت العزل، وشماتة العدو». فقلت إن هذا نظر غير صائب، وشعور غير نبيل، إنما تحب الإمارة للعدالة، وإيصال الحقوق لأصحابها، وتحقيق ما أمكن من إصلاح؛ أما حبها لنفع الصديق وضر العدو ونحو ذلك فنظر سطحي سخيف، لا يصح أن يعرض على النشء.

وقرأت قول القائل:

«كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه».

فقلت هذا غير صحيح وإن حسن لفظه، لأنه في كل أمة، وفي كل عصر، وفي كل جماعة، ورق وشوك، فلا يخدعنك حسن التعبير عن فساد المعنى.

وقرأت خطبة لسعيد بن سويد: «لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف، ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاءٌ بالحق، وأخذ بالعدل». فقلت هذا

قول حق، يصلح لكل زمان ومكان، ويصح أن يعلّم لكل ناشئ، ويردده كل متأدب.

وقرأت قول الشاعر [من البسيط]:

أشرقْتَ حتى تركتَ الشمس ساجيةً
كأنما أُلبِسَتْ دُكناً من الحِلَلِ

وراح نَقْعُك في أجفانها كحلا
وما عهدنا بجفن الشمس من كحَلِ

لقد حقنْتَ دم العليا بجود يد
مخضوبة بدماء المَحْل والبخَلِ

أظما إلى رشفها يوماً فيصدقني
عنها تعرض سيل العارض الهَطَلِ

فقلت إن هذا الضرب لا يعجبني؛ رجل أعطى الشاعر قبضة من مال، فجعله أكثر إشراقاً من الشمس، وجعل يده مخضوبة بالدم من قتل البخل الخ. وهي معان مبتذلة، وموقف استجداء وضيع، وعاطفة شخصية جزئية حقيرة؛ فهذا الضرب لا أشجع عليه، ولا أقدمه مثالاً يحتذى؛ وخير منه قول المتنبي في المديح [من الطويل]:

إذا الدولة استَكْفَتْ به في مُلِمَّةٍ
كفاها، فكان السيفَ والكفَّ والقلبا[1]

الخ...

وقرأت من الأمثال قولهم: «الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك». فقلت قول مبهرج، ولا معنى له، فليس بصحيح أن السيف إن لم تقطعه قطعك.

وقرأت قول الشاعر [من الوافر]:

تطامَنْ للزَّمان يَجُزْك عفواً وإن قالوا ذليلٌ قلْ ذليلُ

فقلت هذا شعر يجب أن يضرب به وجه ناظمه الحقير.

وقرأت نصيحة عمرو بن عتبة المعلم ولده: «روّهم من الحديث أشرفه أعفه». فقلت قول شريف صحيح؛ ثم قرأت قوله: «ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يُحكموه، فإن ازدحام

(1) ديوانه 1/ 186.

الكلام في القلب مشغلة للفهم»، فقلت هذا غير صحيح فيما أثبت علم التربية الحديث.

وبجانب ذلك قرأت أدباً جيداً كل الجودة، حقاً كل الحق، نافعاً لأن يكون جزءاً من مثلنا الذي ننشده، لا أطيل بذكره لكثرته.

وهكذا وجدت فيما استعرضت خيراً كثيراً، وشراً كثيراً، فلا بد من التقليم والتطهير واستبقاء الأصلح.

خرجت من فكرة «التقليم» هذه بأن أولي الرأي في الأمة يجب أن يكون لهم غرض واضح معين في تربية النشء، ووضع أسس ثابتة في التربية، ورسم مثل أعلى واضح جلي، فإذا تم ذلك وجب على كل طائفة أن تسعى لتحقيق هذا الغرض؛ والأدباء والفنانون في طليعة هذه الطوائف، يجب أن يعيدوا النظر في الأدب والفن، فلا يضعوا في يد النشء من الأدب العربي والغناء والأناشيد والتصوير، إلا ما ينسجم مع هذا المثل، وإلا كنا كطائفة تغزل غزلاً، وتأتي طائفة أخرى فتنقض غزلها.

إن عملية التقليم هذه تكسبنا عيناً ناقدة نفرز بها الجيد من الرديء، ونميز بها الصالح من الطالح، في الشعر والخطب والأمثال والحكم والقصص والأغاني والروايات، وكل ضرب من ضروب الأدب، وكل نوع من أنواع الفن.

إن الأدب العربي في جملته نوعان: نوع غير صالح لحياتنا الواقعية التي نحياها الآن، ولا يتفق مع مثلنا الأعلى الذي ننشده في هذا الزمان؛ وهذا يجب أن يوضع في متحف، كالآثار القديمة يعنى به الخاصة وحدهم ومؤرخو الأدب فقط. ونوع صالح لزماننا ومثلنا، وهذا وحده هو الذي نسلمه لنشئنا، ونصوغ منه أمانينا، ويستشهد به أبناؤنا، ويحفظ منه جيلنا.

إنا بعرضنا كل الأدب العربي على الناشئين بغثّه وسمينه وصحيحه وفاسده - من غير «تقليم» - نضع في أذهانهم صوراً مختلفة متناقضة لمثل مختلفة يضرب بعضها وجه بعض، ولا نكوّن لهم مثلاً أعلى منسجماً، فتكون النتيجة بلبلة الأفكار، وحيرة الأذهان واضطراب الناشئ يميناً ويساراً، وأماماً وخلفاً، وفي هذا ضرر بيّن على عقله وعواطفه.

ما بالنا في فروع العلم المختلفة نعلمه ما أثبت العلم صحته في الطبيعة والكيمياء والرياضة والجغرافية وعلم الأحياء، ولا نعلمه بجانبه ما أثبت العلم فساده من سطحية الأرض، ودوران الشمس حولها، وخلق الحي من غير الحي ونحوها، ثم لا نفعل ذلك في

الأدب، فنعلمه ما صح وما فسد، وما يبعث عواطف مريضة بجانب ما يبعث عواطف صحيحة.

لا بد أن يكون لنا منهج واحد وأسلوب واحد في هذا وذاك، وإلا كنا نزن بميزانين ونكيل بكيلين.

* * *

هذه العملية الأولى. وأما العملية الثانية وهي «التطعيم» فأعني بها أننا ندرس وجوه النقص في أدبنا وفننا، فيعكف أدباؤنا على ملافاته، وندرس مثلنا الأعلى فنرى ما يدعمه ويقويه مما ليس في أدبنا فنخلقه، ونجعل هذا النوع وما استصفيناه من الأدب القديم غذاءنا.

لشد ما نحتاج في أدبنا إلى الإكثار من تحليل الشخصيات العظيمة لتخلق فينا عظماءَ جدداً، ولشد ما نحتاج إلى الكتب الجذابة لنشئنا لتغذيتهم بالمبادئ القويمة، ولشد ما نحتاج إلى شعر في الطبيعة وجمالها، وإلى شعر جادّ قويّ أخلاقي روحي نابع من خيال رفيع. ولشد ما نحتاج إلى القصص تشرح العيوب الاجتماعية، وتستغفل القارئ فتضع له الدواء القوي المر أثناء تلذذه بحادثة أو منظر! إلى نحو ذلك.

عملية «التقليم والتطعيم» هي قانون الحياة. نشذب الشجر لينبت العود الصالح، ونقطع العضو الفاسد في الجسم حتى لا يسري فساده إلى السليم، ونطعم الشجرة لتنتج خير الثمار وأحسن الأزهار، ونضحي في كل شيء بالقليل لنغنم الكثير وندفن الميت لنستقبل الحي. فما لنا لا نفعل ذلك في الأدب والفن؟

لقد مر على العالم الإسلامي عصور حية زاهرة أنتجت أدباً حياً زاهراً. ومر عليه عصور ميتة جامدة أنبتت أدباً ميتاً جامداً، ولا بد لنا من التنقية والاختيار.

وعلى الجملة لا يمكن أن يصلح أدبنا وفننا إلا بعمليتي التقليم والتطعيم، ولو كره الكافرون.

* * *

التقليم والتطعيم في اللغة

ما قلناه من إجراء العمليتين في الأدب يصدق تمام الصدق على اللغة، فمادة اللغة العربية تحتاج إلى تقليم وتطعيم.

ذلك أن اللغة عَرَض من أعراض الأمة تتقدم بتقدمها وتنحط بانحطاطها؛ فلغة العرب في الجاهلية كانت تكفي لحاجاتهم القليلة ومنازع نفوسهم المحدودة وشئونهم الاجتماعية الأولية. فلما جاء الإسلام لم ير اللغة الجاهلية كافية له، فنماها من ناحيتين: من ناحية استعمال الكلمات الجاهلية في معان جديدة لم تكن تستعمل فيها من قبل، ومن ناحية تعريب كلمات من لغات أخرى، وهكذا كان الشأن في العصر الأموي والعصر العباسي؛ ولو أحصينا مفردات اللغة في هذه العصور المختلفة لوجدناها قليلة نسبياً في الجاهلية، كثيرة في صدر الإسلام. كثيرة جداً في العصر العباسي؛ وليس الأمر في ذلك مقصوراً على مفردات اللغة وعدد كلماتها، بل نجد كلمات ماتت بموت مدلولها في الجاهلية وكلمات ظلت حية في العصور المختلفة لحاجة الأمة إليها.

كانت إذاً عملية التقليم والتطعيم مستمرة في هذه العصور، تحكم بالإعدام على الألفاظ التي لا تحتاج إليها أو التي تستثقلها، وتقتبس من العبرانية والسريانية والهيروغليفية والحبشية والفارسية واليونانية واللاتينية وغيرها ألفاظاً جديدة حسبما تدعو إليه الحياة اليومية الواقعية.

متى تعد اللغة راقية وافية؟

عندي أن مقياس ذلك شيئان أساسيان:

(1) أن تكون في طبيعة اللغة مرونة من اشتقاق وارتجال ووضع ومجاز ونقل عن لغة أخرى، وهكذا يمكن أصحابها أن يقلّبوا الكلمات ويصوغوها حسب تعدد المعاني وتغيراتها الدقيقة.

(2) أن تسد حاجة المتكلمين بها، وتوفر ما وصلت إليه أمتها من علوم وفنون، وتعبر عما يشعرون به ويفكرون فيه في شمول ودقة وإحكام، ولكن بشرط أن لا تكون الأمة بلغت

مبلغاً كبيراً في الحضارة؛ أما إذا كانت الأمة أولية ولغتها مثلها أولية فلا يكفي لعدها راقية أن تسد حاجتها.

ويخيَّل إليَّ أن الشرط الأول يجعل اللغة راقية، والشرط الثاني يجعلها وافية، وهما معاً يجعلانها راقية وافية.

واللغة العربية - في ضوء هذا الذي ذكرنا - راقية بمرونتها التامة، غير وافية الآن، لأنها لا تطابَقُ بينها ويبن حاجاتنا، ولا تسد كل ما وصل إليه العلم والفن والفكر من إنتاج؛ فالعلماء والفنانون لا يجدون فيها كفايتهم، والصناع والعمال لا يعبرون بها عما في أيديهم، والمفكرون يتعثرون في التعبير بها عن بعض أفكارهم.

وإذا كانت اللغة العربية بطبيعتها راقية كان العيب ليس عيباً ذاتياً فيها، وإنماعيبها عيب القائمين عليها المصرفين لزمامها المالكين لقيادتها.

ولا بد - لمعالجتها - من هاتين العمليتين: «التقليم والتطعيم».

فأما التقليم فإن معاجمنا مملوءة بكلمات لا حاجة لنا بها ومترادفات كثيرة للشيء الواحد يكفينا بعضها، والزمن قد فعل فعله المعقول فأهمل كلمات كثيرة لم يستعملها الكتاب ولا الشعراء ولا المؤلفون ولا المتحدثون فيما ينتجون، ولم يشعروا يوماً ما بحاجتهم إليها لغَناء غيرها عنها، أو لانعدام مدلولها في حياتهم اليومية.

والسبب في هذه الكثرة البالغة المتجاوزة الحد في متن اللغة أن اللغة العربية كانت لغة قبائل متعددة، لكل قبيلة ألفاظها وتراكيبها في حدودها المعقولة وحاجاتها المتداولة، فجاء العلماء في آخر العصر الأموي وصدر العصر العباسي، فجمعوا ما وصلوا إليه من كل هذه اللغات من غير تفريق ولا تمييز، ومن غير أن يفردوا كل قبيلة بألفاظها، فكان لنا من ذلك كله ثروة كبيرة لا حاجة لنا بها إلا في شرح ما ورد عن هذه القبائل من أدب، أما حياتنا اليومية وتفكيرنا وأدواتنا فليست تحتاج إلى شيء كثير من هذا المترادف.

ومما يؤسف له أن هؤلاء العلماء عنوا في عملهم بالجمع، ولم يعنوا بجانب ذلك بالاختيار، مع أن الاختيار عمل لا يقل شأناً عن عملية الجمع.

وأكثر من هذا داعياً للأسف أنهم قصروا جمعهم على اللغات الممعنة في جزيرة العرب البعيدة عن الحضارة، كتميم وقيس وأسد وهُذَيل، ولم يرضوا أن يأخذوا شيئاً من المتاخمين لأهل الحضر لفساد لغتهم في زعمهم، مع أنهم لو أخذوا عنهم لأمدونا بألفاظ كثيرة نحن

أحوج إليها في حضارتنا؛ فقالوا لا نأخذ من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر، ولا من قضاعة وغسان لمجاورتهم أهل الشام، ولا من تغلب لمجاورتهم سكان الجزيرة، ولا من اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة، وتفرغوا فقط لجمع لغة العرب الصرفة المنزهة عن الاختلاط، وهي وجهة نظر قد تكون صحيحة لو أنهم لم يقتصروا عليها، وجمعوا معها اللغات المتاخمة، لأنها أغنى وأوفر وأقرب لسد حاجة المدنية والحضارة.

أرادوا - لقصر نظرهم - أن يقتصر الناس على استعمال الألفاظ العربية الصحيحة المستعملة في جزيرة العرب، وفاتهم أن هذا مستحيل، وأن الناس بعد مدنيتهم لا تكفيهم لغة بداوتهم، كما لا يكفي ثوب الطفل لجسم الرجل.

ولذلك اضطر المؤلفون والأدباء والكتاب والمتحدثون ألا يخضعوا لحكمهم وأن يستعملوا الكلمات غير العربية سداً لحاجتهم، وطبقاً لمقتضيات أحوالهم، واضطر أصحاب المعاجم أن يدخلوا في معاجمهم الكلمات الأعجمية المعربة والمصطلحات العلمية المستحدثة، كما فعل صاحب القاموس المحيط، فقد تضخم معجمه بهذا كله، وكما فعل أكثر منه صاحب تاج العروس في شرح القاموس.

* * *

عملية التقليم هذه تتطلب أن نستبعد الألفاظ التي لسنا في حاجة إليها، وأن نخلي مكانها لما نحتاج إليه؛ فليس فخر اللغة أن يكون فيها ثمانون اسماً للعسل، وخمسون للأسد، وأربعمائة للداهية الخ. بل يكفي من كل ذلك أربعة ألفاظ أو خمسة، ثم نفسح المجال لأسماء المخترعات الحديثة والمصطلحات الجديدة. نعم يجب أن تكون هناك معاجم تحوي كل ما أثر عن العرب، ولكنها تكون معاجم تاريخية يرجع إليها الخاصة، أما المعاجم التعليمية التي تكون بأيدي جمهور الناس فيقتصر فيها على الكلمات الحية.

لقد قالوا إن كتاب الصحاح اشتمل على أربعين ألف مادة، والقاموس على ستين ألفاً، ولسان العرب على ثمانين ألفاً، فما أحوجنا إلى إماتة نصف هذا العدد على الأقل، لنحي مكانه ما نحن في حاجة إلى إحيائه.

ثم هذه المعاجم اللغوية محتاجة أيضاً إلى تقليم من نوع آخر، وهو كثرة ما ورد فيها من تخريف يفسد العقل! ففيها - مثلاً - أن: «القاف جبل محيط بالأرض أو من زمرد، وما من بلد إلا وفيه عرق منه»، وفيها: «أن الهرمين بناءان أزليان بمصر بناهما إدريس عليه السلام،

أو بناهما سنان بن المشلشل، أو بناهما الأوائل لما علموا بالطوفان من جهة النجوم، وفيهما كل طب وسحر وطلسم» وفيها: «أن أبا عروة رجل كان يصيح بالأسد فيموت فيشق بطنه فيوجد قلبه قد زال عن موضعه»، إلى كثير من أمثال هذا الهذيان.

كل هذا يجب أن يقلم، ويقلم أيضاً التفسير الذي كان جارياً على ما كان معروفاً أيام المعاجم القديمة ثم تغير بتقدم العلوم، فتفسير الكسوف والخسوف والظواهر الطبيعية والنبات والحيوان وما إلى ذلك كله يجب أن يكون حسبما وصل إليه العلم الحديث، لا حسب ما كان معروفاً في العهد القديم.

لسنا في حاجة إلى أن يكون للأسد خمسون اسماً وللعسل ثمانون وللسيف أكثر من ذلك، إنما نحن في أشد الحاجة إلى أن يكون لكل شيء تقع عليه حواسنا وكل معنى تصل إليه عقولنا اسم نصطلح عليه ونتبادل به التعبير عنه، ولا يكون ذلك إلا بإغفال كثير مما ورد في المعاجم مما لا نحسه ولا نحتاج إليه، ولا يمس شيئاً من حياتنا الواقعية.

فإذا أعدمنا هذا الذي لا نحتاج إليه فتلك عملية التقليم، ثم تأتي بعد ذلك عملية التطعيم بأن نملأ المكان الذي فرغ من إزالة الألفاظ الميتة باستعمال كلمات للدلالة على كل شيء نحسه أو نشعر به أو نفكر فيه، إما بالتعريب والوضع أو توسيع معاني الكلمات القديمة.

وهذا ما فعلته الأمم الحية كلها، وفعله العرب أنفسهم والمستعربون الأولون. لقد كانوا يأكلون الثريد والمضيرة، ثم صاروا يأكلون الفالوذج والسكباج والكباب، فلما أكلوها عربوا أسماءها وأدخلوها في لغتهم؛ وكانوا يسمعون الصَّنْجَ والمزمار، فصاروا يسمعون الناي والقانون والبربط، فلما سمعوها عربوها؛ وكانوا يسكنون في الخيام، فصاروا يسكنون الدور مزينة بالفسيفساء والقاشاني، فلما استعملوها عربوها؛ وما كانوا يعرفون علماً، ثم عرفوه، فواجهوا مصطلحات العلوم من جبر وهندسة ومنطق وطب وفلسفة، فمرنوا لها وتغلبوا على صعوبتها، وجعلوا لكل شيء لفظاً منقولاً أو مرتجلاً أو مشتقاً، فكانت لغتهم تطابق معيشتهم.

أفليس غريباً بعد ذلك أن نجمد على ما وصلوا إليه مع أن المدنية والحضارة والعلم والصناعة ووسائل المعيشة لم تقف حيث وقفوا، ونمت أضعاف ما كانت؟

أخطر خطأ في هذا الباب اعتقادنا أن اللغة مقدسة. فنعبدها ونجلها، ولا ندخل عليها تغييراً ولا تعديلاً، مع أن اللغة خادمتنا وليست سيدتنا ولا إلٰهنا، هي التي تخضع لنا، لا نحن الذين نخضع لها، هي عرض من أعراض حياتنا كالثوب نلبسه والمتاع نستخدمه والبيت

نسكنه، وكل شيء من ذلك يجب أن يخضع لظروفنا ومقتضيات أحوالنا؛ يغير الثوب حسب تغير الجسم، ويبدل بناء البيت حسبما تتطلبه راحتنا، ويصلح المتاع حسب موقفه منًا: وهكذا اللغة هي آلة خادمة ذليلة للتعبير عما في نفوسنا، نملكها ولا تملكنا، وتقدسنا ولا نقدسها. ويجب أن تموت أجزاؤها وتحيي أجزاؤها وتخلق أجزاؤها حسب حاجتنا، وأن تتشكل لنا لا أن نتشكل لها، وإلا كانت لغة أثرية لا لغة حية.

إن كانت اللغة غير مقدسة فمعاجمها غير مقدسة، يجب أن تخضع لكل تقدم علمي نصل إليه؛ فتعريف الألفاظ يجب أن يكون حسبما أقره العلم الحديث، واللفظ إذا استعمله جيلنا ولم يكن في المعاجم وجارياً على النمط العربي يجب أن يدون فيها، ولا يحتج بأنه غير موجود في المعاجم القديمة، ولا نصغي إلى هؤلاء المتزمتين الذين يصرخون دائماً في وجهنا: «إن هذا ليس في القاموس» كأن القاموس كتاب منزل يتعبد به - إن هذا النمط من القول شل للفكر وعقدة في اللسان وتعويق للأقلام، وحرام ما نحن فيه من ضياع أوقات المدرسين والمفتشين في الجدال في أن هذه الكلمة في المعجم أو ليست فيه، وفي سبيل ذلك تضيع قيمة المعاني والأفكار والأساليب.

كم أعمار ضاعت في هذا الباب على غير جدوى، وكم صحائف سودت في هذا الموضوع من غير طائل، وكل هذا مبني على هذا الخطأ في تقديس اللغة.

ما يضرنا أن نستعمل تعبير «من جديد» إذا استسغناه ولو لم يرد في المعاجم؟ وما يضرنا استعمال كلمة «هناء» إذا أقرها أدباؤنا ولو لم توجد في المعاجم؟ ولماذا نفحم في الإجابة إذا قال قائل إنها وردت في كتاب «العمدة» أو في مقدمة ابن خلدون، ولا يكون لنا الحق الذي كان لابن رشيق وابن خلدون؟

لقد ظنوا أن «القاموس» نصّ على كل لفظ عربي، فما لم يوجد فيه فليس بعربي، وهذا غير صحيح مطلقاً، فهو لم يذكر «الرحمن الرحيم» في رحم، وقال: «الشنار أقبح العيب والعار» ولم يذكر العار في مادته، وقال في أول كتابه: «الحمد لله منطق البلغاء باللغَى في البوادي». ولم يذكر في مادة لغة أنها تجمع على لُغَى، وقال في الخطبة أيضاً: «فصرفت صَوْبَ هذا القصد عناني» ولم يذكر في مادة صوب أن من معانيها الجهة، إلى كثير من أمثال ذلك.

وهبْ أن العرب لم ينطقوا بها، فلماذا لا ننطق بها نحن إذا جرت على أساليب العرب وأوزانها وأصولها.

كل ما في الأمر أن المسألة لا يصح أن تكون فوضى ينطق كل من شاء بما شاء. وإلا انقلبت الحربية إلى عكس المراد منها، فاللغة مواضعات ووسيلة للتفاهم في حدود معقولة؛ إنما الواجب أن يكون في الأمة متخصصون مرنون أحرار عالمون بالعربية وأسرارها مطلعون على حاجة الأمة ومطالبها اللغوية، يوسعون على الناس في كلامهم وفق أسس اللغة ويضعون لها ما هي في حاجة إليه.

وهذا هو عمل المجامع اللغوية لو أنها قامت بواجبها.

* * *

لغة الأزهار والثمار

مما التفتت إليه الحضارة الإسلامية وتفننت فيه لغة الأزهار والثمار والتخاطب بها، وخاصة في مجال الحب والغرام.

لقد عنوا بالأزهار والثمار، فجلبوا أنواع الأشجار من أطراف الدنيا، وتفننوا في المغارس وطعموها، وولدوا منها أنواعاً جديدة، وبحثوا وجربوا وألفوا، ووضعوا التقاويم لما يعمل في كل شهر من شهور السنة لأنواع النبات المختلفة، ثم أنشأوا البساتين حول البيوت وعلى شواطئ الأنهار وفي ضواحي المدن؛ وبلغت بغداد في ذلك مبلغاً عظيماً، فخصصوا بعض البساتين لبعض الأزهار أو الثمار، فنرى - فيما يرد من الأخبار - «بستان النارنج» و«بستان التفاح» و«حديقة النرجس» و«حديقة الورد» و«حديقة البنفسج». وقال ابن وحشية: «إنهم لشدة غرامهم بالنرجس أكثروا من زرعه، وأقاموا له حدائق بذاتها». وقال المقدسي: «إنهم اعتنوا شدة الاعتناء بالبنفسج، فكان من أحسن ما يمكن، جيد الرائحة، لا يشبهه بنفسج، وغرسوه في حدائق خاصة»، وأحاطوا البساتين بشجر السرو، قال أحمد بن سليمان بن وهب [من الكامل]:

حُفَّت بسَرْوٍ كالقيان تلحَّفَتْ
خُضَرَ الحرِير على قَوامٍ معتدِلْ
فكأنها والريح حين تُميلُها
تبغي التعانق ثم يمنعها الخَجَلْ

كما أحاطوها بشجر الخِطْمِيّ، لأنه يتشابك ويعلو نحو القامة وله شوك، ومن أجل ذلك صلح سياجاً، وحرسوها بالكلاب الكبيرة القوية الجارحة، جاء في الأغاني أنه قيل لعثمان بن دراج الطفيلي (وكان في ايام المأمون): أتعرف بستان فلان؟ قال: إي والله، إنه للجنة الحاضرة في الدنيا. قيل: فلم لا تدخل إليه فتأكل من ثماره، وتجلس تحت أشجاره، وتسبح في أنهاره؟ قال: «لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال».

وتردد عليها الناس ينعمون بمناظرها وهوائها، ويأكلون من ثمارها، ويشربون تحت

ظلالها؛ وكانت نعمة على الأدب بما أوحت وما ألهمت، ومصداق ذلك شعر أبي نواس وغيره من الشعراء.

وأكثروا من زراعة الأزهار، وأبدعوا في تلوينها وتوليدها؛ فهذا الخِيرِيّ (المنثور) كانوا يعرفون منه سبعة ألوان. قالوا: «وقد يركب بعضه على بعض، فيقبل التركيب، ويخرج زهره مركباً في اللون والطبع والريح، ولكن في تركيبه صعوبة، لأنه يحتاج إلى لطافة في العمل وصبر وحذق».

وهذا البنفسج يحتفلون به كل الاحتفال، وباكورته لا تهدى إلا لخليفة أو وزير أو أمير، وتجعل منه طاقات تدور بها فتيات جميلات في الشوارع والأسواق، فيأخذ المشتري من الفتاة زهرة ويمنحها ما شاء من دراهم، وعنوا به عناية فائقة في غرسه وسقيه واختبار منبته، لرقة طبعه ولطف مزاجه.

وهذا الورد أصنافه لا تعد ولا تحصى: منها الأبيض الخالص البياض، والأبيض المنقط بصفرة، والأصفر الذهبي، والأحمر القاني، والأحمر الفاتح، والأحمر القريب من السواد، والورد الألفي سمي بذلك لكثرة ورقه، حتى ظنوا أنها تبلغ الألف مبالغة، ومنه نوع نصفه أحمر ونصفه أبيض، أو نصفه أحمر ونصفه أصفر، وورد خارجه أحمر وداخله أصفر، وسموه الورد الموجّه، وفيه يقول بعضهم [من البسيط]:

وردة جَمَعَتْ لونيَّ خِلْتهما
خدَّي حبيب وخدَّي هائمٍ عَشِقا

تعانقا فبدا واشٍ فَراعَهما
فاحمرَّ ذا خجلا واصفرَّ ذا فرَقا

وكان بعض باعة الورد يدخنون الورد الأحمر بالكبريت على أشكال مهندسة فيبيضُّ مكان دخان الكبريت، ويكون له نقش عجيب، ويدّعون أن ذلك طبيعي، فيبيعونه للمغرمين بالورد بأثمان عالية.

وهذا النرجس أحبوه وفتنوا به، وحسنوا نوعه، وقالوا إن خير أنواعه النرجس المضاعف والنرجس الدمشقي.

وتأمل فيما ذكره المسعودي في وصف «بستان النارنج» قال: «وكان للخليفة القاهر بستان

من ريحان وغَرْس من نارنج قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره، من أحمر وأصفر وأزرق وغيرها، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر، وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الأطيار من القماري الشحارير والببغاء، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار، وكان «القاهر» أكثر جلوسه فيه، وكل شربه عليه».

* * *

ثم بلغ من ولوعهم بالأزهار والثمار أن كان لها بين الظرفاء والمحبين والمتيمين لغة متعارفة تدل على الهجر والوصل، والدعوة والتحذير، والتفاؤل والتشاؤم، وما إلى ذلك.

فأحياناً يتخذون هذه المعاني مما يرمز إليه اسم الزهرة أو الثمرة، فكرهوا التهادي بالسفرجل لأن أوله سفر: قال الشاعر [من الكامل]:

أهدت إليه سفرجلًا فتطيرا
منه وظلَّ متيمًا مستعبرا
خاف الفراق لأن أول إسمه
سفرٌ فحقٌّ له بأن يتطيَّرا

وكرهوا كذلك التهادي بشقائق النعمان، لأن أوله شقاء، وفي ذلك يقول الشاعر [من المقتضب]:

لا يحب الشقائقا
كل من كان عاشقا
إن نصف اسمه شقا
ءٌ إذا فُهْتَ ناطقا

ويكرهون التهادي بالذهب حتى لا يعتري العشق ذهاب، ومن ذلك كراهتهم للتهادي بالسوسن، لأن أول اسمه سَوْء، والياسمين لأن أوله يأس، والخِلاف لدلالته على الخلاف، والبان لدلالته على البين وهكذا، وقد وردت في ذلك أشعار كثيرة.

وكثيراً ما كانت تخرج الجارية ومعها حارس فتصطحب طاقة من أزهار ورياحين، ثم تشير لصديقها خلسة بما تريد مما يدل عليه نوع هذا الزهر أو هذا الريحان، فتشير - مثلاً - بالنمام إلى أن حارسها نمام، وهكذا.

ويتفاءلون بالتهادي بالعود لأن في اسمه معنى العودة، وبالنبق لإيمائه إلى البقاء، كما قال الشاعر [من الهزج]:

أيـا أحْـسَـنَـنـا خَـلْـقـا
ومـن فـاتَ الـورى سَـبْـقـا

تـفـاءَلْـت بـأن نـبـقـى
فـأهـديـت لـنـا الـنَّـبْـقـا

فـأبـقـاك إلـه الـنـا
س مـا سَـرَّك أن تـبْـقـى

وأحياناً يرمزون بالزهر أو الثمر، لا من حيث ما يدل عليه لفظه، ولكن من حيث ما يدل عليه معناه أو ترمز إليه صفاته، فكرهوا التهادي بالأُتْرُجّ لأن ظاهره غير باطنه فهو حسن الظاهر حامض الباطن، طيب الرائحة مختلف الطعم، قال الشاعر [من الكامل]:

أهـدى لـه أحـبـابـهُ أُتْـرَجَّـةً
فـبـكـى وأشـفـق مـن عِـيـافـة زاجـرِ

خـافَ الـتـلـوُّنَ إذ أتـتـه لأنـهـا
لـونـان بـاطِـنُـهـا خـلافُ الـظـاهِـر

ورمزوا بالبنفسج للوفاء والمحافظة على العهد، قال الشاعر [من الكامل]:

أهـدت إلـيـه بَـنَـفْـسـجـاً يـسـلـيـه
تُـنـبـيـه أن بـنَـفْـسـهـا تُـفْـديـهِ

وإلى قريب من هذا المعنى يرمز بعض الإفرنج، ففي إهدائه معنى اذكرني ولا تنسني؛ ولا أدري من أي صفات البنفسج اشتقوا هذا المعنى إلا أن يكون مجرد مواضعة.

وأما الورد فاستعملوه كثيراً أداة للتحية، قال الشاعر [من الطويل]:

عـشـيَّـة حـيَّـانـي بـورد كـأنـه
خـدود أضـيـفـت بـعـضـهـن إلـى بـعـضِ

وتطيَّر منه بعضهم لأنه قلَيل اللبث سريع الفناء، وفي ذلك يقول القائل [من مجزوء الرمل]:

أنـــــت ورد وبـــــقـــــاء الـــــ
ـورد شـــــهــــــر لا شـــــهــــــورُ
يـــــذهـــــب الـــــورد ويـــــفـــــنـــــى
والـــــى الآس نـــــصـــــيـــــر

ورمزوا بالورد الموجه للتهتك والحب للمال، فيشير به المحب للقينة المغنية بأنها لا تفي بحب، إنما تحب المال.

ويرمزون بالظرفاء إلى أن صاحبها عشق فذبل فاصفرَّ، فهو يحملها استعطافاً، يشكو الألم ويستجدي الرحمة.

* * *

ومما يتصل بهذا الباب ما شاع عندهم من صنع تماثيل من العنبر يمثلون فيها أشخاصاً أو طيوراً أو أزهاراً أو حيوانات، ويسكون بعضها بالذهب، ويضعون فيها فصوص الأحجار الكريمة، يبتاعها الناس للتهادي، ويرمزون بها لغرض يرمون إليه.

وقريب من هذا – وإن لم يكن رمزاً – ما حكى بعضهم أنه رأى بين يدي بعض الكُتَّاب طبق ورد أحمر قد كتب فيه بورد أبيض، وما حكى آخر أنه رأى طبق ريحان كتب فيه ياسمين ونسرين.

أما التفاح فقد تفننوا فيه أكبر تفنن، وحمَّلوه أنواع الرسائل، وجعلوه يمثل أعظم دور في الحب والغرام، وساعدت حمرته وصفرته أن يتلاعبوا به، حتى بلغ من حب بعض الظرفاء له أن حرّم على نفسه أكله لأنه تمثَّلَ فيه حبه، وحتى بلغ من تفنن الهواة أن كان بعضهم يبتدر التفاح وهو على شجره، فيشير فيه إشارة، أو يكتب عليه شعراً، حتى إذا نضجت التفاحة كانت صفراء والإشارة أو الكتابة عليها حمراء أو العكس، فيتهادون بها أو يبيعها البستاني بالثمن الكبير، وقد قال الشاعر في تفاحة صفراء كتب عليها بالأحمر [من السريع]:

تُـــفّـــاحـــة صـــيـــغـــت كـــذا بـــدْعـــة
صـــفـــراء فـــي لـــون الـــمـــحـــبـــيـــنـــا
زيَّـــنـــهـــا ذو كَـــمَـــدٍ مـــذْنَـــف
بـــدَمْـــعِـــه إذ ظـــلَّ مـــحـــزونـــا

وتصوف فيها بعض العشاق فقرأ فيها رمز الجمال، واتخذها أنيساً في خلوته، جليساً في

وحدته، نديماً على الشراب إذا عدم الندمان، وأهداها المحب رسولَ الغرام، وشفيع الهوى، وأهدتها الحبيبة دليل الرضا وانتهاء الجفاء [من السريع]:

لـمّـا نـأى عَـنْ مَـجْـلـسـي وَجْـهُـه
ودارت الـكـأسُ بـمُـجْـراهـا

صَـيَّـرْتُـه تـفـاحَـةً بـيـنـنـا
إذا ذَكَـرْنـاه شَـمَـمْـنـاهـا

واهـاً لـهـا تُـفّـاحـة أشْـبَـهـت
خـديـه فـي بَـهْـجَـتِـه واهـا

* * *

و [من الطويل]

ذكـرتـك بـالـتّـفّـاح لـمّـا شَـمَـمْـتُـه
وبـالـراح لـمـا قـابَـلْـتُ أوجـه الـشَّـربِ

تَـذَكَّـرْتُ بـالـتّـفّـاح مـنـكِ سـوالـفـاً
وبـالـراح طـعْـمًـا مـن مُـقَـبَّـلـك الـعـذبِ

هذا قليل من كثير مما ورد في الأدب العربي في هذا الباب.

* * *

حديث الخميس

كانت جلسة طريفة، جلسة الخميس الماضي في «لجنة التأليف» ضمت طائفة من خير رجالنا، ومن بعض إخواننا السوريين، وتشقق الحديث وتنوع وذهب فنوناً، إلى أن انتهى المطاف بنا إلى الشرق وشئونه.

قال أحدنا: إن أشد ما يؤسفني من حالة الشرق الآن أن أمامه فرصاً نادرة، ثم هو لا يعرف كيف ينتهزها. كل أمم الأرض تدرس موقفها واحتمالات نتائج الحرب الحاضرة وترسم خطتها لمستقبلها، وتكلف علماءها وقادتها أن يدرسوا شئونها، وما كشفته الحرب الحاضرة من عيوب نظامها، وما تقترح في المستقبل من معالجتها هذه العيوب، وما تؤمل من نظم جديدة لإصلاح هذه الأمراض، فهم يجمعون الإحصاءات، ويتقصون المشكلات، ثم يضعون الخطط، ويرسمون طرق التنفيذ. أما الشرق فلم يعبأ بكل ذلك، وترك الأمور للقدر يسيرها كيف شاء، كأن الحرب لا تعنيهم، وكأنها لا تقرر مصيرهم، وكأن الأمم لا تتقاتل عليهم؛ فلو سألت قادتهم: ما خطتكم المستقبلة، وماذا تؤملون، وماذا تفعلون، لتبلغوا ما تريدون، لم يحيروا جواباً، كأن السؤال لم يخطر لهم على بال.

ـ هل هناك حاجة لمثل هذه الأسئلة؟ إن الغاية واضحة وهي الاستقلال، وكفى به مطلباً.

– الاستقلال – يا أخي – كلمة عامة لا يصح أن يكتفى بطلبها، والمناداة بها من غير بحث وتفصيل، هي كخطيب الجمعة يقول: اتقوا الله واعملوا صالحاً، من غير بيان لما هو العمل الصالح المحدود المبين الذي يدعو إليه. خذ لذلك – مثلاً – استقلال سوريا؛ فهم حين بدءوا يخرجونه إلى حيز العمل ظهرت مشاكل عدة: ما هي حدود سوريا؟ وكيف تحكَم؟ وما موقف أجزائها المختلفة؟ ونحو ذلك؛ فإذا فصلت الأمور ظهرت عيوبها ومشاكلها، وتطلبت هذه المشاكل وهذه العيوب حلولاً.

– وماذا تطلب من الشرقيين أن يفعلوا؟

– أطلب أن يتناسى قادة كل أمة الخلافات الشخصية بينهم، ويجتمعوا ويتشاوروا في مستقبلهم، ويضعوا الخطط التي يكسبون بها من ظروفهم الحاضرة؛ فليس يكفي تدبير الغذاء

وضبط الأسعار، إنما لا بد من حصر ما نشكو منه وما أبانت الحرب الحاضرة من سوء موقفنا، ثم الإجابة عن هذه الأسئلة: كيف نتقيها؟ وكيف نسلك السبيل لملافاتها وما واجبنا الآن نحوها؟ وما واجبنا بعد أن تضع الحرب أوزارها؟ فإذا فرغ قادة كل أمة من ذلك التقوا بقادة الأمم الأخرى الشرقية، فتفاهم الجميع على الخطط المشتركة الممكنة، ورسموا مدى التعاون فيما بينهم، وأعلنوا ما يصح إعلانه في ذلك لأممهم، فإن في كل أمة شباناً ملئوا وطنية وحماسة وإخلاصاً، ولكنها حماسة غامضة، حماسة حائرة لا تعرف أين تتجه، وهم يتطلعون يميناً ويساراً إلى قادتهم فلا يجدون منهم مرشداً.

– إني أفهم قولك فيما يتعلق بكل أمة، ولكن أصارحك القول أني لم أفهم هذا الكلام فيما يتصل بالأمم الشرقية أو العربية، فلكل أمة مشاكلها الخاصة. هذه فلسطين مشكلتها اليهود، وهذه سوريا مشاكلها طريقة اتحادها، وكيف يكون موقفها من لبنان، وموقفها إزاء فرنسا الحرة وغير الحرة، ومشكلة العراق الخلافات بينه وبين إيران، وتنوع عناصره بين عرب وكرد، وسنية وشيعة، وبدو وحضر الخ. فكيف تربط هذه الأمم برباط واحد، وتحملها كل هذه المشاكل؟ إنك إن فعلت هذا كنت كمن يكلف عشرة رجال من أرباب الأسر ألا يعنى كل بأسرته، بل يعنى العشرة بالأسر العشر على السواء؛ وفي هذا من الضرر ما لا يخفى، ومن ضياع المصالح ما هو واضح جلي؛ لهذا لم أفهم الحلف العربي على الصورة التي شرحها الكتَّاب؛ خير لكل أمة أن تعنى بشئون نفسها وتجاهد في سبيل نيلها حقوقها، وتتخذ الوسائل التي تراها لترقية أحوالها.

– إن اختلاف المشاكل لا يحيل التعاون، فهذه الأمم الأوربية والأمريكية مع اختلاف مواقفها ومشاكلها لم يمنع كل دولة أن تتحالف مع من ترى المصلحة في محالفتها. ولست أقصد أن مشاكل كل أمة تحلها الأمم جميعاً بواسطة ممثليها، فهناك مشاكل داخلية تستقل بحلها كل أمة كما يتراءى لها، وهناك مشاكل خارجية يمكن التعاون بين الأمم الشرقية في حلها، وقادة الرأي في الأمم المختلفة مجتمعين أقدر على حلها متفرقين، وصوتهم أشد قبولاً وأدعى استماعا. وهب أن التعاون السياسي والحربي عسير، فما قولك في التعاون الثقافي والاقتصادي؟ أليس إذا بدأنا هذه الخطوة وثبت نجاحها كان ذلك أدعى إلى التعاون السياسي، وعلى الأقل التشاور السياسي؟

– إني أسلم بالتعاون الثقافي والاقتصادي، ولكني أستصعب التعاون السياسي؛ وهب أنه جائز نظرياً، فهل ترى أن الدول الأوربية تمكّن الشرق من ذلك؟

- أعتقد كل الاعتقاد أن نظرة الغرب إلى الشرق ستتبدل بعد هذه الحرب. لقد كانت النظرة السائدة عند الغرب إلى أيام الحرب الحاضرة أن الشرق يجب أن يكون ضعيفاً حتى يسهل استغلاله، وجاهلاً حتى لا يعرف حقوقه، ومنهمكاً في شهواته حتى لا يفيق إلى نفسه؛ ولكني أعتقد أنه وجد في الساسة الغربيين من أصبح يرى من مصلحته أن يكون الشرق قوياً مسلحاً عاقلاً متيقظاً، ثم يصادقه مصادقة القوي للقوي، ويوجهه لخير الإنسانية ولبناء العالم؟ وأظن أن هذه النظرة البعيدة العميقة هي التي ستسود بعد الحرب، وهب أنها لم تسد أفيحق للغرب أن يتعاون على عدم تمكيننا من التعاون، ثم لا نجدَّ في تذليل الصعوبات التي تحول بيننا وبين التعاون؟

- يظهر - يا أخي - أن الفرق بيني وبينك هو الفرق بين مزاجين: مزاجك المتفائل، ومزاجي المتشائم، فقد بلوتُ من تفكك الشرقيين ونومهم وخصوماتهم وبحثهم عن لذاتهم الشخصية ما جعلني أيأس كل اليأس، وأقلب الأمور على وجوهها المختلفة واحتمالاتها المتعددة، فأنتهي في كل احتمال إلى اليأس اللاذع.

- إنك مخطئ في يأسك، محتاج إلى منعش لمزاجك، وعليك أن تنظر إلى الماضي لتمتلئ أملاً في المستقبل، فانظر إلى الشرق منذ عشرين عاماً أو خمسين عاماً وانظره اليوم. ألا تراه يخطو نحو النجاح بخطى واسعة، وإن لم تنظر إليه وحده فانظر إلى أساليب الاستعمار في الأمم المختلفة كيف تحسنت وتقدمت، وكيف اتجهت نحو اكتساب قلوب الأمم المحكومة بعد أن كانت تحكمها بالعنف؛ وسيؤدي هذا السير حتماً إلى إلغاء الاستعمار فعلاً كما ألغي - تقريباً - اسماً؛ وكلا الأمرين يبشر بمستقبل للشرق زاهر، سواء من ناحية تنبه شعوبه، أو من ناحية تنبه الغرب وإدراكه التام للحقائق وبعد النظر.

* * *

ودعيت للحديث في التليفون، فغبت عن المجلس دقائق، فلما عدت وجدت مجرى الكلام تغير، فلم أدر كيف تسلسل الحديث حتى وصل إلى الكلام في الاقتصاد. سمعت قائلاً يقول:

- لا أمل لنهوض الشرق إلا بعنايته بمسائله الاقتصادية. سيظل الفلاح بائساً والعامل بائساً وأوساط الناس تعساء ما لم تصلح الحالة المالية، فهي عصب الحياة. وقد خبرت حالة سوريا والعراق ومصر فوجدتها كلها في سوء الحال سواء.

- كيف يمكن أن تصلح الحال الاقتصادية ومال البلاد في يد الشركات الأجنبية، وخير المال وزبدته لغير أهله، وليس لأهله إلا الفضلات؟ إن جمهور الأغنياء من المصريين لا يعرفون لاستغلال المال وسيلة إلا شراء الأراضي، ولا يؤمنون بشركات ولا مشروعات، وإذا آمنوا بها نظرياً فضعف ثقة الناس بعضهم ببعض يحول بينهم وبين الإقدام على التعاون وتأسيس الشركات المالية.

- وحتى إذا أسسوا لم يعرفوا كيف يزاحمون الأجانب فيها؛ وقد أعجبني ما روي أن كبيراً زار مؤسسة وطنية، فلما درس حالتها قال: «لا بأس بها لولا أنه ينقصها يهودي»، وهو بالطبع لا يعني اليهودي بمعنى الكلمة، ولكنه يعني الخلق اليهودي في معرفته وجوه تدبير المال.

- إن مشاكل الشرق المالية لا تقل خطراً عن مشاكله السياسية. فأمامه شركات وهيئات أجنبية قد وضعت يدها على موارد الثروة الهامة، وهي مسلحة بجميع أنواع الأسلحة القوية؛ فهي مسلحة برأس المال الكبير، وبالإدارة الناجحة، وبالأخلاق التجارية الرابحة، وبغير ذلك من أنواع السلاح الظاهرة والخفية. فكيف يستطيع الشرق أن يتخلص من هذا كله؟ وماذا في يد المواطنين إلا الصنائع التافهة، والزراعة التي لا تدر القوت الضروري وأعمال الخدم الحقيرة، والتجارة التي ترشح من خرم إبرة؟.

- ومن الغريب أننا إلى الآن لم نكتشف كيف نعد أبناءنا للخلق التجاري والصناعي، ولا يزال التعليم كما كان منذ قرن أكثر غايته إعداد الموظف الحكومي.

- مصداقاً لقولك أعرف آباءً كانت لهم تجارة رابحة، أو زراعة ناجحة، فرزقوا أبناءً علموهم ليحلوا محلهم، فعلموهم التجارة الحديثة والزراعة الحديثة، ومع هذا لم ينجحوا نجاح آبائهم الجهلاء، بل في حالات كثيرة أضاعوا ثروة آبائهم، ولم ينفعهم علمهم الحديث بشيء.

- وما تظن سبب ذلك؟

- سببه نقص الخلق التجاري أو الزراعي العملي الواقعي الذي يسترشد بالحياة لا بالكتب وحدها، ويدعو إلى ضبط النفس لا الجري وراء الشهوات، وإلى معرفة الرجل دخله وخرجه، وما يسمح له دخله بإنفاقه وما لا يسمح.

* * *

واستمر الحديث، وحميت الرءوس وتحفز الكثيرون للكلام في الموضوع وتأييده والرد عليه، وما نشعر إلا والنور قد انطفأ، وأتى من يخبرنا أن الأسلاك تماست ولا أمل في إصلاحها الآن. وكثيراً ما حدث مثل هذا، فمشكلة النور في «اللجنة» مشكلة مزمنة، وكل يوم تفسد الأسلاك وتصلح، وحتى هي الأخرى محتاجة إلى خبير أجنبي يصلحها صلاحاً لا فساد معه.

فإلى اللقاء!

* * *

عذاب المصلحين

قرأتُ قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 87] .

وقرأتُ حديث ورقة بن نوفل مع رسول الله، إذ حدثه الرسول بما نزل عليه من وحي، فقال له ورقة: «ليتني حياً إذ يخرجك قومك». قال رسول الله: «أو مُخْرِجِيَّ هم؟». قال: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي».

وقرأتُ كثيراً من سِيَر المصلحين المجددين، فرأيت أكثرهم - في اضطهاد الناس لهم - سواء، ورأيت تاريخهم يكاد يتشابه. دعوة حارة إلى الإصلاح، يتبعها تألب العامة عليهم، واضطهاد الرأي العام لهم، والتنكيل بالمصلح، ثم انتصار الأفكار الجديدة التي أتى بها هذا المصلح، بعد أن يكون قد انهدت قواه، أو انتقل إلى رحمة الله.

لماذا كل هذا؟ ولماذا يتشابه التاريخ حتى كأنه قانون طبيعي؟ ولماذا يتكرر هذا المنظر في الشرق والغرب وكل مكان حل به الإنسان؟

السبب في هذا أن الفكرة الجديدة تأتي وقد التأمت أفكار الناس على نمط خاص، وتجمعت وشد بعضها بعضاً وتماسكت حلقاتها.

تأتي الفكرة الجديدة غريبة عن هذه الأفكار المألوفة فلا تجد لها مكاناً بينها، ولا تجد نفسها منسجمة مع الأفكار الموجودة، ويشعر الناس أن هذه الفكرة نابية عن أفكارهم، غير منسجمة مع النظام العقلي الذي استقر في أذهانهم، فيكرهونها، ويقفون في سبيلها، وكلما كانت الفكرة الجديدة أبعد عن المألوف كانوا لها أكثر كراهية ومقتاً، وأشد تحمساً لمناهضتها وطردها أو القضاء عليها.

إن أفكار كل إنسان تبنى بنياناً مما رآه وسمعه وقرأه وصادفه في حياته، وهي مع تكونها في أزمان مختلفة تكوّن وحدة منسجمة، ولا تقبل أن يزيد عليها إلا ما لاءمها وانسجم معها. فإذا رأت فكرة جديدة لا تلتئم مع هذا النظام المحبوك؛ ولا تستطيع أن تكون حلقة في

الشبكة العقلية المنسوجة طوردت وأقصيت، ثم إن هذا النسيج من الأفكار يشعر أنه إذا أتت الفكرة الجديدة الغريبة عنه ودخلت فيه أفسدت نظامه وأقلقت راحته، فهو يصدها ويقف في سبيلها ولا يسمح لها بالدخول؛ كطائفة من الدجاج مؤتلفة منسجمة نشأت في بيت واحد ثم دخلت عليها دجاجة جديدة لم تنشأ في بيئتها ولم تعتد عاداتها، فهي تطارد وتبعد عن الحب وتنقر وتعذب.

ثم إن المخ يشعر أنه إن قبل هذه الفكرة اقتضته تعديلاً في نظامه، وتجديداً في أوضاعه، وتغييراً في نسيجه، ومجهوداً كبيراً في إعادة ترتيب القديم والمألوف، وهذه عملية شاقة لا يرتضيها العقل في سهولة ويسر، ولا سيما أنه يشعر أن الفكرة الجديدة ستكلفه إعادة تقويم الأشياء ووزنها وزناً جديداً، وهو قد استنام إلى ما حدث وألف ما كان.

ومخ الإنسان - وهو مركز عقله - أحدث الأعضاء وجوداً في الإنسان، ومادته التي يتكون منها رخوة هينة لينة، لم تتصلب تصلب الأعضاء القديمة في أسلافنا من الحيوان كاليد والرجل ونحوهما، ومن أجل هذا كان المخ أشد الأعضاء حساسية بالتعب وكراهية لمداومة العمل؛ وليس من الناس إلا القليل القادر على إعمال العقل وتحريك المخ زمناً طويلاً؛ والفكرة الجديدة تكلف المخ عناء شديداً في قبولها، لما يترتب عليها من أعمال كثيرة؛ ولذلك هو يرفض كل هذا العناء فيرفض الفكرة ويستريح؛ ولذلك كان أكثر الناس يخافون التفكير لأنه مؤلم لهم، فما يبدأ فيه حتى يشعر بانقباض في صدره، وصداع في رأسه، وما أقل من يجد في التفكير لذته.

ومن أجل هذا كان دعاة التجديد والإصلاح في كل أمة وفي كل عصر نادرين جداً، وندرتهم لم تأت من ندرة الذكاء، وإنما أتت - في الأغلب - من ندرة احتمال العقل الصبر على البحث وراء الحق، وندرة الشجاعة في اعتقاد الحق والجهر به؛ فالناس - إلا في القليل النادر - يألفون الحياة كما هي لا كما ينبغي أن تكون، وهم بين من لا يجد زمناً إلا لتحصيل قوته، ومن يجد الفراغ ولكن لا يستطيع عقله الصبر على البحث الحر، أو يجد كل ذلك ويستطيعه، ولكن لا يستطيع الجهر به لما يتوقع من متاعب وآلام: مساس بسمعته، وقدح في ذمته، وتهكم على عقله، وتجريح لخلقه، ونيل من دينه.

والتاريخ يجري على نمط واحد منذ تكونت الجمعية البشرية إلى اليوم، يلمع فيها أفراد قلائل في كل عصر، يخرجون على إلف الناس وما اعتادوه في أفكارهم وعقائدهم وعواطفهم؛ فيتألب عليهم جمهور الناس، لكسلهم العقلي، ولأن الدعوة الجديدة تقلق

راحتهم وتدعوهم إلى قلب نظامهم العقلي والعاطفي: كالذي يدعو كسلان أن يغير نظام بيته أو نظام معيشته؛ وبدلاً من أن يوجه غضبه إلى نفسه لكسلها أو جمودها، يحول غضبه على من سبب له هذا القلق؛ ثم لا يقتصر على محاربته بالأساليب الشريفة، بل يحاربه بكل سلاح، ولا يتورع عن أن يختلق عليه ويتهمه بما يستطيع من تهم، ويرى أن كل وسيلة تفضي إلى قتل هذه الفكرة الجديدة جائزة ومشروعة؛ فإذا وصل إلى هذا الغرض بإعدام الفكرة أو إعدام قائلها، اطمأن واستراح، لأنها تتفق مع طبيعته في الكسل، واستنامته إلى ما ألف.

وقد اعتدنا أن نجد مسألتين تتصلان بهذه الظاهرة التاريخية:

(الأولى) أن أكثر من يناصر الفكرة الجديدة يكونون عادة من الشباب، أو من ينتفع بها من الطبقات والأفراد؛ وتعليل ذلك واضح، فالشباب لم تتجمد بعدُ شبكة أفكارهم، ولا يزال فيها مرونة تصلح لأن تتقبل شيئاً جديداً، كما تصلح للتشكيل الجديد، ولأن عواطفهم الحارة ترحب بالشيء الجديد الذي يتطلب منهم عملاً وقوة ونزالاً. وأما من ينتفعون بالفكرة فأمرهم واضح، فقد ارتبطت الفكرة بمصالحهم، فهم يؤيدونها لما وراءها من مغنم.

(والثانية) أننا نرى - في الغالب - تأييد السلطات للفكرة القديمة ومناهضتهم للفكرة الجديدة، سواء كانت الفكرة الجديدة تمسهم مباشرة أو لا تمسهم؛ وسبب ذلك أن السلطات في الغالب تتطلب السلامة أكثر مما تتطلب التقدم، والرأي العام والسواد الأعظم من الناس يناصر الأفكار القديمة لما أسلفنا، فالسلطات يهمها - محافظة على السلامة والطمأنينة والهدوء - أن تغضب على من يغضب الرأي العام ويقلق راحته، لأن في راحة الجمهور راحة السلطات، ولأن السلطات كالأفراد أحب شيء إليها راحتها من التفكير ومن وجع الدماغ، والفكرة الجديدة تحمل في ثناياها حرباً وحركة واضطراباً وانقساماً إلى معسكرات، وذلك يتطلب مجهوداً من السلطات كانت في غنى عنه، فهي أيضاً تغضب على من سبب لها هذا القلق والاضطراب ودعاها إلى التفكير ورسم الخطط.

لهذا كانت عظمة المصلحين في تحملهم هذه الصعاب كلها أكثر من عظمتهم في العثور على الحق، لأن عثورهم على الحق تم في هدوء بينهم وبين أنفسهم؛ أما تحقيق هذا كله فلا يتم إلا بكل هذه المصاعب التي ألممنا بها.

ومع هذا فإنا نرى أن الأفكار الجديدة الصالحة تبقى على الرغم مما لاقت من صعاب. وعلى الرغم من موت دعاتها، بل إن موت دعاتها يخفف من غضب المعاندين للفكرة، لأن السواد الأعظم من الناس لا يستطيع الغضب على المعاني ما لم تجسم في شخص؛ فإذا مات

هذا الشخص الحسي فترت قوة المعارضة للمعاني. ويأتي جيل الشباب الذي اعتنق الفكرة الجديدة، فيكتسح الجيل القديم المعارض، ويتبوأ مراكزه في الحكم وفي العمل، فتسود أفكاره، حتى تبلى أفكاره هو أيضاً، ويمثل الدور من جديد.

هذا هو قانون الطبيعة منذ خلق الإنسان، يجري الناس شوطاً، فيلهم القادة فكرة أو أفكاراً يستلزمها الرقي، فيعارضها أعداء الرقي، ثم يموت الدعاة والمدعوون ويموت النزاع وتسود الفكرة، ثم يتجدد تمثيل الرواية.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان طبيعياً، ولكن الناس بجهلهم يخلقون معسكرات غير طبيعية تدعو إلى النزاع غير الطبيعي، فيفتحون مدارس تعلم على أنماط مختلفة، فتخلق عقليات مختلفة، ويعددون النظم التي تخلق مطامع مختلفة، ويشرعون نظماً اقتصادية تكوّن طبقات متعادية، إلى أمثال ذلك، فيكثر العداء بين الأفكار ويضيع جهد المصلحين في التقريب بين العقليات، مع أن عوامل التبعيد الأساسية لا تزال تعمل عملها.

والأمة العاقلة التي يدرك قادتها هذه الحقائق تقضي على عوامل هذه الاختلافات، ولا يبقى لديها حرب في الآراء إلا ما تقضي به الطبيعة مما يتفق وتقدم الزمان.

* * *

رحلة!...

- إلى أين - يا قائد الرحلات - رحلتك هذا العيد؟

- إلى الطور.

- فليكن.

«وشددنا رحالنا»، ولكن هذا تعبير لا يعجبني، فقد كان تعبيراً صحيحاً أيام الجمال والرحال، أما الآن فلم نركب جمالاً ولم نشد رحالاً، وإنما أعددنا السيارات، واختبرنا الآلات، وزودناها بما يكفي من ماء وبنزين، فلنعبر عن ذلك كله تعبيراً واقعياً لا تقليدياً. وسرنا على بركة الله نضرب في الصحراء، ونقطع في عشر ساعات ما كانت تقطعه الإبل في عشرة أيام، ولكن ما أعجب العرب! كانوا يركبون الإبل فبلغوا الغاية في التعبير عنها، وعرفوا أجزاءها، وسموا أعضاءها، ووصفوا كل شيء فيها؛ وأنشأوا حولها أدباً استوفوا فيه كل معنى رائع وقول جميل، حتى لم يتركوا من بعدهم فيها قولاً لقائل وأتينا بعدهم فلم نستطع - مع حضارتنا وتقدمنا وزعمنا إرث العرب - أن نضع أسماءً عربية لأجزاء السيارة، ولا أن ننشئ حولها أدباً، لا رائعاً ولا غير رائع، واكتفى خبراؤنا أن ينقلوا أسماءها الإفرنجية، كما نقلوا مسماها الإفرنجي، وأخذنا نصوغ عبارات الإبل للدلالة على سير السيارات، وهكذا نحن عالة على الأوربيين في المسمى، وعالة على قدامى العرب في التعبير عنها؛ فمتى نشعر بالاستقلال؟

ما لنا ولهذا؟ فقد قطعنا الطريق البديع يجمع بين السهول الفسيحة، والوديان تكتنفها الجبال الجليلة ذات الألوان البديعة، نقرب من البحر فنؤخذ بزرقته وتموجه وحركته، ونبعد عنه فنؤخذ بألوان الأرض المختلفة وجمال وشيها وسكونها؛ وينظر جميعنا إلى ذلك كله نظرات متفاوتة حسب تفاوتنا في ثقافتنا؛ هذا عالم جيولوجي يقرأ في كل لون دلالة على نوع من المعدن، وفي كل طبقة دلالة على الأعمار، وهذا أديب لا يعنيه من كل ذلك إلا جمال المنظر وجلاله، وروعته وبهاؤه، وموسيقاه ونغماته؛ وهذا اقتصادي يقرأ في كل صفحة تطالعه منجماً مجهولاً وثروة ضائعة، يعلم ويندم، ويدرك ويتحسر، وكلنا يلقى خطرات من فيض

علمه أو فيض أدبه، وكلنا يأنس بالطبيعة ويستوحيها ويستوعبها؛ ومن حين إلى حين ندع الطبيعة وحقائقها وجمالها، ونستمع إلى حديث يسرنا بأفانينه، ويؤلمنا بإعادتنا إلى ما هربنا منه.

وكان جميلاً منظر الغروب في الصحراء والماء، وحَنَت علينا الشمس فأخذت تلعب أمامنا ألعاباً مدهشة! وآخر ما فعلت أن رسمت لنا في السماء لوحة عجيبة في ألوانها ورسومها وتخطيطها، فلم تدع لوناً إلا عرضته في دقة وإحكام، وجمال وانسجام، ورسمت لنا أشكالاً فوق الهندسية، تسحر النفس، وتأخذ باللب، ثم أشفقت علينا أن نجن بإبداعها فأسرعت في الاحتجاب، وأرسلت إلينا ابنها البار القمر، فلم يلعب بالألوان لعبها، ولم يتفنن في الأشكال أفانينها، ولكن لونه الفضي الواحد جميل في الماء، جميل في الصحراء، وادع في غير عنف، هادئ هدوء الليل، ملهم إلهام الحب.

* * *

هذه هي «الطور»، أرخى عليها الليل سدوله، وكساها من غموضه فلا ترى إلا أشباحاً: شبح أحجار، وشبح أبنية، وشبح شجر، فلندعها في غموضها وسدولها حتى تأتي إلينا الشمس القوية ثانية فتمزق حجبها، وتكشف أستارها، ولننم الآن نحلم بجمال ما رأينا ونذوق ما ادخرنا.

وأصبحنا فارتدنا البلد، أبنية حديثة جميلة نظيفة متفرقة، بنيت كلها على أساس فكرة «المحجر الصحي» حيث يعود الحجاج يقيمون فيه أياماً للتحقق من صحتهم؛ فهذه حجر الحجاج، وهذه بيوت الأطباء، وهذه المباخر للتعقيم، وهذه أبنية الموظفين لخدمة حجر الفكرة. ودعانا الشوق إلى ارتياد مكان نزلنا فيه حين عدنا من الحج منذ ثلاث سنين، فاستعدنا ذكريات الحج ومن صحبنا وما لقينا، وكيف كنا في سجن لطيف لا نقدر على ما نقدر عليه اليوم من الطواف في البلد ورؤيته.

وعلى مدى الطرف رأينا مكاناً يعج بالناس، عليه حراس أقوياء، شاكو السلاح.

– ما هذا أيها الدليل؟

– إنه مجمع المجرمين الخطرين، خيف منهم أثناء الحرب، فتُحُري عنهم في أنحاء القطر بشهادة العمد والمشايخ وأمثالهم، وجُمِّعوا جموعاً وأرسلوا إلى هذا المحجر تباعاً، ألف وراء ألف يقدمهم ألف حتى زادوا على ثلاثة آلاف، وهم متخصصون في نواح من الإجرام

مختلفة: منهم المتخصص في القتل، ومنهم في تسميم المواشي، ومنهم في المكيفيات، ومنهم في السرقة، إلى ما شئت من أنواع الإجرام، وقد بلغ من مهارتهم أنهم يجرمون ويختفون ولا تثبت عليهم التهمة فيعاقبوا، فلم يكونوا في السجون، أو حكم عليهم بمدد انتهوا منها، ويُخشى أن يعودوا إلى ما ارتكبوا، وليست الحكومة فارغة لهم حتى تفكر في شئونهم مع تحملها أعباء الحرب بل خشية الحرب، فحشدتهم إلى الطور حتى تأمن شرهم وتوفر على الناس ويلهم.

- ولكن لماذا اختاروا لهم هذه البقعة؟

- اختاروها لبعدها وانقطاعها، حتى يسهل مراقبتهم، ويصعب فرارهم؛ ولعلهم اختاروها لأنهم سيكونون على بعد أمتار من الحجاج، فيكون في البقعة أطهر قوم وأخبث قوم، فلعل بركة الحجاج تنضح على خبث المجرمين فتزيل إجرامهم وتمحو الشر من نفوسهم، كما يذهب الماء الطهور بالخبث.

وأحسست بما يجذبني نحوهم، فقربت من سورهم بقدر ما يسمح النظام بالقرب منهم، ومشى أمامي «تابور» منهم عند عودتهم من عمل كلفوه، فتفرست في وجوههم وقرأت في سحنهم، ورثيت لحالهم، ووددت لو سمحت الظروف بأن أعاشرهم، وأدرس نفسيتهم، وأقف على خواطرهم، وكيف يأكلون ويشربون، وكيف يتحدثون - إذاً لكان كل هذا مادة خصبة للأديب والنفسي والاجتماعي، يشرفون منها على مجال فسيح في الأدب والنفس والاجتماع.

ورأيت بعض شبابيكهم عريت من أخشابها، فسألت عن سبب ذلك، فعلمت أنهم أحياناً يعوزهم الدفء فيقلعون أخشاب الشبابيك يستدفئون بنارها، وأحياناً يعوزهم التدخين على نمط خاص فيأخذون عوامات السيفونات يتخذون منها «جوزة» للتدخين، إلى كثير من أمثال ذلك. ولولا أصحابي لوقفت بجانبهم طويلاً أعيش في لذة الدرس لأحوالهم ومعيشتهم وبؤسهم والبؤس منهم.

أيتها النفس، لقد جئنا للرياضة وخلفنا الدرس في القاهرة، فارأفي بنفسك وتروضي ولا تدرسي.

---

(1) المشاعلية هي الطائفة التي تتولى الشنق والتعذيب.

وهذا دير كبير من سلسلة أديار في الصحراء، يدل حسن موقعها على دقة ذوق منشئيها، فقد عرفوا خير الأمكنة ينعمون فيها بالهدوء، ويقربون فيها من الله، أُرهف حسهم فلم يحتملوا أباطيل الدنيا، وفشلوا في الدنيا فأدركوا أنهم خلقوا للآخرة، وخافوا أن تغويهم زخارف الحياة فهربوا إلى حيث تنقطع عنهم أسباب الغواية، وقاسواأبعاد الدنيا وأبعاد الآخرة، ووزنوا لذائذ الدنيا ولذائذ الآخرة، وحاولوا أن يجمعوا بين الأبعاد المختلفة واللذائذ المختلفة، فرأوا من اختلاف طبائعها ما يحيل الجمع بينها، ففضلوا ما يطول على ما يقصر، وما يبقى على ما يفنى، وصدمتهم الدنيا صدمة عنيفة ففروا منها حتى لا تتكرر؛ ولفظوا الحياة أو لفظتهم الحياة فعاشوا على هامشها، وثاروا على الطبيعة الإنسانية فهربوا من العمار إلى الخراب، ولكن سرعان ما خضعوا للطبيعة، فأخذوا يعمرون الخراب، وينشئون من الصحراء جناناً تزهر بالنخيل والأعناب.

ومشينا ومشينا، ووصلنا إلى عين ماء بني عليها حوض يخرج الماء من جانب عذباً دافئاً، ويخرج من جانب آخر فيسيل في الوادي، فتنبت منه الأعشاب والأشجار والنخيل، وتزَّيَّن الصحراء بجمال الخضرة.

ونتسلق الجبال فنحس بما خلفته الحضارة من نفوسنا من أثقال وأوبئة، حتى نعيا من السير اليسير وتنقطع أنفاسنا، من الصعود القليل، ونفقد مزايا العيشة البسيطة الطبيعية الملائمة للصحة، ولكننا نكدّ ونجدّ حتى نبلغ القمة، وقد بلغ منا الإعياء مبلغه، وإذا بمنظر رائع تنسينا لذته ما نالنا من الضنى؛ ننظر يمنة فهذا واد فسيح، وصحراء جرداء نثرت فيها أشجار تكافح للحياة، وننظر يسرة فهذا بحر يعج بالموج وبالحياة، وأمامك جبال متسلسلة تبعث فيك الروعة والجلال، وتتناغم كل هذه المناظر فتؤلف موسيقى يعجز عن وصفها البيان.

ونعود إلى مأوانا فنسمر سمراً لذيذاً فيه الفكاهة الحلوة، والقصص الممتع، والحديث يجري عذباً في غير كلفة ولا تصنع ولا منطق، ويملأ وقتنا شاعر يطربنا من إنشائه ومن إنشاده، وتضيق بنا الحجرة فنخرج إلى الجو الطلق والسماء الصافية، والبحر يلاعبه القمر.

ثم إذا خلوت إلى نفسي لا يبرح خيالي حال المعتقلين من المجرمين؛ أمن الحق أن يحشر المجرمون المتنوعون في مكان واحد، فيكون كل مجرم أستاذاً في نوع إجرامه يلقنه تلاميذه، فإذا هم جميعاً مجرمون في كل أنواع الإجرام؟ أمن الحق أن نضعهم في هذا المحجر الصحي الذي صرف في أبنيته نحو مليون من الجنيهات، فنعيده إلى مكان غير صحي بفضل ما تسببه معيشة هؤلاء المعتقلين من الأوبئة والأمراض؟ أمن الحق أن نقيد هؤلاء في

حريتهم ثم نضيق عليهم في معيشتهم من حيث الأكل والدفء ووسائل الحياة، فيفشو فيهم المرض وتكثر الوفيات؟ قد يصح أن نذهب إلى هذا ونقول إنهم مجرمون خطرون، فليتهم يموتون فتستريح الأمة منهم، ويستريحوا هم من أنفسهم، ولكنهم لم يحاكموا، ولم يحكم عليهم بالإعدام. فإلى أن يصلح القانون إن كان فيه نقص يجب أن يتمتعوا ولو بأقل ما يتمتع به الإنسان من ضرورة الحياة.

ولكني أعود فأكرر على مسامعي أني أتيت للرياضة ولم آت للدرس، فويح نفسي من نفسي، ولا سبيل للرياضة الحقة إلا إذا خلعت نفسي إن عزمت على الرياضة، وحبذا هذا لو كان في الإمكان.

* * *

وقضينا في الطور ثلاثة أيام كثلاثة الحَجْر الصحي، ننعم فيها بالعيشة البسيطة، ونهرب من تكاليف الحياة، ونمعن مرة في الصحراء، ونمشي مرة على هامش البحر، ونرقى جبلاً ونهبط وادياً، حتى مرت كأنها حلم لذيذ.

واعتزمنا العودة فأخذنا على أنفسنا أن ننعم بمنظر لم نره في المجيء.

قمنا قبل الفجر والطبيعة كلها نائمة والقمر قد أضناه السير فعلا وجهه الشحوب، وأدى رسالته فاعتزم الراحة، وعلم بقدوم أمه الشمس فأخلى لها الطريق، وسارت سيارتنا تقلق السكون بأزيزها، وبدت تباشير الصباح، ومحت آية النهار آية الليل، وطلعت الشمس فأضفت على الكون من شعاعها الذهبي الجميل؛ وعادت مناظر الصحراء والماء تعرض علينا من جديد، من غير أن تفقد شيئاً من روعتها الأولى وجمالها؛ وكانت فصول الرواية طويلة غير مملولة؛ وصحبنا الشمس في كل حالاتها، واستقبلنا القمر في طلعته كما ودعناه في غيبته.

وتزودنا من محاسن الطبيعة ما تزودنا، وقربنا من خالقها ما استطعنا.

ثم ها هي أضواء القاهرة وضوضاؤها تردنا إلى حياتها المعقدة وتكاليفها الشاقة؛ وها هم باعة الجرائد يتصايحون يذكروننا بما نسينا من شئون الحرب وويلاتها؛ وها هي أماكننا المحدودة وأبنيتنا المتلاصقة تحجبنا عن الطبيعة وجمالها؛ وها هي حياتنا الأولى تعود سيرتها وتتكرر نغمتها، حتى تسنح لنا الفرصة فنفر منها في رحلة أخرى إن شاء الله.

* * *

صورة قضائية تاريخية

حادثة ارتجت لها مصر أشهراً، وتأثر بها القضاء أثراً بالغاً، واضطرب لها الرأي العام اضطراباً هائلاً، وارتبكت فيها السلطات الثلاث ارتباكاً بيناً، ودلت وقائعها على الفرق البعيد بين حياة الناس في ذلك الزمان وحياتهم الآن.

أما مكانها فالقاهرة، وأما زمانها فليلة السبت ثاني عشر شوال سنة 919هجرية؛ والعهد عهد السلطان قانصوه الغوري، وأما بطلتها فامرأة جميلة لعوب متزوجة بنائب قاض اسمه غرس الدين، وقد عشقها نائب آخر اسمه نور الدين؛ وتوثقت الصلة بينهما، وتحدث بذلك الجيران وجيران الجيران، وبلغ مسامعهم كلهم ما كان يجري إلا الزوج الكريم.

فيوم السبت هذا دُعي غرس الدين ليقضي ليلة عند صديق له في حي الإمام الليث، فانتهزت زوجته الفرصة وراسلت صديقها نور الدين ليبيت عندها هذه الليلة، فقد خلا الجو لهما، فأجاب الدعوة، وأرسل ما لذ وطاب، وذهب في أثره ممنياً نفسه بليلة سعيدة حتى الصباح. ولكن مصيبة المحبين دائماً في العذال؛ فهذا عذول اسمه شمس الدين، كان أحد النواب أيضاً وكان يسكن بجوار غرس الدين، وقد حنق على الزوجة أن هويها ولم تهوه، وهام بها ولم تلتفت إليه.

فعلم بما كان هذه الليلة، وعلم بحضور العشيق في البيت، فركب من فوره إلى الإمام الليث، وأخبر الزوج بما كان وعادا معاً إلى القاهرة، وأوصله إلى بيته وانصرف.

وجد الزوج الباب مغلقاً، والدنيا كلها ساكنة هادئة، وليس من شيء يدل على قول العذول؛ وكان للباب مفتاحان، مفتاح عند الزوجة ومفتاح عند الزوج؛ فلما وصل الزوج إلى الباب فتحه في هدوء وسكون، وتسلل إلى حجرة النوم، فوجد الكِلّة مرخاة، فتقدم ورفعها في رفق، فرأى الجريمة - ووقف الثلاثة موقفاً دونه الموت رهبة، فرهبة الموت رهبة جلال، ورهبة هذا الموقف رهبة خزي وعار.

فأما العشيق فبكى واستعطف وهوى على رجل الزوج يقبلها، ويقول: اغفر لي ذنبي أكتب لك صكًّا الآن بألف دينار ولا تفضحني، وأما الزوجة فتلطم وجهها وصدرها، وتقول

أنا المذنبة، خذ جميع ما في البيت من أمتعة واستر عليّ فالستر مطلوب؛ والزوج يسب ويلعن ويثور ويهدر، ويأبى إلا أن يبلغ الأمر إلى الحكومة، ثم تقدم في حزم وأغلق عليهما باب الغرفة وباب البيت، وخرج إلى «حاجب الحجاب» وهو إذ ذاك «الحاكمدار» وقص عليه القصة.

أما العشيقان فكانا كالفأر في المصيدة يدور ويدور ولا يجد مخرجاً؛ فالباب محكم، حاولا فتحه فلم يستطيعا، والشباك مرتفع، إن سقطا منه دك عنقاهما، والانتحار لم يدر بخاطرهما، إذ لم يكن بِدْع ذلك العصر؛ فاستسلما للقضاء، وظل الرجل يحوقل ويلعن النفس الأمارة بالسوء؛ ثم انقلب يعنفها على ما جنت، فهي التي راسلته وهي التي دعته لقضاء هذه الليلة المشئومة؛ وهي تذكر الفضيحة والعار، وتضرب نفسها، وتبكي وتنتحب، وتود لو أن الأرض انشقت وبلعتها.

وفيما هو كذلك فتح الباب ودخل الحجاب، وقادوهما إلى حاجب الحجاب. فسألهما وداورهما، فاعترفا بكل ما كان، وأحضر حاجب الحجاب - طبقاً للإجراءات المتبعة - أحد النواب، وكان هو العذول رسول الشر، ليحدث الإقرار أمامه، وكتب المحضر ووقعه عليه الجميع، وحبسا إلى الصباح.

حتى إذا طلع النهار عُرِّي الجاني من ثيابه أمام حاجب الحجاب، وتوالى عليه الضرب حتى كاد يهلك، ثم حملت المرأة على أكتاف «المشاعلية»[1] وضربت كذلك. ثم أصدر حاجب الحجاب أمره بأن يشهَّرا في القاهرة.

ألبس نور الدين عمامته وأركب حماراً، وجعل وجهه لذيل الحمار؛ وأركبت المرأة حماراً آخر على هذا الوضع، وطافوا بهما في الصليبة والقاهرة وقنطرة السباع، والناس والأطفال يجرون وراءهما، ويتصايحون بهما، ويتنادون عليهما؛ وتحدث بهما كل السكان، وانتقل الخبر من القاهرة إلى كل مكان، فكان يوماً قليل النظير؛ ثم رجعوا بهما إلى بيت حاجب الحجاب، حيث انتهى بهما هذا الطواف الشنيع.

لم يكتف بذلك حاجب الحجاب، فطلب من الزوجة مائة دينار نظير أتعاب، ولست أدري لم قررها على المرأة دون الرجل، فسر ذلك عنده!

امتنعت المرأة من الدفع وقالت: أعار وخراب ديار!؟ إن زوجي وضع يده على جميع مالي، فأصبحت لا أملك من الدنيا شيئاً.

---

(1) المشاعلية هي الطائفة التي تتولى الشنق والتعذيب.

قال حاجب الحجاب: إذاً فليدفعها زوجها.

وقال الزوج: وكيف أدفع وقد خسرت الزوجة، وخسرت الشرف، فهل كذلك أخسر المال؟

فلما توقف عن الدفع حجزوا عليه.

كان لهذا الزوج ابن يتصل بالمقرئين المقربين من السلطان الغوري، فتمكن بهم من الوصول إلى السلطان فوقف بين يديه، وقص عليه القصة من أولها إلى آخر الحجز على أبيه.

طلب السلطان محضر القضية، واستحضر النائب شمس الدين - الذي ثبت أمامه الإقرار - والقضاة الأربعة، وانتهز شمس الدين الفرصة وزاد النار اشتعالاً، وحبب إلى السلطان أن يعيد إلى الشريعة الإسلامية سيرتها الأولى، فيعلى شأن الإسلام، ويعمل بسيرة سيد المرسلين، فيرجم الزاني والزانية، وقال إن في هذا مجد الإسلام، وتخليد ذكر السلطان.

قال له السلطان: فافعل ذلك. قال: لا أستطيع حتى يأمر بذلك قاضي الشافعية، فقال القاضي: قد أمرت: وانفض المجلس على هذا - أمرٌ من القاضي الشافعي بالرجم وموافقة السلطان، ولم يبق إلا حفر الحفرة وإحضارهما ليرجما.

ولكن صادف ذلك موسم الحج والاحتفال بالمحمل وخروج الحجاج، فشغل السلطان ورجاله الدولة بذلك، وأجل تنفيذ الرجم.

* * *

حدث في تلك الأيام أمر لم يكن في الحسبان، إذ ظهر في الميدان نائب شافعي اسمه «الزنكلوني» كان ماهراً ماكراً، وكان ضلَع مع المتهم؛ أو عز إليه أن ينكر جريمة الزنا فأنكر - ثم كتب فتوى ودار بها على كثير من العلماء وهي: «ما قولكم دام فضلكم في رجل أقر بالزنا ثم رجع عن إقراره، هل يسقط عنه الحد أم لا!» فأجابوا عنها بالحكم الفقهي، وهو أنه إذا رجع عن الإقرار يسقط الحد - ومن مهارته أنه مرّ على أكبر عدد ممكن من العلماء، فوقعوا عليها هذا التوقيع.

بلغ ذلك السلطان فجن جنونه واشتد غضبه، وقال: هذا غير معقول، هذا عجيب! رجل يدخل بيت رجل وينام مع زوجته ويقبض عليه تحت اللحاف معها ويعترف بالزنا ويكتب خطه بيده بما وقع منه، ثم يقولون بعد ذلك له الرجوع، وإذا رجع فلا حد عليه؟ هذا ما لا يكون.

وكانت أزمة شديدة جداً بين السلطان والقضاة، كلاهما يرى أن وجهة نظره بديهية صحيحة لا تحتمل الجدل.

أما السلطان فيحتكم إلى الفطرة وإلى المنطق الساذج وإلى البديهة الطبيعية: رجل دلت كل الدلائل على جريمته، فهو في بيت غير بيته، نائم مع امرأة غير زوجته، يضبطهما الزوج، ويعترف المجرم بالجريمة أمام هيئة رسمية؛ فماذا يطلب من الدلائل بعد ذلك؟ وكيف يسمع ممن يدحض هذه الأدلة؟ إن هذا منتهى ما يصل إليه الإثبات، فإذا شككنا في مثله فما الذي يصح بعدُ أن يكون سنداً للحكم. ووراء ذلك كانت تدور في نفسه فكرة أنه بتنفيذ الرجم في هذه القضية سيكون بطل الإسلام، ومحقق العدالة التي كانت في عهد الرسول، وهؤلاء العلماء يريدون أن يفوّتوا عليه هذا الموقف والفخر.

وأما العلماء فكانوا يستندون إلى نصوص الفقه وأقوال الأئمة، قد رجعوا إلى كتب الفقه وأطالوا النظر فيها حتى بليت منها صفحات هذا الموضوع من كثرة البحث والتنقيب. هؤلاء جمهور الأئمة - إلا ابن ليلى وعثمان البتي - يرون أن من رجع بعد الإقرار في الزنا قُبلَ رجوعه ولم يُحَد. وحدّ الرجم حد شنيع جداً درأه الإسلام بأي شبهة؛ فهذا «ماعز» الذي أمر رسول الله برجمه، لم يأمر برجمه إلا بعد أن غمره بالأسئلة لعله يرجع، وحتى روى بعضهم أنه قرره على ذلك أربع مرات، وحتى رووا أنه رجم ومسته الحجارة فهرب، فاتبعوه، فقال لهم: ردوني إلى رسول الله، فقتلوه رجماً. وذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال لهم: «هلا تركتموه»، ولأن الله يحب الستر على عباده، فلا يلجأ إلى الرجم إلا عند الضرورة القصوى بانعدام أي شبهة وبإصرار المجرم، فكيف يجرؤ القضاة بعد ذلك أن يخالفوا هذه النصوص؟

تعقدت المسألة وتمسك كل بوجهة نظره. فما الحل؟

خطر للسلطان أن يجمع مؤتمراً يشهده كل القضاة وكل مشهوري العلماء، ثم يسمع منهم ويسمعون منه، لعلهم يصلون إلى حل. وأرسلت الدعوة وحدد لذلك يوم الخميس الرابع والعشرون من شوال بالقلعة، وانعقد المجلس: هذا هو السلطان يتصدر المجلس، وهؤلاء القضاة الأربعة عن يمينه، وهؤلاء كبار العلماء عن يساره، يرأسهم شيخ الإسلام زكريا، وكان مجلساً رهيباً حقاً، خطيراً حقاً.

أغضى السلطان النظر عن القضاة، والتفت إلى شيخ الإسلام زكريا، وقال: كيف يحدث ما حدث، ويضبط الرجل مع زوجة آخر ويقر، ثم تقولون له الرجوع؟

رد أحد الحاضرين: هذا هو الشرع، وأخرج كتاباً من كمه وأراه النص.

فقال السلطان: إني لا ألتفت إلى النقول في ذلك. ألستُ وليّ الأمر. أوليس لي الحق في الحكم؟ أو ليس لي أن أصدر أمري كما يتبين لي؟

أحد العلماء: نعم، ولكن بشرط أن يكون على مقتضى الشرع، فإذا أنت قتلتهما مخالفاً النص تلزمك ديتهما.

فغضب السلطان أشد الغضب من هذا الجواب، وكاد يبطش به، ثم التفت إلى الشيخ زكريا وقال: ما تقول أنت في هذه المسألة؟

- أقول: إن الرجوع بعد الاعتراف يسقط الحد.

السلطان: هل هذا ما ترتضيه ذمتك؟

الشيخ زكريا: هذا ما ارتضته ذمة الإمام الشافعي صاحب المذهب.

السلطان: أنت شيخ قد كبرت وضعف عقلك. أما أنتم أيها القضاة فلا تُرُوني وجوهكم بعد الآن.

وقام وانفض المجلس على أسوأ حال.

وبدأ السلطان ينتقم؛ فهذا الزنكلوني الذي صنع الفتوى ضرب هو وأولاده بالعصا حتى كادوا يتلفون، ثم أمر بنفيه إلى الواحات.

وهؤلاء القضاة عزلوا، وظلت مصر بلا قضاء خمسة أيام مما لم يسبق له نظير، ثم عين غيرهم، وهذان المتهمان - الرجل والمرأة - نصبت لهم المشنقة على باب «حارة أولاد الجيعان» ثم أحضرا، وجعل وجه كل إلى وجه الآخر، وشنقا بحبل واحد.

وظلا يعرضان يومين، والناس يأتون من كل فج لمشاهدتهما كما يشاهدون المعارض في هذه الأيام، وظل حديثهما على كل لسان، ثم نسج عليهما ثوب النسيان كما هو شأن الزمان.

* * *

التوازن

يظهر أن الأرض التي نعيش عليها لما كانت مدينة في بقائها للتوازن - فهي سابحة في الفضاء بقوة التجاذب المتعادل - كان كل شيء فيها إنما ينتظم شأنه وتنسجم أموره بالتوازن أيضاً، فإذا اختل توازنه ساءت حاله، وأدركه الفناء، ولعل مقياس رقي كل شيء توازنه، ومقياس انحطاطه عدم توازنه.

سواء في ذلك الأفراد والأمم، وسواء في ذلك الماديات والمعنويات.

هذا الجسم إنما صحته توازنه، ومرضه عدم توازنه؛ فليست الصحة إلا أن كل عضو متوازنٌ مع الأعضاء الأخرى في إنتاجه واستهلاكه، ومقدار هذا الإنتاج وهذا الاستهلاك؛ فإذا ضعفت المعدة ولم تحسن الهضم اختل التوازن، فأصبحت لا تستهلك كما تستهلك الأعضاء الأخرى، ولا تفرز كما تفرز الأعضاء الأخرى، فكان المرض؛ كما لا يكون الجسم صحيحاً إلا بتوازنه مع غذائه، فإذا قل الغذاء كانت المخمصة، وإذا كثرت كانت التخمة، وكلاهما شر نشأ من عدم التوازن، ولا يزال الجسم بخير ما توازن، بين طعامه وقدرته على الاستهلاك، وبين طبيعته والبيئة التي حوله، وبين كل عضو فيه وسائر الأعضاء.

وهذه العين لا تبصر إلا بالتوازن من حيث المسافة بينها وبين المرئي، ومن حيث مقدار الضوء الذي يشع على الشيء، فإذا زادت المسافة أو قصرت، أو زاد الضوء أو قل، اختل التوازن فاختل الإبصار، وكذلك الشأن في كل حاسة.

والبناء على الأرض إنما يقوم بالتوازن، وينهدم بعدم التوازن بين المواد التي يتكون منها البناء، والتوازن بين أجزاء البناء بعضها وبعض من حيث الثقل ونحوه.

إن رقيتَ بعض الشيء ونظرت إلى الحياة المالية - مثلاً - وجدت الشأن فيها هو الشأن في الأجسام؛ فانتظام مالية الفرد والأسرة إنما هو بالتوازن بين الدخل والخرج، والتعادل بين الكسب والإنفاق؛ وإلا فالخلل والاضطراب، فإن زاد الدخل كثيراً عن الإنفاق فثَم الشح والتضييق على النفس والأهل والناس، وانقلاب الرجل إلى خازن ليس له من المال إلا ما للحارس؛ وإن زاد الإنفاق فهناك متاعب الدَّين، وهمّ الحاجة، وفوضى المعيشة.

وكذلك الشأن في مالية الأمة، إنما تسعد بالتوازن بين دخلها وخرجها، وإيرادها ومصروفها؛ وليس هذا فقط، بل بالتوازن بين وجوه الدخل، وأيها يجب أن يكون، وأيها يجب ألا يكون؛ والتوازن بين وجوه الصرف، ما الذي ينبغي وما الذي لا ينبغي.

وكلما ترقيت في شؤون الحياة، وأمعنت في المعنويات، وجدت مبدأ «التوازن» صحيحاً وإن كان إدراكه عسيراً.

هذه النفس الإنسانية مثلها مثل الجسم الإنساني، كلاهما ينتظم بالتوازن، ولكن مناحي النفس أكثر تعدداً وأشد تعقداً، وإدراك التوازن فيها أدق وأغمض، فالجسم محدود، والنفس لا حدود لها، وأعضاء الجسم معدودة، ومناحي النفس لا عدَّ لها، فحفظ التوازن فيها لا يتم إلا القليل في النادر والتوفيق من الله عجيب.

هذه الغرائز الموروثة تختلف وتتباين، وهذه العواطف المنبعثة منها تتكاثر وتتنوع، وهذا هو العقل الذي لونته العلوم والمعارف والمدنية ألواناً لا تحصى. كل هذه في نفس الإنسان الواحد، حتى كأنها جبل تنوعت كهوفه ومغاراته، أو بحر كثرت موجاته وتعددت مخلوقاته، فكأن بين جنبي الإنسان آلاف النفوس لا نفساً واحدة؛ ومن أجل هذا كان لكل إنسان آلاف المظاهر لا مظهر واحد، فهو في ساعة صافٍ كأنه المرأة المصقولة، وهو في أخرى مغبّرّ كاليوم العاصف، شجاع جبان، كريم بخيل، عادل ظالم، وهو بين ذلك في أوضاع لا عداد لها، وفي ألوان لا يضبطها ضابط؛ وليست هذه المظاهر المختلفة إلا نتائج لآلاف العوامل عملت في الخفاء، وكان لها تاريخ طويل أطول من عمر الإنسان.

وليست تصح النفس إلا إذا توازنت كل هذه القوى، وقلما تتوازن، فليست تخلو نفس إنسان من مرض بل أمراض؛ ومن غريب الإنسان أنه عني أشد العناية بأمراض جسمه، وحاول أن يرد له توازنه إذا اختل؛ ولم يعن مثل هذه العناية بأمراض نفسه واختلال توازنها، ولعله استصعب الداء فيئس من العلاج.

ما المجرم؟

في المجرم كل الغرائز والعواطف والإدراكات التي في سائر الناس، ولكن قد اختل توازنها، فغلبه الطبع وضعف عنده ضبط النفس فكان سارقاً، أو غلبه حب الانتقام وضعف عنده تقدير إزهاق النفس فكان قاتلاً، أو غلبته الشهوة وضعفت عنده الإرادة فكان سكيراً أو عربيداً، وليس يفقد المجرم صفات يتحلى بها الفاضل إلا عدم الاتزان.

ولقد أدرك أرسطو هذا التوازن في الأخلاق، فقال بنظرية الأوساط، بمعنى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، أي في نقطة التعادل؛ فالشجاعة بين الجبن والتهور، والعفة بين الزهد والتهتك، والكرم بين البخل والإسراف. والأثر المشهور «أحب لأخيك ما تحب لنفسك» إنما يطالب بالتعادل بين حب النفس وحب الغير، والتوازن بين الأثرة والإيثار، وقديماً قالوا [من المجتث]:

حُبُّ التَّناهي غَلَطْ
خَيْرُ الأُمُورِ الوَسَطْ

والتوازن ذو حظ عظيم في باب الجمال، وقد سموه «السيمترية»؛ فإن نظرت إلى جسم الإنسان - مثلاً - رأيت التوازن ملحوظاً فيه على أتم وجه؛ فالأعضاء الثنائية متناسقة على أبعاد متساوية، فالعينان والأذنان متوازنان وبينهما العضو المفرد كالأنف والفم والذقن؛ وإنما يتم جمالها إذا كانت الأبعاد بينها متساوية، فإذا انحرف الأنف، أو انحرفت الشفتان، أو ضاقت عين واتسعت عين اختل التوازن فكان القبح؛ وهذا هو بعينه ما لوحظ في هندسة المباني، فالباب يقابله باب، والشباك شباك، والباب القصير يقابله باب قصير، والشباك الكبير يقابله شباك كبير؛ وهو بعينه أيضاً ما لوحظ في هندسة الحدائق، فشجرة في زاوية يقابلها شجرة مثلها في زاوية أخرى، وحوض مستطيل يقابله في الناحية المقابلة حوض مثله، وهكذا، حتى كأن الجمال هو التوازن.

وشاع التوازن في البلاغة إذ كانت فناً من الفنون الجميلة، وسموه بأسماء مختلفة، فالسجع توازن، والطباق توازن، والمساواة في «باب المعاني» توازن، وأساس البلاغة كلها حسب قولهم «مطابقة المقال لمقتضى الحال»؛ وهذا ليس إلا توازناً بين معاني القول وصياغته وبين حال السامع أو القارئ؛ وهكذا الشأن في كل فن من الفنون الجميلة، لأن الجمال، كما أسلفنا، يعتمد - إلى حد كبير - على التوازن.

فإذا نحن وصلنا إلى المجتمع فمجال القول في التوازن ذو سعة، ففي المجتمع قوى كثيرة تتعاون وتتعاند، ولا يرقى مجتمع ولا يسعد إلا بتوازنها، وإذا حل الشقاء بمجتمع فذلك لاختلال توازنه، وإذا قامت فيه الثورات فلاختلال توازنه، وإذا انحط أو فني فلاختلال توازنه أيضاً.

فأول كل شيء لا بد أن يوازن المجتمع بينه وبين بيئته الطبيعية؛ فمنذ خلق الإنسان وهو في حرب مع الطبيعة، كان يحارب الحيوانات المستوحشة، وكان يحارب شدة الحر وشدة البرد، وكان يحارب طغيان الماء وصلابة الأرض، وكان ضعيفاً فقهرته الطبيعة، ثم رقي

فاستخدم عقله لمحاربة الطبيعة، واستخدم قوانين الطبيعة لمحاربة بعضها بعضاً، حتى توازنت قوته وقوة الطبيعة فسعد. لقد اختلف الفلاسفة في أن الطبيعة قاسية بخيلة فظيعة، أو أنها سخية كريمة تمد الإنسان بما يحتاجه. والحق أنها لا هذا ولا ذاك في حد ذاتها، إنما هي في كفة، وقوة الناس واستعدادهم في كفة، وسعادة الإنسان في توازن قواه وقوى عقله وقوى تسخيره مع قوى الطبيعة وأفاعيلها؛ وكل حياة الإنسان مهاجمة من الطبيعة ودفاع منه؛ فإذا توازنت قوة الدفاع والهجوم فالخير والسعادة للإنسان وإلا فالفناء.

كان الإنسان الأول مستعبداً للطبيعة يعيش على هامشها، ثم انغمس فيها وأدرك قوانينها فتحرر، كانت الحرارة والبرودة تؤذيه فاستخدمها، وقوة الماء تهلكه فضبطها، والكهرباء يجهلها فعرفها واستخدمها، ثم كان أن قسم الطبيعة على نفسها فضرب بعضها ببعض، وعادل بين قواها، وتسلح ببعضها ليحارب بعضها الآخر؛ فلما تم التوازن أو كاد، كانت المدنية، ولا يزال المجال أمامه فسيحاً.

وأخلاق كل أمة وفلسفتها وأساطيرها وعقليتها وأدبها تتعادل مع بيئتها الطبيعية، فكما أن أبا الهول والأهرام لا يمكن أن تكون إلا في مصر، وما كان يمكن أن تعيش هذه العصور في فرنسا أو إنجلترا أو سويسرا، وإنما تعيش في طبيعة مصر، فكذلك أخلاق كل أمة وعاداتها تتعادل مع طبيعتها.

وكذلك الشأن في قوى المجتمع الإنساني نفسه، لا بد فيه من التوازن وإلا ضعف وانحل. انظر مثلاً إلى القوة الاقتصادية في الأمة، فإذا كان فيها جماعة المنتجين فلا بد أن يوازنهم جماعة المستهلكين، وإذا كان عرْض فلا بد أن يوازنه طلب، وإلا ساءت الحالة الاقتصادية باختلال التوازن. وكثيراً ما كانت الثورات في الأمم من سوء الحالة الاقتصادية، كالإفراط في الغنى بجانب الإفراط في الفقر، أو كثرة المعروض ولا طلب، أو كثرة المطلوب ولا عرض، وهكذا.

ثم يجب التوازن بين الحياة الاقتصادية في الأمة وطرق التربية؛ فالتعليم في كل أمة يجب أن يشكل حسب حالة الأمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ويتوازن معها، وإلا فالخراب؛ فإن أنت علمت للوظائف الحكومية التي لا تتسع لجميع المتعلمين، واجهت مشكلة المتعلمين العاطلين، وكلما زادت في ذلك زاد الخطر، وإذا علَّمت لغير وظائف الحكومة وجب أن تفتح في أبواب الحياة الاقتصادية بقدر ما تعلم، وإلا واجهت نفس المشكلة.

وهكذا، في كل مجتمع قُوًى متعددة مشتبكة، كالآلة الضخمة ذات القطع المتنوعة

المعقدة، لا يمكن أن تسير إلا بتوازن الأجزاء؛ هذه قوة الأسرة وقوة الدين وقوة الحكومة بما لها من سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية، وقوة اللغة والعلم والأدب وغير ذلك من القوى، لا بد أن تكون كلها في حالة توازن.

ولما اتسعت القوى وتعددت في المجتمع، كان لا بد لها من ضابط أو ضوابط تعادل بين القوى إذا طغت إحداها على الأخرى، فقام بهذه المهمة الرأي العام أحياناً، يثور ويطالب بالإصلاح وينادي بالتعادل، والقانون أحياناً باستناده إلى العدل ورد الحق إلى ذي الحق، وتفصيل الحقوق والواجبات حتى يتم التعادل.

وعلى الجملة فالتوازن هو حجر الفلاسفة، وهو كيمياء السعادة، يدخل الجسم فيصح، ويفارقه فيختل ويمرض ويفنى، ويحل في الشيء فيكون جميلاً، وفي الكلام فيكون بليغاً، وبقدر ما يكون منه في الأمة يكون رقيها وصحتها، وعلى قدر خلوها منه يكون فشلها وانحطاطها.

صدق الله العظيم ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: 5 ـ 9].

* * *

قصة!

زعموا أن رجلاً عرف بصحة الرأي وصدق النظر، فكان مقصد أمته في الأزمات ورجاءها في حل المشكلات. يقول الرأي فكأنما ينطق بلسان الغيب، ويظن الظن فكأنما يرى ويسمع، ويتنبأ فكأنما يتلو المستقبل من كتاب.

كان أعجوبة الأعاجيب في أمته، وأحدوثة قومه في زمنه؛ وما لبث أن طارت شهرته فعمت العالم، وطبقت الآفاق. وشاء القدر أن يرحل عن بلده إلى بلد سحيق، فسبقته شهرته، وعرف بمقدمه أهله، فاحتفوا به، وأنزلوه منزلاً كريماً، وأزمع أكابر رجاله أن يستفتوه في مشاكلهم، ويستنصحوه فيما صعب من أمورهم.

فأوفدت وزارة الشؤون الاجتماعية وفداً من رجالها يسأله: ماذا تعمل لتقضي على الفقر، وتمحو الإجرام، وتضع حداً لكل الشرور، وتنهض بالفلاح فيرقى عقله، وترقى معيشته؟ وكيف تتغلب على مشكلة البطالة، وكيف تحل مشكلة الزواج والطلاق، وتبرج النساء، واستهتار الرجال، إلى غير ذلك من مشكلات تدخل في اختصاصها.

وأوفدت الوزارات كلها تسأله عن حل لمشكلاتها؛ فوفد وزارة المال يشكون من قلة الدخل وكثرة المطلوب، وإسراف المصالح الحكومية، وأن كل وزارة تطلب، كأن مال الدولة قد أُرصد لها وحدها؛ ويشكون من الموظفين وكثرتهم ومطالبهم وإلحاحهم، ومن الجمهور ونظره إلى مال الدولة كأنه غنيمة يحل نهبها. والوزارات كلها تشكو من وزارة المالية، إذ تسيطر عليها، وتقدر كل المسائل بالأوراق المالية، ولا تقدر المسائل الأدبية ولا المنافع العلمية ولا الاعتبارات المعنوية؛ وأنها تعامل المصالح على أساس تجاري لا على أساس مصلحي. والكل يشكو من سوء ظن بعضه ببعض، ومن عدم التعاون. ووزارة العدل تشكو من ضياع العدل في الأمة، فالمحسوبية، والوساطة، والرجاء، كل هذا وأمثاله أضاع معنى العدل، وأن هناك وسائل تعمل في الخفاء فتخنق العدالة؛ فلا يزال هناك نظام الطبقات يفسد العدل؟ فالفقير لا يصل إلى حقه من الغَني؛ وإذا اتهم غنيّ بالرشوة فليس كما يتهم الفقير؛ وإذا ضرب أحد «الذوات» جندياً أو نحوه حفظت القضية؟ أما إذا ضربه أحد السوقة، فالعدل

يجري مجراه، وشكت وزارة العدل - أكثر من ذلك - من حال العدل الاجتماعي، فليس مال الدولة يوزع بالعدل، ولا مناصب الدولة توزع بالعدل؛ ولا معاملة الحكومة للناس توزع بالعدل.

وهكذا لم تبق وزارة من وزارات الدولة إلا رفعت صوتها بالشكوى، وأسرفت في وصف سوء الحال، وطلبت رأيه في العلاج.

وليت الأمر اقتصر على الوزارات، فكل طائفة شكت: فلاحون يشكون الفقر والبؤس، ويشكون الحكومة وملاك الأراضي، ويسألون السبيل إلى الإنصاف، وموظفون يشكون الكادر الجديد؛ وتجار يشكون مزاحمة الأجنبي، وكل حزب يتهم الأحزاب الأخرى بالتقصير، والكل يتهمون الحكومة؛ فالحكومة تشكو الأحزاب وتشكو الأمة، لأنها تلقي كل أعبائها عليها.

وجاء رجل فقال: لست أمثل وزارة ولا أمثل حزباً، ولا أمثل نقابة ولا أي جماعة، ولكني أشكو من شكوى الناس، فكلما جلست إلى قوم في أي مجلس، في فرح أو حزن، في طبقة المتعلمين أو الجاهلين، ملأوا مجلسهم بالشكوى من فساد الأخلاق وسوء الأحوال، ثم لم يزد الأمر بعد على أن ينفض المجلس، والمتكلم معجب بفصاحته وبلاغته في حسن الوصف، والسامعون مسرورون بقضاء الوقت في حديث لطيف، وكلهم يختم الجلسة بغسل يده من الموضوع والاكتفاء بالدعاء إلى الله أن يصلح الحال.

وهكذا تتابعت الوفود على هذا الرجل تعج بالشكوى حتى خيل إليه أن ليس في هذه الأمة إلا شاكون، وأن ليس لهم وظيفة إلا الشكوى.

ومع هذا طيّب خاطرهم، ووعد أن يجد حلاً لهذه المشكلات كلها في أسبوع، وحدد لهم موعداً في مثل هذا الوقت من الأسبوع الآتي، ثم أتبع ذلك بقوله: ولكن لا بأس أن يزورني مصلحوكم فيُدْلوا إليّ بآرائهم حتى أستعين بها على إبداء رأيي. فتتابعت عليه طوائف المصلحين والزعماء كل ينظر إلى المسألة بعينه.

فجاء رجال الدين يقولون: إن سبب الفساد كله عدم التمسك بالدين، فلو نصحت بأن يتبع الناس الدين لذهب كل ما سمعت من شكوى، ولاستقامت الأمور، وصلحت الأحوال، ففساد الحال لا سبب له إلا غضب الله على الناس من عصيان أوامره، وارتكاب نواهيه.

وقال رجل المال: إن العلة كلها في المال، فلو أصلحت موارد البلاد، واستثمرت منابع الثروة خير استثمار، ووزعت الغلة خير توزيع لكان في هذا العلاجُ من كل داء، لو تم هذا لانعدم الفقر، وانعدمت الجرائم، وقلّ الطمع، وارتقت الأخلاق؛ فأكثر فساد الأخلاق منشؤه الفقر، فالفقر داع إلى الإجرام، وداع إلى الجهل، وداع إلى الذل والعبودية، فإذا زال زالت معه شروره، وليس من فرق بين أسرة مهذبة راقية سعيدة، وأسرة بائسة شقية إلا المال. فالمال يعلّم، والمال يهذب الذوق، والمال يبصر بطرق المعيشة، والمال يسعد.

وقال رجل السياسة: ادع إلى إصلاح سياسة البلد يصلح فيه كل شيء. فصلاح السياسة معناه صلاح الحكم، فإذا عدلت الحكومة في رعيتها، وساست الناس كما يقود القائد المحنك جنده، لا كما يصيد الصائد صيده، ونشرت العدل بين الناس، فهناك الطمأنينة، والرخاء والأمن، والسعادة والتقدم، وإلا فلا إصلاح.

وهكذا ظل طول الأسبوع يسمع من القادة آراءهم في الإصلاح، ولم يفته أن يسمع من رجال الأحزاب، ولا من رجال الصحف، ولا من الديمقراطيين والدكتاتوريين، ولا من الفلاسفة والشعراء، والنساء والفنانين، فقد قضى الأسبوع في معرض متنوع بديع.

وحان وقت إبدائه الرأي، وحضرت الوفود ممثلة لكل الطوائف، واشرأبت الأعناق، وأرهفت الأسماع، فقام بينهم خطيباً وقال:

سيداتي! سادتي!

لقد سمعت كل وجوه الإصلاح التي اقترحها قادتكم، ورأيت أن في كل منها خيراً كثيراً، ولكن فيها عيباً كبيراً.

إن كل ضروب الإصلاح التي سمعتها موجهة إلى الجيل الحاضر، وليس فيه كبير أمل، إنه جيل فسد، قد أفسدته السياسة بألاعيبها، وأفسده الجو الذي عاش فيه، والخلاف الذي دب فيه، والعقلية التي حلت فيه، والمُثُل التي قدمت له. كل خطأ الآراء التي سمعتها أنها علقت الأمل على شيء مهدم، وعلى قصبة مرضوضة، وعلى بناء متداع.

لقد فقد كل منكم الثقة بأخيه، ولا حياة إلا بالثقة، ولا عودة للثقة إذا زالت. لقد شممت من اقتراح كل منكم أنانية بغيضة، وتعصباً للرأي ذميماً، واحتقاراً لرأي الغير معيباً، فتفرقت بكم السبل، وزال بينكم الحب، وساد فيكم ضيق النظر، وهذا عنوان الانحلال. سيداتي وسادتي:

نصيحتي لكم ألا ألتفت إليكم، وألا تلتفتوا إلى أنفسكم، ولا أعلق الرجاء عليكم، ولا تعلقوا الرجاء على أشخاصكم، وأن تساعدوني على إهمالكم أنفسكم، وأن تلتفتوا معي إلى صغاركم، ولا شأن لي بكم إلا شأن الوزير الذي عين فدخل مكتبه فوجد الدفاتر مكدسة، والملفات مبعثرة، والأوراق مغبرة، وحاول أن يدرس مسألة فلم يفهم، وأن يتبع تاريخ أثر فلم يستطع، فأمر بإحراقها جميعاً، وأنشأ دفاتر جديدة على نمط جديد.

ثم ماذا تعملون لصغاركم؟

أنشئوا لهم المدارس التي تتسع لهم جميعاً، واحملوا الحكومة أن تخصص أكبر ما تستطيع من ميزانية لهذه المدارس، واجعلوا لغنى الغنيّ حداً إذا تجاوزه ذهب إلى هذه المدارس.

ثم لا أمل في هذه المدارس أيضاً إذا علمتم تلاميذها ليكونوا مثلكم في عقلكم وأخلاقكم. فعلموهم أول ما تعلمونهم فن الحياة الذي فشلتم فيه واستطعموا مرارة الفشل ليحلو لكم أن تعلموهم وسائل النجاح، وحددوا غرض الأمة الذي تنشده ووجهوا التعليم والتهذيب نحوه، وارسموا في وضوح حاجات الأمة ومرافقها المختلفة، وشكلوا التعليم كمية وكيفية حسب هذه المرافق. علموا أطفالكم جميعاً الأمانة والرجولة، ونظافة اليد، ونظافة الخلق، وقيمة الحق، والشجاعة في قول الحق، والحياة للحق.

ولا تقولوا إن فاقد الشيء لا يعطيه، فإن هذا قول سخيف من آثار القرون البالية، فإنا نرى كل يوم المصائب تعلّم اتقاءها، والرذيلة تعلم الفضيلة، وسخافة السخيف توحي حكمة الحكيم. علموهم ضد ما تعلمتم في السياسة، علموهم من صغرهم أن يحكموا أنفسهم ليصلحوا إذا أسند الحكم إليهم، وعلموهم الحرية التي لم تعرفوا أنتم أن تنتفعوا بها ليعرفوا هم كيف ينتفعون بها، وعلموهم الإيثار والتضحية في ضوء ما أَلِمْتم من الأَثَرة والأنانية.

وجهوا كل همكم إلى الصغار، إلى الجيل القادم، إلى قادة المستقبل، واجتهدوا أن تحموهم من تقليد جيلكم، فضعوا أمامهم أمثلة نبيلة غير أمثلتكم، واخفوا عن أعينهم شروركم، فإنكم إن تعبتم في إنشاء جيل واحد على هذا النمط ضمنتم الخير لأجيال متعاقبة. أما أنتم فيغفر الله لكم.

* * *

قال الراوي: فهاج السامعون وماجوا، وسخط عليه قوم لسماجته وقلة حيائه، ووقاحته وسبابه، وازدراه آخرون لسخفه وسوء منطقه، إذ لم يحل مشكلاً، ولم يصلح فاسداً، واحتقر الكبير، واستعظم الصغير، وهزأ بالرجال، وعني بالأطفال، ولأن مآل نصحه ترك الفساد ينخر في عظامهم حتى يأتي على آخرهم، فائتمر به هؤلاء وهؤلاء، وأجمعوا رأيهم على أن يودعوه مستشفى المجاذيب. . .

* * *

القانون الطبيعي

كل ما عرفنا من قوانين الطبيعة والكيمياء وقوانين الفلك، وما اكتشفنا من قوانين العلوم على اختلاف أنواعها قوانين طبيعية، أو هي سنة الله في خلقه لا تقبل تبديلاً ولا تحويلاً.

لقد تمت الطبيعة وتمت قوانينها، فكل ما في الطبيعة خاضع لقوانينها لا يستطيع الخروج عنها مهما حاول.

وليست قوانين الطبيعة كقوانينا الوضعية تَعْذر بالجهل ولا تعاقِب إلا بعد إعلانها، بل هي توقع عقوبتها علم الناس أو جهلوا، قصدوا أو لم يقصدوا، فمن تعاطى سمًّا على أنه سكر عوقب بالموت، ولو جهل، ولو حسنت نيته.

والطبيعة قاسية كل القسوة في تطبيق قوانينها، لا ترحم من خالفها، ولا تغفر - مرة - ذنب من يتجرأ على نظامها، سواء عندها الصغير والكبير، والطفل الرضيع، والشيخ الهرم، لا ترحم طفلاً لأنه وحيد أمه، ولا كبيراً لأنه عائل أسرته: من تعرض للنار احترق مهما كان شأنه، ومن سقط من أعلى خضع لقانون الجاذبية من غير نظر إلى أي ظرف من ظروف السقوط.

وهي في قسوتها ديمقراطية كل الديمقراطية، سواء عندها الغني والفقير، والملك والسوقة، وصاحب الحول والطول، ومن لا حول له ولا طول، كلهم يخضع لقوانينها كما يخضع الجماد، وتجري عليه أحكامها كما تجري على الريشة في الهواء.

وقوانينها أشكال وألوان: منها ما ينفذ سريعاً كسرعة البرق، حاسماً كحد السيف، ومنها ما ينفذ بطيئاً بطء السلحفاة، هذا يكسر قوانين الطبيعة بسقوطه من نافذة، أو احتراقه بنار، أو اصطدامه بقطار، فينفذ عليه القضاء العاجل، وهذا يكسر قوانين الطبيعة بالإتخام أو بكثرة التدخين أو بإدمان السكر أو بتعاطي المخدرات، فتنفذ فيه الطبيعة قوانينها بهدوء حتى لا يشعر بها، وتهدمه في بطء كأنها لا تهدمه. هي تغضب حيناً فتضرب الضربة القاضية في سرعة وعجلة، وتهدأ حيناً فتطحن طحناً بطيئاً ولكن ناعماً، وهي في الحالين بالمرصاد لا تنسى ولا ترحم، ولا تصدر حكماً، مع وقف التنفيذ، إنما تجعل بعض أحكامها مشمولاً

بالنفاذ العاجل، وبعض أحكامها مشمولاً بصيغة التنفيذ الهادئ، ولكنه تنفيذ على كل حال، وتنفيذ من غير إخلال.

وهذه القوانين الطبيعية تختلف وضوحاً وخفاءً، وبساطة وتعقداً؛ فقد تبلغ من الوضوح والبساطة ما يدركه كل الناس كقوانين الطبيعة والكيمياء وظواهر الطبيعة، وقد تغمض وتتعقد حتى لا يدركها إلا الخاصة، وحتى لا يدركها الخاصة. وتاريخ الإنسان ليس إلا سلسلة لمحاولة فهم القوانين الطبيعية، وتضييق دائرة المجهول منها وتوسيع دائرة المعلوم، ولا يزال المدى أمامه فسيحاً لمعرفة ما جهل وتوضيح ما غمض، وسواء من قوانينها ما عرفنا وما لم نعرف، فهي تجري علينا حكمها وتنفذ فينا إرادتها.

وكلما كان المخلوق ساذجاً منحطاً كانت قوانينه الطبيعية سهلة يسيرة واضحة، وكلما رقي تعقدت قوانينه وكثرت واشتبكت، ومن سوء حظ الإنسان، أو حسن حظه، كما تشاء، أنه أرقى المخلوقات الأرضية، فقوانينه الطبيعية أعقد القوانين وأغمضها، وأكثرها تركباً واشتباكاً.

هذا جسمه يخضع لقوانين طبيعية كالتي يخضع لها الجماد والنبات والحيوان، وهذه نفسه تخضع لقوانين أشد غموضاً وتعقداً لم يبلغ اكتشافها مبلغ اكتشاف قوانين الجماد، وهذه علاقته بالبيئة الجغرافية جعلته خاضعاً لقوانينها، فشكلت شكلاً خاصاً جسمه وعقله، وحددت نشاطه، وحكمت حكمها في طبيعة عمله ومنهجه في العمل، ورسمت خطاه في مدنيته، وهذه أخلاقه خاضعة في تكوينها لقوانين الوراثة وقوانين الكسب، فما كان وراثياً منها فله قوانينه، وكان من أثر هذه القوانين للوراثة والاكتساب اختلاف الأفراد فيما بينهم قوة وضعفاً، وذكاءً وغباء، وصلاحاً وفساداً.

فإذا نحن نظرنا إلى مجموعة من الناس - كأمة - وجدنا هذه الجمعية خاضعة لقوانين طبيعية من حيث شئونها الاقتصادية ونظمها الاجتماعية والسياسية، وهي خاضعة في كل خطوة من خطوات تقدمها أو تدهورها إلى هذه القوانين الطبيعية؛ ومن أجل الاختلاف في هذه القوانين الطبيعية اختلفت الأمم كما اختلف الأفراد قوة وضعفاً وتماسكاً وانحلالاً، وصلاحية للبقاء وعدم صلاحية.

وشأن قوانين الجماعات كشأن قوانين الأفراد في قوتها ومضائها وعدم تخلفها، وإن اختلفت عنها في أن الأولى أصعب إدراكاً وأشد اشتباكاً.

أما بعد: فما السعادة والشقاء، وما النجاح والفشل؟ ليست هذه الألفاظ إلا تعبيراً آخر مرادفاً للسير على قوانين الطبيعة أو الخروج عليها.

إن للطبيعة إرادة لا تقهر؛ فمعاكسة قوانينها سبب الشقاء وسبب الفشل، وإطاعتها سبب السعادة وسبب النجاح.

قد يغتر ضيق النظر فيرى أمثلة من مخالفة قوانين الطبيعة ومعها سعادة، قد يرى قوانين الصحة تخالَف ومع ذلك يبقى الجسم صحيحاً، ويرى قوانين الأخلاق - وهي فرع من فروع القوانين الطبيعية - تخالف ثم يصحبها نجاح، وقوانين الاقتصاد تخالف ومع هذا يكون الغنى، ثم تطاع ويكون مع الطاعة الفقر، وهكذا. قد يكون هذا منظراً شائعاً في الحياة اليومية، ولكن استتبع كل مثال تجد في الحكم نتيجة قصر في النظر وخطأ في التقدير.

هذا الذي استغفل قوانين الصحة فأفرط في الأكل أو في السكر أو نحو ذلك ينفذ فيه القانون الطبيعي أمره ولكن في هوادة على النحو الذي وصفت، حتى ينتهي أمره بالتنفيذ التام، فإذا هو صريع المخالفة؛ وهذا الخائن أو الكاذب قد ينجح، ولكن نجاحه إلى حين، وحتى لو نجح طويلاً فقد عاقبته الطبيعة بأن استلبت منه احترامه لنفسه وضميره وحبه للحقيقة، ومنحته شعوره بالضعة وبالدناءة، فكانت النتيجة أن ذبحه نجاحه. إن الطبيعة لا تهتم كثيراً أن يغتني الخائن أو الكاذب أو يفتقر، ولكنها تهتم كثيراً أن تنزل العقوبة بنفسه وأن تسلبها أحسن صفاتها، ولا تقصر في ذلك أبداً.

* * *

أهم ما تفضل به أمة أمة إيمانها بالقوانين الطبيعية، وإيمانها بأنها لا تتخلف، وجدّها في أن تعرفها وتكتشفها وأن تبني حياتها على وفقها؛ فالفرق بين أمة راقية وأمة منحطة أن الأولى تسير في كل شأن من شئونها على الكثير مما عرفته من قوانين الطبيعة؛ فهي تربي أطفالها حسب قوانين الطبيعة، وتزرع أرضها حسب قوانين الزراعة، وتنظم ماليتها حسبما وصل إليه علم المال، وتقيم حكومتها حسب قوانين العدالة، وهكذا هي في حياتها. مقدمات ونتائج، وقياسٌ أحد أركانه دائماً قوانين الطبيعة. وأما الثانية فتسير حيثما اتفق، تزرع حسب التقاليد، والتقاليد ليست قانوناً طبيعياً، إنما القانون الطبيعي علم الزراعة، وتربي أطفالها كما اتفق، وتنفق ميزانيتها حسب الشهوة، وتمشي يمنة أو يسرة اعتباطاً، فتكون النتيجة دائماً فشلاً، لأن السير الغامض غير المؤسس على علم عرضة دائماً لمعارضة القوانين الطبيعية.

الأمة المنحطة تتسع عندها جداً دائرة الأوهام، وتضيق فيها جداً دائرة الإيمان بالعلم والقوانين الطبيعية، فالزرع ينمو أو يهلك لغير سبب، والطفل يصح أن يمرض للجن، والتاجر ينجح أو يفشل للحظ، والزوجان يسعدان أو يشقيان للقسمة، والسماء تمطر أو لا تمطر للغضب، والعمل يعمل أو لاي عمل بالاستخارة، والإنسان يرزق أو لا يرزق بمجرد التوكل؛ ونتيجة هذا من غير شك أن الأمة التي تسير على هذا المنهج تنهار أمام الأمة تسير حسب قوانين الطبيعة، وأن الأمتين إذا تزاحمتا كان الفوز لمن يسير على قوانين الطبيعة.

إن مزرعة تزرع بالعلم خير لا محالة من مزرعة تزرع بالتقاليد، وإلا كان علم الزراعة غير صحيح، وإن تاجراً يسير على قوانين الاقتصاد ينجح لا محالة أكثر من تاجر يسير بالبركة، وإلا كان علم الاقتصاد خطأ؛ وهذا هو وحده السر في نجاح الأجنبي حيث يفشل المواطن؛ إنه يسير في تجارته ومعيشته وجده ولهوه حسب قوانين الطبيعة فينجح، ويسير المواطن حيثما اتفق فيفشل. لو تكشف قوانين الطبيعة لإنسان لقرأ المستقبل قراءة لا تخطئ، لأن خالق العالم خلقه على قاعدة السبب والمسبب والمقدمات والنتائج، فلو أدركنا كل المقدمات والأسباب لجزمنا جزماً قاطعاً بالنتائج والمسببات.

وأهم عمل المصلحين - في كل أمة - على اختلاف أنواعهم ليس إلا اكتشاف قوانين الطبيعة وحمل الناس على السير على وفقها؛ فالعالم ليس إلا مكتشفاً لهذه القوانين، مسجلاً لها راصداً لنتائجها، والمصلح الاجتماعي ليس إلا رجلاً عرف بعض هذه القوانين، ورأى أمته تسير على عكسها فدعاها للسير على وفقها. وماذا يفعل المصلح الديني؟ إنه يرى أن قومه غلبت عليهم الأوهام، وأضلتهم عقائد فاسدة أعمت أبصارهم وأصمت آذانهم، فأخذ يفتحها لتدرك الكون وقوانينه. خير ما يعمله رجال الدين لأمتهم أن يؤسسوا حياة الناس على قوانين الطبيعة، ويدعوا الناس للسير على قوانينها المعقولة، وفي الحق أن قوانين الطبيعة هي في لغة الدين سنن الله، وإرادة الطبيعة هي إرادة الله، وأن السير على وفقها تقديس لأوامر الله.

ولقد بلغ من تقديس الدين لها أن عد خرقها معجزة الأنبياء. أما وقد ختم الأنبياء. فقد ختمت المعجزات، واطردت قوانين الطبيعة فلا تتخلف، وقد قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الانعام: الآية 115] ومن كلماته تعالى قوانينه التي بثها في كونه. ويعجبني ما روي عن عمر بن الخطاب أنه ذُكر عنده الغيلان وأنها تتحول من خلق إلى خَلْق فقال عمر: «ليس أحد يتحول عن خلقه الذي خلق له».

وعمل السحر ونحوه ليس قلباً للقوانين الطبيعية وكسراً لها، وإنما هو تخييل كما عبر الله عن ذلك أصدق تعبير إذ قال: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية 66]

ومما يؤسف له أن مرت على الناس عصور مظلمة دعا فيها بعض عامة المتدينين إلى زلزلة العقائد في هذه القوانين الطبيعية، فالماء يسار عليه، والأرض تطوى للمشي عليها من أقصاها إلى أقصاها في لحظة، والفاكهة تحضر بتحريك يد في الهواء، ونحو ذلك - مع أن خاصة الصوفية كانوا يتبرءون من ذلك وينهون عنه، فكان «سهل التُّستَري» يقولون: «أكبر الكرامات أن تبدّل خلقاً مذموماً من أخلاقك» وجاء رجل فقال له: إن الناس يقولون إنك تمشي على الماء! فقال: سل مؤذن المحلة فإنه رجل صالح لا يكذب. قال: فسألته، فقال المؤذن: «لا أدري هذا، ولكني أعلم أنه نزل الحوض في بعض الأيام فوقع فيه فلو لم أخرجه لبقي فيه أبداً».

فلما اعتقد العامة في تخلف القوانين الطبيعية بنوا حياتهم اليومية حيثما اتفق، فليزرع الزارع كما شاء، فقد تنقلب القوانين الطبيعية فينجح المهمل ويفشل المدقق، وليسرف التاجر كما يهوى وليسر سَبَهْلَلَا، فقد يرزق الأخرق ويحرم الحِذر، ومثل ذلك الصانع في صناعته والعامل في عمله، والموظف في وظيفته، والأم في تربية الولد، والأب في الإنفاق على الأسرة. ليست هناك غاية محددة يسعى إليها بخطوات محددة، إذ ليس هناك إيمان بقانون السببية ولا بالقوانين الطبيعية.

وهكذا أصبح هذا الشأن مرضاً من أمراض المجتمع الخطيرة، لا بد أن يتكلف رجال الدين والمصلحون الاجتماعيون على القضاء عليه، حتى يؤمن الناس أن لا تبديل لكلمات الله، ولا تبديل لقانون الطبيعة ولا نجاح لأمة أو فرد إلا بإطاعة هذه القوانين وتعديل الحياة على وفقها.

يجب أن يفهم الناس أن الموت والحياة قانون طبيعي، وأن الغنى والفقر قانون طبيعي، وأن الصحة والمرض قانون طبيعي، وأن صلاح الناشئين وفسادهم بالوراثة والتربية قانون طبيعي. وأن الهزيمة والنصر قانون طبيعي، وأن موقف الأمم في سلَّم العالم قانون طبيعي، وأن من أراد من الأمم أن يرقى لا بد أن يعمل مقدمات الرقي الطبيعية ليصل إلى النتيجة الطبيعية، وأن الله ربط الأسباب بالمسببات ربطاً محكماً، وجعل بين المقدمات والنتائج عروة وثقى لا انفصام لها، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن من زرع الحنظل جنى الحنظل.

الإسلام والإصلاح الاجتماعي

بعض الأديان اقتصرت على تنظيم العلاقات بين العبد وربه، فشرعت شعائر العبادة واكتفت بذلك، ولم تمس شئون الدنيا في قليل ولا كثير، بل منها ما دعا إلى الابتعاد عنها والتجرد منها.

ولم يكن الإسلام من هذا الطراز، بل نحا منحى آخر، فقد نظم العلاقة بين العبد وربه بما شرع من أنواع العبادات، ومن ناحية أخرى واجه الحياة الدنيوية، ووقف منها موقف المصلح الاجتماعي والشارع القانوني؛ فقد نظم الأسرة، ووضع نظاماً للزواج والطلاق والميراث وما إلى ذلك، ونظم المعاملات المالية بما وضع من أحكام للبيع والشراء والإجارة وتحريم الربا، ووضع أسس القوانين الجنائية من بيان للجرائم والعقوبات، وبيّن العلاقات في السلم والحرب، وقرّر أصول نظام الحكم من وظائف الخلافة ونظام الشورى وما إلى ذلك. وعلى الجملة واجه كل مرافق الحياة الدنيوية أيضاً، وتعرض لأسسها، وأصلح ما كان عليه الناس في جاهليتهم، ووضع القواعد التي تنير للناس السبيل في الحياة.

ولكن كل دين يسير على هذا المنهج من تنظيم لشئون المجتمع، يجب لنجاحه أن يشتمل على عنصر هامّ من عناصر الحياة، وهو (عنصر المرونة)، وإلا تخلف وأصبح في عداد التاريخ، ولم يصلح لكل زمان ومكان، إنما يصلح لقوم معينين في زمان معين.

ذلك أن الشئون الاجتماعية في تغير دائم ورقي مستمر، تتغير بتغير المدنية وبرقي العقل، وبما يستكشف من مخترعات، وبأحداث الزمان التي تغير الأوضاع تغييراً كبيراً.

اعتبر في ذلك بما حدث في العصور الحديثة في قرن واحد؛ فالمخترعات الحديثة غيرت أوضاع الحياة وقلبتها رأساً على عقب، والثورة الصناعية غيرت نظام العالم الاقتصادي والاجتماعي، وأخلاق الناس ومعاملاتهم بعد الحرب الكبرى تغيرت كل التغير عما كانت قبلها، وستغير هذه الحرب أخلاق الناس ومعاملاتهم ونظم الحكم ونظم الاقتصاد إلى حد كبير، فإن حدث هذا في قرن واحد، فما بالكم بقرون عديدة، وما بالكم بعمر العالم؟

من أجل هذا كله كان لا بد لكل دين يواجه الشؤون الاجتماعية أن يحمل في ثناياه روح

المرونة يواجه بها هذه التغيرات، وأن يفصل فصلاً تاماً بين قواعد أساسية لا تتغير بتغير الزمان، كقواعد العدالة، ولا ضرر ولا ضرار، ولكم في القصاص حياة، وأن تعدلوا أقرب للتقوى، وإن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وبين مسائل جزئية تفصيلية هي وليدة البيئة والظروف، إذا تغيرت تغيرت.

والإسلام جاء ليكون ديناً عاماً، لا لأمة خاصة، ولا لزمن خاص، فلا بد له أن يقرر عنصر المرونة، وكذلك فعل، وعنصر المرونة فيه هو «الاجتهاد». وأصل هذا ما جاء في الحديث المشهور أن رسول الله بعث معاذ بن جبل ليقضي بين الناس في اليمن، فسأله: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي.

هذا الأصل - وهو الاجتهاد - يتضمن أن يكون المجتهد عالماً بمقاصد الشريعة وأغراضها ومراميها، دقيق النظر في معرفة أسرارها وأصولها، ثم يواجه المسائل الجديدة والأحداث العارضة، فيقضي فيها برأيه مستنداً إلى كليات الشريعة وأغراضها، مقدراً ظروف الأحداث وما يترتب عليها من منافع ومضار.

هذا الأصل المرن يمكّن الشريعة من أن تساير الزمان والمكان، فلكل ظرف تقديره، ولكل حادثة حكمها.

وكان من نعم الله على الإسلام أن حدثت الفتوح الأولى في أيام عمر بن الخطاب وهو من أكثر الناس مرونة، وأشدهم اجتهاداً في حدود مقاصد الشريعة الكلية.

لقد واجه المسلمون في الفتوح الأولى آلاف المسائل التي لم تكن معروفة في جزيرة العرب؛ فهذه نظم الري في مصر والعراق المعقدة المشتبكة؛ وهذه ضروب المعاملات المختلفة التي لم تكن معروفة من قبل، وهذه نظم الحرب الجديدة، وقواعد الحرب والسلم، ونظام الأراضي والمحاربين، وهذه أشكال المدنية الفارسية والرومانية المتعددة الألوان، وهذه الجرائم التي تخلقها المدنيات ولم تكن معروفة للعرب، ونحو ذلك من مسائل لا عداد لها، كل هذه أمور واجهت الدولة الإسلامية وعلى رأسها عمر بن الخطاب، فبم حلها هو وصحبه؟

بالاجتهاد، بمرونة الاجتهاد، بعينين تفتح إحداهما على مقاصد الشريعة وأغراضها ومراميها وتفتح الثانية على الظروف الجديدة، والعوامل الجديدة، ويستخرج من بين هذين

النظرين أحكام اجتهادية عدت نبراساً لمن جاء بعد من الفقهاء والشارعين، ولو لم يحصل هذا الظرف السعيد لوقف المسلمون حيارى أمام الحوادث الغريبة والتصرفات العجيبة، ولكن الإسلام رباهم هذه التربية المرنة، فسلحهم بالأصول وأسلس لهم في تطبيقها على الفروع، فحلوا المشكلات، واتقوا الأزمات، وضربوا بأعمالهم خير مثال يحتذى.

ومثل هذا ما حدث فعلاً طوال العصر الأموي، والعصر العباسي الأول، نقرأ التاريخ فتأخذنا الروعة من كثرة المجتهدين ومرونة الشارعين، حتى أربوا على خمسمائة، يواجهون الأحداث، ويضعون لها الأحكام، كل حسب اجتهاده، وحسبما فهم من كليات الدين وأصول القواعد، فلم تحدث حادثة إلا لها حكمها، بل أحكامها، مقدرين الظروف، والمنافع والمضار، دارسين عادات البلاد وعرفها وتقاليدها، عالمين الحدود التي يتسامحون فيها لأنها لا تتعارض مع كليات الدين، وعارفين الحدود التي لا يتسامحون فيها لمعارضتها لهذه الكليات.

ولم يَشْكُ الناس قط في تلك الأزمنة من عدم الاجتهاد وقلته، ومواجهة الأحداث الجديدة؛ فلئن كانت شكوى فقد كانت من كثرة الاجتهاد وكثرة الأحكام، حتى اضطرت الممالك الإسلامية أن تعالج هذه الحرية في الاجتهاد بأشكال مختلفة؛ ففي المشرق حاولوا معالجتها باختيار مجموعة للأحكام يعرفها الناس قبل التقاضي، كما رُوي من حديث أبي جعفر المنصور مع مالك في شأن الموطّأ، وفي الأندلس ألفت رسمياً جماعة تسمى جماعة الشورَى، جعلت هي المرجع في الاجتهاد.

ثم كان - مع الأسف الشديد - أن جهل الناس هذا العنصر الأساسي في الإسلام، وهو الاجتهاد، فأغلقوا بابه فأغلقوا عليهم باب الرحمة، وإذا عدم الناسُ الاجتهاد أصابهم الركود، وتصلب العود. والزمان لا يقف أبداً، والحوادث تتجدد دائماً؛ فإذا لم تواجه بالاجتهاد المرن، ولم ينتفع بتجددها، تخلف الناس عن زمانهم، وجمدت عقولهم. وسكنت حركتهم وأُصيبوا بالفقر العقلي، وهذا ما حدث للمسلمين فعلاً.

وقد تدرج هذا التصلب من اجتهاد مطلق إلى اجتهاد في المذهب، إلى اجتهاد في الفتيا، إلى لا شيء.

وكان لهذا الركود أسباب تاريخية عدة، لا مجال لتفصيلها، أهمها القضاء على حرية الفكر التي كان يقوم بها المعتزلة، وغلبة بعض المحدّثين في عهد المتوكل، ثم غلبة نوع من التصوف ينشر القول بالجبر، لا بالمعنى الفلسفي الذي هو ربط الأسباب بالمسببات، ولكن

بمعنى التسليم المطلق لحوادث الدهر، من غير تدخل في شئونها، مطالبين أن يكون العبد كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا يكون له حركة ولا تدبير.

وقد أحس بعض كبار المسلمين بهذا الخطر الناشئ من ضياع الاجتهاد، فحاولوا محاولات عنيفة في هذا الباب، كما فعل عبد المؤمن بن علي في المغرب حول سنة 550هـ، إذ وجد العلماء انهمكوا في الفروع، ورضوا بالتقليد، فأحرق كتب الفروع، ولزم العلماء بالاجتهاد وترك التقليد.

وكما فعل ابن تيمية عقب سقوط بغداد، إذ نادى بالاجتهاد ودعا إليه، ولقي في ذلك من العناء ما لا يوصف، ولكن مع الأسف ذهبت دعوتهم هباء.

إن وقوف الاجتهاد معناه الركود، معناه الحكم بالإعدام على العقل، معناه وقوف الناس حيث هم؛ وكذلك كان تاريخ المسلمين منذ القرن الخامس، حياتهم متكررة، ولا جديد ولا قائد ولا مجتهد يبعث على حركة، أو يحول الحركة إلى جهة صالحة.

ولم يكن إغلاق باب الاجتهاد مؤثراً على التشريع وحده، ولا على الإصلاح الاجتماعي وحده، بل شمل كل مرافق الحياة؛ فاللغة واقفة حيث وقف المتقدمون، والمعاجم كما كتب الأولون، والصناعات كما صنع السابقون، وهكذا. وظللنا كذلك حتى صفعتنا المدنية الحديثة فانتبهنا مذعورين.

كانت المدنية الحديثة مشكلة كبرى أمامنا، كيف نحدد موقفنا إزاءها؟ وقد عرضت هذه المشكلة لكل أمة مسلمة، في الهند، في الشام، في فارس، في العراق، في تركيا، في مصر. وقد رأينا أنه في كل قطر تقريباً، وجد مذهبان مختلفان لحل هذه المشكلة، وطريقة الإصلاح التي يدخلونها على الأمة. فأما طائفة فرأت حصر الدين في دائرة ضيقة جداً، لأنه فقد مرونته، وفقد أهله مرونتهم، ولتكن هذه الدائرة دائرة العبادات والأحوال الشخصية، وأما ما عدا ذلك من نظم الحكم وقوانين البلاد وما إلى ذلك من مرافق الحياة فيجب أن يتجه فيها إلى أوربا ونظمها وقوانينها، فهذه باب الاجتهاد فيها مفتوح والمرونة فيها على أتمها، فلندرس ما وصلت إليه أوربا في السياسة، وفي الإصلاح الاجتماعي، ولنجتهد فيه ولنأخذ منه ما يصلح للأمم الشرقية، وليبق باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه، كلما جد في أوربا جديد اقتبسنا منه، وكلما تغير الزمن عندنا غيرنا ما يتفق والعقل والمصلحة. قالوا: لقد فصلت أوربا بين الدين والدولة فلنفصل نحن أيضاً، ولنجعل حدود الدين في العبادات وما يتصل بها، ولنجعل حدود الدولة واسعة كل السعة؛ وليكن شارعونا في الدولة ممن عُلِّموا

على النمط الغربي، وممن يحكمون العقل المطلق ويجتهدون الاجتهاد المطلق. وبدل أن كان يشترط في المجتهد المطلق العلم بكليات الشريعة ومقاصدها ومراميها نشترط نحن أن يكون عالماً بمقاصد المدنية الغربية وكلياتها ومراميها؛ ذلك لأنا أمام مدنية تشبه التي واجهتها جزيرة العرب أيام عمر بن الخطاب، بل هي أشد تعقداً وتركباً: معاملات جديدة أشكال وألوان، ومخترعات جديدة، ونظم سياسية جديدة، وكل شيء جديد؛ فما لم نواجهها باجتهاد مطلق قوي واسع المدارك وقفنا مشلولين، ولا أمل في مرونة كالمرونة الأولى أيام عمر - في العصور الحاضرة على الأقل - فوجب أن نجتهد اجتهاداً آخر، أساسه العقل المطلق، وقياس المنفعة والمضرة من غير قيد؛ ولنؤسس القومية والوطنية كما أسستها أوربا؟ ولينظر كل وطن وكل قوم في مصالحهم حسبما ترشدهم إلى ذلك عقول مجتهديهم.

وبجانب هؤلاء دعاة آخرون يرون أن الإسلام في أساسه عنصر صالح كل الصلاحية، يحمل في ثناياه المرونة الكافية كما أسلفنا، وجمود أهله عارض، وقشرة ظاهرية إذا أزلناها بقي على صلاحيته؛ والأمم الإسلامية قد تأقلمت بالإسلام أجيالاً طوالاً حتى صار في لحمها ودمها، فإذا جئتها بمبادئ جديدة بعيدة عنها اضطربت أمزجتها وحياتها بين الموروث والمكتسب؛ وهذه المدنية الغربية إنما تنفع بحذافيرها في البيئة الغربية. وأساس تعاليم الإسلام عدم التفرقة بين شئون الدين وشئون الدنيا، فالعمل شيء واحد له وجهان دائماً: وجه دنيوي ظاهري، ووجه ديني يتعلق بالنية؛ والمدنية الغربية قد فصلت بين الدين والدولة لأن الدين المسيحي لم يتعرض لشئون الدنيا، فأمكن وضع الدين في دائرته، وتأسيس دائرة أخرى للدولة وشئونها؛ وقال هؤلاء للطائفة الأولى: ربما كان يكون قولكم صحيحاً وحجتكم قوية لو أن المدنية الغربية برهنت على صلاحيتها للحياة؛ أما وكل يوم دليل جديد على فسادها، من حرب تهلك الحرث والنسل، ونحو ذلك من شرور، فأولى ألا نندمج هذا الاندماج، وألا ندعو إلى وطنيات وقوميات، وإنما إلى عالم إسلامي يطمح أن تعم مبادئه الإنسانية كلها، ثم أن نؤسس إصلاحاتنا الاجتماعية على أساس نظريات الإسلام؛ فذلك أقرب إلى قلب الأمة وأدعى إلى الإصغاء للدعوة وتلبيتها. نعم إن ذلك لا يكون إلا بإزالة القشرة الظاهرية التي غلفت الإسلام، والرجوع إلى عناصره الأولى، ومنها الاجتهاد المطلق، والمرونة الكافية، وهذا مطلب عسير، ولكنه ممكن.

إذاً فكل فرقة من الفرقتين تدعو إلى الاجتهاد المطلق، وإن اختلف منبع كل منهما.

والعالم الإسلامي الآن حائر بين النزعتين والدعوتين، ويخيل إليّ أن الدعوة الأولى غالبة

والعمل يجري عليها والاتجاه إليها أقوى في صمت وسكون، والأمم الإسلامية تختلف في مدى تطبيقها والعمل بها، وربما عدت تركيا في طليعة الآخذين بها.

وعلى قادة العالم الإسلامي واجب قوي الآن، وهو إنقاذه من هذه الحيرة، ورسم الخطة المحكمة الحازمة التي يجب السير عليها، وتنظيم الإصلاح الاجتماعي حسب الفصل في هذا الأساس، ويجب ألا يكون هذا الإصلاح ارتجالاً، فليست تقبل إحدى هاتين الطائفتين هذا الإصلاح المرتجل، لأن الارتجال سير على غير هدى، وبناء من غير تصميم. وحبذا لو أمكن السير على الرأي الثاني. ولكنه - كما أسلفت - لا يمكن حتى يُثبت أهله صلاحيتهم للمرونة، وللاجتهاد المطلق، والله الموفق.

* * *

حديث الخميس

وعدت القراء أن أوافيهم من حين إلى حين بما يدور مساء الخميس في «لجنة التأليف».

لقد كان حديث الليلة حديثاً طريفاً، فبعد أن التأم الجمع بدأ أحدنا يقص علينا عملا عمله في يومه، وأعقبه بقوله: «لقد كانت قِرْفَته ثقيلة».

وهنا تعلق أحد الحاضرين بهذه الكلمة وسأل:

- من أين جاء هذا التعبير، فيقولون للعمل إذا سار في يسر وسهولة: «إن قرفته خفيفة»، وإذا تعقد وارتبك: «إن قرفته ثقيلة»؟ وكلنا يعرف القرفة، وأنها نوع من الأفاويه يستعمله المصريون مشروباً ساخناً كالشاي، فكيف استعمل هذا الاستعمال الغريب؟

رد أحد الحاضرين بأن مصدر هذا الاستعمال حلقات الذِّكْر؛ وقد جرت العادة أن يوزع فيها مشروب القرفة، ولكن توزيعها في هذه الحفلات فوضى في غير نظام ولا إتقان؛ فالقرفة تصنع على عجل وتوزع حيثما اتفق، فهذا يناله فنجان سكره خفيف، وهذا سكره كثير، وهذا قرفته خفيفة، وهذا قرفته ثقيلة - هذا أصل الاستعمال، ثم تطور المعنى، فصاروا يعبرون عن كل شيء خفيف الظل بأن قرفته خفيفة، وكل شيء ثقيل الظل بأن قرفته ثقيلة.

- ولكن هناك ما هو أصعب من السؤال عن اللفظ وأعقد: ما معنى أن الشيء قرفته خفيفة أو ثقيلة؟ هل هو أمر يعود إلى أسباب طبيعية يمكن تفسيرها وشرحها، أو أن وراء هذه الأشياء الطبيعية التي نعلمها أشياء روحية نجهلها؟

تبلبل الحاضرون واختلفت الآراء.

أما أنا فإني أرى أن الأمر يمكن تفسيره بالقوانين الطبيعية؛ فالإنسان إذا كان معتدل المزاج، قوي النشاط، معدته صحيحة، ودورته الدموية نشيطة، وكبده في حالة جيدة، والعمل يناسبه، كانت قرفته خفيفة؛ وأما إذا ساء مزاجه، أو اضطربت معدته، أو ساءت حالة كبده، أو كان العمل ليس في مقدوره، كانت قرفته ثقيلة؛ وكل ذلك طبيعي ولا شيء غير الطبيعة.

- وأما أنا فإني أرى أن الأمر ليس بهذه البساطة، وأنه أعقد من أن يحل بهذه السرعة، لقد أكون معتدل المزاج، متوفر فيّ كل الشروط التي ذكرتها، وأحياناً أعرض لعمل فيسهل، وأعرض لمثله أحياناً فيصعب.

لقد سكنت بيتاً وكانت كل الدلائل تدل على حسنه، مبناه جميل، وهندسته جميلة، وحائز لكل الشروط الصحية، ومع ذلك كانت قرفته ثقيلة، بليت فيه بالمرض، وابتلى أولادي بالمرض، وأصبت فيه بالنكد، وكانت حياتي فيه سلسلة مصائب، حتى إذا انتقلت منه إلى بيت آخر زالت كل هذه الشرور.

- وتصديقاً لقولك، هذا رجل يتزوج زوجة قد لا تكون حسناء، ومع ذلك فهو سعيد موفق في تجارته، يأتيه الرزق من كل مكان، وتنهال عليه الخيرات وينعم بضروب السعادة، ثم تموت هذه الزوجة، ويتزوج غيرها قد تكون أجمل منها، ومع هذا يبتدئ يضيق رزقه ويقل مورده، وتكثر متاعبه، ولا يزال يتدهور حتى يصل إلى الحضيض، فكيف تفسر ذلك تفسيراً طبيعياً؟

- وهذا رجل يلعب نرداً أو شطرنجاً أو ورقاً، فهو في أسبوع حسن الحظ جداً، يلعب فيكسب، ثم يلعب فيكسب، ويلي الأسبوع أسبوع آخر يلعب فيه فيخسر، ثم يلعب فيخسر، واللاعبون معه هم هم، وهو هو فكيف تفسر ذلك طبيعياً؟

-وهذا يوم اصطحبت فيه بشخص. فكان يوماً أسود: ركبت سيارتي فتعطلت في الطريق، فاستأجرت أخرى فاصطدمت، وذهبت إلى عملي فكان غير موفق، واشتريت شيئاً فكان سيئاً، وعدت إلى بيتي فوجدت ابني قد رجع من المدرسة مكسور الذراع، ودعوت الطبيب فلم أجده؛ واصطحبت بشخص آخر يوماً آخر، فكان كله توفيقاً؛ فكيف نفسر ذلك تفسيراً طبيعياً؟ لِمَ تجمَّع كل الخذلان في يوم؟ ولِمَ تجمَّع كل هذا التوفيق في يوم؟

إذ ذاك انقسم الحاضرون إلى معسكرين: معسكر يرى أنه لا شيء في هذا كله مما يصعب تفسيره تفسيراً طبيعياً؛ فلا شأن للبيت المشؤوم في شؤمه، ولو كان من حدثت له هذه الأحداث في أي بيت لجرى له ما جرى، إلا أن يكون في البيت نفسه شيء غير طبيعي يخل بالصحة؛ ودليل ذلك أن البيت الواحد قد يسعد فيه قوم ويشقى آخرون. ولو كانت المسألة مسألة البيت لاتحدت نتائجه من سعادة أو شقاء دائماً، بل إن البيت الواحد للأسرة الواحدة قد يكون مكان سعادة لها حيناً وشقاء حيناً لأسباب خارجة عن البيت نفسه. وكذلك

الشأن في حديث الزوجة، ليس لها دخل في فقر الزوج وشقائه بعد غناه وسعادته، إلا أن يكون لها من الأخلاق ما يسبب ذلك، كإسرافها أو تبديدها أو إهمالها؛ فإذا لم يكن شيء من ذلك فلا بد أن تكون هناك عوامل اقتصادية أخرى غير المرأة سببت تدهور تجارته، لو حدثت أيام الزوجة الأولى لحدث الفقر نفسه. ولسنا ننكر المصادفات، وأن حوادث الشر قد تتجمع في يوم، وحوادث الخير تتجمع في يوم، ولكن كل مصادفة ترجع إلى قانون السببية.

ووقف المعسكر الآخر يحمل على هذا التفسير، ويرى أنه لا يحل الإشكال، وأنه لو كان الأمر دائماً يرجع إلى علل معقولة فما بالنا نرى من تجمعت فيه كل شروط النجاح ثم فشل، ومن تجمعت فيه كل أسباب الفشل فنجح؟ وما بالنا نرى الشخص يضع يده في التراب فيكون ذهباً، ونرى الآخر يضع يده في الذهب فيصير تراباً، ولو حاولنا أن نبين لذلك أسباباً معقولة لعجزنا كل العجز.

ثم تشعب الجدل وطال، ورأينا أنفسنا قد انتقلنا في خفة ورشاقة إلى شيء يتصل بذلك أتم الاتصال. قد كان مدار الحديث حول «القرفة الخفيفة والقرفة الثقيلة». فإذا بنا نتحدث عن الدم الخفيف والروح الخفيف، والدم الثقيل والروح الثقيل.

– ما هذا أيضاً؟ إنا لنرى من استوفى كل شروط الجمال في لونه وتقاطيعه، ولو طبقت عليه كل القواعد التي وصل إليها علماء الجمال لانطبقت عليه، ومع هذا نقول إن دمه ثقيل، وآخر قد اجتمعت عليه كل ضروب القبح في لونه وكبر أنفه وجحوظ عينيه وانحناء متنه، وهو مع ذلك خفيف الروح تأنس النفس به وتنجذب إليه، هذا من جنس ذاك، فما تفسيره؟ أهو أيضاً خاضع لقوانين طبيعية أو تدخل فيه قوانين روحانية؟

– تفسير ذلك أن الجمال أنواع: فمنه جمال الأعضاء والتقاطيع والألوان، ومنه جمال الحركة، وجمال الحديث، وجمال العقل والتفكير وجمال الروح، وخفة الدم ترجع إلى جمال الروح. وليس هذا فقط، بل إن الجمال سواء كان حسياً أو معنوياً لا بد فيه من الانسجام بين الرائي والمرئي والشاعر والمشعور به، ومن هذا ترى الإنسان جميلاً في عين إنسان وليس جميلاً في عين آخر، وخفيف الروح في عين وثقيلها في عين. ثم قد يكون الشخص جميلاً جمالاً حسياً، وليس جميلًا جمالاً معنوياً؛ فإذا رأيته أعجبك شكله، فإذا تكلم أو عرض عقله تبينت ثقله، لأن قبح عقله غطى على جمال شكله؛ فالمسألة كلها ترجع إلى قوانين طبيعية سواء في ذلك جمال الحس وجمال المعنى.

- أما أنا فالأمر عندي أدق من ذلك، فأعتقد أن هناك إشعاعاً روحياً أدق وألطف من إشعاع الضوء، وأن كل إنسان له نوع إشعاع، فإذا توافق إشعاع الناظر والمنظور على نوع من أنواع الاتفاق أحس بالجمال وعبر بخفة الروح، وإذا لم يتوافق الشعاعان عبر عن ذلك بثقل الروح، و«الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، وكيف ننكر هذا الإشعاع وقد قربنا من إدراكه اكتشاف اللاسلكي، وأمواج الروح أدق من أمواج السلكي واللاسلكي.

- ولكن إذا كان صحيحاً فلم نستثقل شخصاً ثم نستلطفه أو نستلطفه ثم نستثقله؟ ولو كان الأمر أمر إشعاع وتوافق لاستمر ذلك أبداً ولم يحدث فيه هذا التغير؟

- الأمر يمكن تفسيره بأن هناك طاقات ينفذ منها الإشعاع، تفتح فيخرج إشعاعها وتغلق فينعدم، فهذه طاقة إشعاع تنفتح عند الحديث، وأخرى عند الخطابة، وثالثة عند تلاقي العيون، ورابعة عند الحركات، وهكذا؛ وقد تكون أشعة طاقة من الطاقات لطيفة جميلة، وإشعاعات طاقة أخرى ليست لطيفة ولا جميلة، وقد تكون جميلة بامتزاجها مع إشعاعات شخص، وليست جميلة إذا امتزجت مع إشعاعات آخر، ومن أجل ذلك ننظر إلى شكل إنسان فنستجمله فإذا تحدث نستقبحه، وإشعاعات الأفراد تختلف كمية وكيفية، فتختلف كمية كقوة مصابيح الكهرباء، وتختلف كيفية كالأمواج القصيرة والطويلة والمتوسطة، ولهذا يختلف الأفراد في قوة التأثير حسب قوة الإشعاع وضعفه وكثرته وقلّته.

- هذا كلام شعري لا كلام علمي، هو كلام يستسيغه الأديب الذي يروعه التشبيه والاستعارة وسائر ضروب الخيال، ولكن لا يأبه له العالم الذي يحلل ويعلل ولا يقنع إلا بالسبب والمسبب.

وما ضرر هذا وليست حقائق الدنيا كلها علماً، بل فيها العلم والأدب؟ وطبيعة العالم فيها الصنفان جميعاً، هذا النهر يتكون من عناصر الماء لعلمية ومن جمال مناظره الأدبية، من أوكسيجينه وهيدروجينه، ومن بريقه وخريره؛ وهذه الأشجار تتكون من عناصرها الأولية ومن زهرتها الجميلة وحفيف أوراقها الجميل ولعب النسيم بأغصانها الجميلة، فلماذا تريدنا على العلم الجاف، ولا تريدنا على الأدب الجميل، إذا كانت حقائق الدنيا فيها النوعان معاً؟ ثم ما هذا الغرور العلمي الذي يريد ألا يؤمن إلا بما يقع تحت حسه ولا يقر إلا بما يحلله في معمله؟ فكم في الدنيا من عوالم: عالم يخضع لقوانين السببية وعالم لا يخضع، عالم اكتشف

وعالم سيكتشف، وعالم لا كشف ولا سيكتشف؛ وكلٌّ يوم يطلع على العلم بقوانين جديدة، وكل يوم تتسع فيه دائرة المعلوم وتضيق دائرة المجهول.

- أما إن وصلنا إلى هذا فالأمر يسير، فأنا - كعالم - أقف عند حدود العلم، ولا أؤمن بالفروض حتى تدخل في باب الحقائق، ومع هذا لا أدعي أن العلم وصل إلى كل شيء، وحل كل شيء؛ وإنما الذي أنكره عليك أن تعرض جمال الروح وقضايا الإشعاع على أنها علم لا فرض، أما إن عرضتها كفرض فلنبحثها بحث الفروض.

ودقت الساعة مؤذنة بالانصراف فتفرقنا، وكانت جلسة روحها خفيفة، وقرفتها خفيفة، أليس كذلك؟.

* * *

أبو ذر الغِفَارِي

لم يكن أبو ذر بطلاً من أبطال الحروب تؤثر عنه المغامرات الحربية وتؤثر عنه الانتصارات والفتوح، ولكنه بطل من نوع آخر، هو الإصرار على الحق والمجاهرة به والتضحية في سبيل قوله والدعوة إليه بنفسه وماله، لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا تفزعه سطوة حاكم.

هو من قبيلة تسمى غفار، قبيلة مضرية كانت تسكن الحجاز على الطريق بين مكة والمدينة، ولم يكن عظيماً في قومه، يستند - كعادة الجاهلية - في عظمته على الحسب والنسب، والمال والثروة. وإنما كان عظيماً في عقله، يحكّمه في دينه وفي عقيدته، ويستطيع إدراك ما هو خير وما هو شر، لذلك يؤثر عنه أنه قبل الإسلام أدرك سخافة عبادة الأصنام وتحرر منها، ومال إلى عبادة الله وحده، على نحو غامض لم ينكشف له تمام الانكشاف إلا بالإسلام.

وأدرك قومه الجدب فرحل مع بعض أهل بيته إلى بعض أقاربه في أعلى نجد، ولكنه لم يسترح هناك فهاجر إلى مكة، وصادف عند هجرته أول دعوة محمد ﷺ إلى الإسلام، وسمع الناس في مكة يتحدثون بمحمد هل هو نبي أو ساحر أو شاعر أو مجنون، فأحب أن يَخبُر الخبر بنفسه ويعرف كنه دعوته، ويحكّم في ذلك عقله هو لا كلام الناس، وساعده على ذلك أنه نفسه كان ثائراً على الأصنام، فلما سمع بثائر آخر أحب أن يعرف دعوته، فتلمس لقاء محمد حتى وجده، وأصغى إليه، وإلى أساس تعاليمه، فعرف فيها الخير، فسرعان ما آمن قبل أن يؤمن الناس، وكان خامس مؤمن.

ولكنه لما آمن تحرَّك طبعه من حب مجاهرته للحق، فلم يشأ أن يسكت وقد نُصح بالسكوت، فتعرض لصناديد قريش وجهر فيه بالإسلام، فأوذي وضرب ضرباً شديداً حتى كاد يقضى عليه لولا أن تدخل العباس وقال لقريش: يا معشر قريش أنتم تجار، وطريقكم على غِفار: أتريدون أن يقطع الطريق عليكم، فكَفّوا عنه، وعاود ذلك فعادوا، فأدرك النبي ﷺ أنه لن يسكت، وأنه معرض للقتل، فأمره أن يَلْحَق بقومه حتى إذا ظهرت الدعوة فليأته. فرجع

إلى بلده يدعو بعقيدته، ثم ظهر بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وبعد غزوة بدر وأُحد، فإن أبا ذر لم يشهدهما.

وكان أبو ذر من أهل الصُّفة، والصفة موضع مظلل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء الصحابة ممن لم يكن له منزل يسكنه، كانوا فقراء فكان يمدهم الأغنياء بمالهم، ويقدمون إليهم طعامهم ويستضيفونهم في منازلهم، وإذا أتى النبي صدقة بعثها إليهم، يلبسون رقيق الثياب ويأكلون تافه الطعام، وكانوا يختلفون في العدد من حين إلى الآخر، فكانوا أحياناً سبعين وأحياناً دون ذلك أو أكثر من ذلك، وكان النبي يزورهم في مكانهم الفينة بعد الفينة ويحدثهم ويصغي إليهم، ولأنه كان يقوّم الأشياء والناس غير التقويم الجاهلي من الاعتزاز بالمال والنسب، وإنما يقوِّمهم بالأخلاق والعمل، كان يكرم هؤلاء ويقدرهم ولا يرى غضاضة في الجلوس إليهم، وكان صناديد العرب يأنفون من ذلك ويعدونهم عبيداً أذلاء لا يصح أن يجالسوهم، فلما جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وأمثالهما إلى المسجد طلبوا من النبي أن يفردهم بالجلوس وقالوا: إنا نستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا. فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية 52] وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: الآية 28] . وكان من أهل الصفة هؤلاء أمثال أبي ذر وسلمان الفارسي وبلال وأبي سعيد الخدري وغيرهم.

كانت ميزتهم المشتركة بينهم الفقر، وكثرة الاتصال برسول الله، ثم هم يختلفون بعد ذلك في مزاياهم الشخصية.

وكان لرسول الله ﷺ نظر صائب في الأشخاص وموضع قوتهم وضعفهم، وكان يوجه كلًّا حسب استعداده وما يصلح له، ويلقي بالنصيحة لكلٍّ فتُذهب خبثه، وتصهر نفسه.

ولقد كانت نصيحته الكبرى لأبي ذر التي تتفق ونفسه، وما عرف عنه من قول الحق والدفاع عنه ما حدث به أبو ذر أنه قال: «أوصاني رسول الله أن أحب المساكين وأدنو منهم وأنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر لمن هو فوقي. وألا أسأل أحداً شيئاً، وأن أصل الرحم، وأن أقول الحق وإن كان مُرًّا وألا أخاف في الله لومة لائم».

ولقد نفذ أبو ذر هذه النصيحة في دقة، فلم يحد عنها.

جاءت الدنيا بخيرها ونعيمها، فعمت العرب، واغتنى بعض أهل الصفة، وظل أبو ذر متلذذاً من فقره، متخففاً من حاجاته، متعففاً عن الغنى حتى لقي ربه.

يعطَى العطاء فينفقه على الفقراء، ويتصدق به على المحتاجين، ولا يدخر لنفسه إلا القليل، يرى من النعم الكبرى عليه أن له ثوبين، ثوباً لبيته وثوباً للمسجد، وله أعنزاً يحلبها، وله أحمرة يحمل عليها الميرة، وعنده من يخدمه ويكفيه مهنة طعامه، ويقول فأي نعمة أفضل مما أنا فيه، ويحلب غنيماته فيبدأ بجيرانه وأضيافه، ويبقي القليل لنفسه، ويرفق بزوجته السحماء السوداء، لا يقبل نصيحة أصحابه في أن يتزوج غيرها.

ميزة أبي ذر الكبرى هي ما نصحه به رسول الله أن يقول الحق ولو كان مرًّا، فقد تجلت فيه هذه الصفة على أتمها، حتى اعترف له بها كل الناس، وحتى روى عليّ أنه قال: «لم يبق اليوم أحد لا يبالي في الله لومة لائم غير أبي ذر، ولا نفسي، وأشار بيده إلى صدره». وكان أبو ذر نفسه يقول: «ما زلت آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر حتى ما ترك الحق لي صديقاً».

تجلت فيه هذه الموهبة على أتمها - فيما تجلت - في آخر أيامه، وقد ذهب إلى دمشق، وواليها معاوية من قِبَل عثمان، والبلد تزخر بالنعيم، وتتدفق بالذهب والفضة، والناس ينعمون بأطايب العيش ومتع الحياة، وكان قد ذاق وذاق معه كثيرون ألم الفقر في الحجاز، وجرَّب بنفسه آلام البؤس، فحزَّ في نفسه ترف هؤلاء، وبؤس هؤلاء، وتلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **[التوبة: 34]** فتملكته عقيدة أنه لا يصح الإفراط في الترف بجانب الإفراط في البؤس.

اصطدم أبو ذر بمعاوية، وطبيعي أن يصطدما، فمعاوية رجل سياسي، محاور مداور، فيه الاعتزاز بالأرستقراطية العربية، من اعتداد الحسب والنسب، فأبوه أبو سفيان سيد بني أمية، والخليفة عثمان من بيته، وأبو ذر رجل من سواد الناس لا يعتز إلا بدينه وخلقه، ومعاوية هو الوارث في إمارته بالشام ملك الرومان وزهوهم وفخامتهم وجبروتهم وأبهتهم، يسكن القصور الفخمة ويعيش العيشة المترفة الناعمة ويتلو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ **[الأعراف: الآية 32]** ، وأبو ذر بدوي لا يملك إلا أعنزاً وثوبين وقليلاً من الميرة ويعيش حتى في دمشق في خيمة من الشعر، ويرى الذهب والفضة ناراً لا يصح أن تلمسها يده فتحترق، ويتلو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ومعاوية سياسي ينظر للمال على أنه يخدم السياسة ويَدْعَم

الملك والإمارة، فهو يتألف به قلوب النافرين، ويقرب به نفوس الثائرين، ويهبه للشعراء يشيدون بذكره ويعلون من شأن بيته، ويمكنون له في سلطانه، ويهجون المنحرفين عنه، والناقمين عليه وما إلى ذلك من أفانين السياسة. وأبو ذر رجل صريح لا شأن له بالإمارة، وقد عرف فيه رسول الله ذلك، فقال له: «لا تأمَّرَنَّ على اثنين»، فهو ينظر إلى الأمور نظرة صريحة مجردة من اعتبارات السياسة وملابساتها، ويرى أن المال إنما جعل وسيلة لإسعاد الناس، وسد حاجات البائسين، وإعانة المعوزين، لا لترف المترفين، ولا لإعطاء الشعراء والمادحين والثائرين، ولا لكنز الكانزين، وأن المال خلق لسد الضرورات أولاً، ولترف المترفين أخيراً.

فلا عجب وهذا هو الشأن أن يصطدم أبو ذر بمعاوية اصطداماً عنيفاً، وأبو ذر على بساطته وبداوته وفقره لم يكن رجلاً هيناً، يستطيع معاوية - على عظمته وسلطانه وسعة حيلته - أن يتغلب عليه في سهولة ويسر؛ فقد كان أبو ذر حاراً في عقيدته، والعقيدة الحارة تزلزل الجبال، وكان لَسِناً يجيد التعبير عما في نفسه، فيبلغ ببيانه من نفوس سامعيه مبلغاً كبيراً يخيف معاوية. ولكن ماذا حدث؟ حدث أن معاوية في الشام كان إذا جاءه مال من ضرائب أو خراج أو نحو ذلك احتجز بعضه للصرف على المصالح العامة التي منها مصارف السياسة التي أشرنا إليها، وكان معاوية يسمي هذا الجزء المحتجز «مال الله» تمشياً مع قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: 41] ، ومعنى مال الله أن الإمام يصرفه حيث يشاء في المصالح العامة، فلم يُرض أبا ذر هذا الرأي، ولا هذه التسمية، ورأى أن المال يجب أن يصرف أولاً في سد حاجة الفقراء، وأنه يجب أن يسمى مال المسلمين وذهب إلى معاوية، وقال له: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟ قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمالُ مالَه، والخلقُ خلقَه، والأمر أمْرَه؟ قال أبو ذر: فإني لا أقول إنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين. اختلفت نظرية أبي ذر ومن تبعه، ونظرية معاوية ومن على رأيه ومنهم الخليفة عثمان. فعثمان ومعاوية ومن على رأيهما يرون أن وسائل الكسب حرة مفتحة أمام الجميع، فمن استطاع أن يغتني من طرقها المشروعة فليغتن، فإذا اغتنى وجب عليه أن يؤدي الزكاة للفقراء على حسب الشريعة، ثم هو بعد ذلك حر في أن ينعم بالحياة أو يزهد فيها، فإذا هو شاء النعيم في حدود ما أحل الله، فلا حرج عليه في ذلك، وقد عبر عن ذلك كله عثمان بن عفان بقوله لأبي ذر: «يا أبا ذر عليّ أن أقضي ما عليّ وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد».

وأما نظرية أبي ذر فهي أن الناس مطالبون أن يعينوا بمالهم الفقراء، وأن الزكاة ليست هي كل ما يجب، وإنما هو الواجب القانوني، ووراء هذا الواجب القانوني واجب أخلاقي وديني، وهو معاونة البائسين والمحتاجين حتى يذهب بؤسهم واحتياجهم، وليس لأحد أن ينعم كل النعيم وجاره بائس كل البؤس، وقد عبر عن ذلك بقوله لعثمان: «لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات».

على كل حال اصطدمت النظريتان، وأحس معاوية بخطر أبي ذر في الشام، وأن دعوته خطرة من جهتين، من جهة خطرها على حرية الغني، وحرية العمل، وحرية الكسب، وحرية الاستمتاع بالحياة، ومن جهة أخرى أن بعض رءوس الفساد يستغل هذه الدعوة، ويستغل طهارة أبي ذر فيشعل الفتنة في التأليب عليه وعلى دولته.

فكتب معاوية إلى عثمان يشكو أبا ذر ودعوته، فكتب إليه عثمان: «إن الفتنة قد أخرجت خُطمها وعَيْنَيْها، فلم يبق إلا أن تثبت، فلا تنكأ القرح، وجهز أبا ذر، وابعث معه دليلاً وزوده وارفق به».

فبعث إليه أبا ذر فحاجّه عثمان فلم يقنعه، وطلب إليه أن يسمح له بالخروج إلى بلدة بعيدة عن الناس، فسمح له فخرج إلى الرّبذة (وهي قرية على ثلاثة أميال من المدينة في طريق مكة)، وما زال بها حتى مات رحمه الله.

لقد كانت أكبر ميزة فيه حبه للحق، وصراحته فيه، وعمله وَفق عقيدته. لقد اعتقد هذه العقيدة في المال فألزم نفسه اتباعها. ولقد كان - على فقره - يحلب غنيمة له فيبدأ بجيرانه وأضيافه، ويقدم لهم ما عنده من تمر، ثم يعتذر إليهم ويقول: لو كان عندنا ما هو أفضل من هذا لجئنا به. ويبيت أحياناً على الطوى. وعرف منه رسول الله هذا الخلق، فقال: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

ولطيفة أخرى له، وهو أنه خالف معاوية واشتد في مخالفته، وخالف عثمان واشتد في مخالفته، ولكنه رأى أن الأمور لا تصلح إلا بطاعة من بيده الأمر بعد أن يبين له وجه الحق في صراحة، وأنه إذا عمل كل حسب رأيه من غير طاعة لرئيس أصبح الناس فوضى، فكان هذا من أجمل المواقف لأبي ذر. حدث المؤرخون: «أنّ أبا ذر وعثمان تناجيا حتى ارتفعت أصواتهما، ثم خرج أبو ذر مبتسماً، فأتاه نفر من أهل العراق فقالوا: يا أبا ذر، فعل بك هذا

الرجل وفعل، فهل أنت ناصب لنا راية (؟) (يريدون راية الثورة). قال: يا أهل الإسلام لا تعرضوا عليّ ذاك، وتذلوا السلطان، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة لسمعت وأطعت، وصبرت، واحتسبت، ورأيت أن ذلك خير لي، ولو سيرني ما بين المشرق والمغرب لسمعت وأطعت، وصبرت واحتسبت، ورأيت أن ذلك خير لي». رحم الله أبا ذر، فقد كان محباً للحق، مخلصاً له جاهراً به ملتزماً له.

* * *

العلماء في حضرة تيمورلنك

كان تيمورلنك من هؤلاء الأفذاذ الذين يظهرون من آن لآخر في التاريخ، فيصبغون أديم الأرض بالدماء، أمثال الإسكندر وهولاكو ونابليون، ويتجلى عليهم الله باسم المنتقم الجبار، كما يتجلى على الأنبياء باسم الرحمن الرحيم أو الهادي الأمين.

تواتيهم الظروف وتسعفهم الأقدار، فيقطعون الأرض طولاً وعرضاً، وشرقاً وغرباً، كما يقطع اللاعب رقعة الشطرنج، فيخربون ويدمرون، وينكلون بمن يقف في سبيلهم، أو تحدثه نفسه بصدهم، وقد جُردوا من ضمير مؤنِّب، أو وجدان مشفق، تلذهم الدماء كما يلذ الأكل الشهي النهم الأكول، أو كما يلذ الماء الزلال الظامئ الصادي، كأن بينهم وبين الإنسانية ثأراً، فلا يهدأون حتى يقضوا عليها، ويطووا صحيفتها، وهم مع هذا كله يعتقدون أن العناية الإلهية أرسلتهم ليدفعوا الظلم، وينشروا في الأرض راية العدل! وويل للإنسان من العقل، فهو قدير أن يسمي أقسى الظلم غاية العدل، وأن يسمي التخريب تعميراً، وأن يسمي الوحشية إنسانية، وهو في كل ذلك يجد المنطق الذي يخدمه، والبرهان الذي يؤيده.

* * *

كان لتيمورلنك قلب أقسى من الحديد، وأصلب من الجلمود، لا تأخذه رأفة، ولا تلجُه رحمة، سلّط على ممالك آسيا فدوَّخها، وصاد سلاطينها، وأباد البلاد، وأهلك الحرث والنسل، وأزهق النفوس، وبنى القلاع من الرءوس. وكان كما حدث عن نفسه: «في قدمه ثلاثة أشياء: الخراب والقحط والوباء».

ولكن كان له بجانب قسوته وغلظته جوانب غريبة، كان له فراسة في الأشخاص ولا فراسة إياس، تستخرج من أعماق الصدور ما لا يستخرجه القياس. وكان إلى هذا يألف الأولياء والعلماء، وتلذه مجالسهم ورؤيتهم، وأحاديثهم ومناقشتهم، يستمد البركة من الأولياء، ويزورهم ويطلب دعاءهم، وإذا فتح بلدة دعا علماءها للمجادلة معهم.

سمع – وهو بخراسان – عن ولي من أولياء الله ذي كرامات ظاهرة ومكاشفات صادقة، اسمه زين الدين أبو بكر الخوافي، فقصده تيمورلنك ونزل عن فرسه ودخل عليه، فقام الشيخ

له، فانحنى تيمورلنك على رجله يقبلها، فوضع الشيخ يده على ظهره ثم رفعها، فقال تيمور: «لو لم يرفع الشيخ يده لقضي عليَّ، فقد تصورت أن السماء تقع على الأرض وأنا بينهما». ثم جلس في أدب بين يدي الشيخ وقال له: لم لا تأمرون ملوككم بالعدل بين الرعية؟ فقال له الشيخ: أمرناهم فلم يأتمروا فسلطناك عليهم. ففرح تيمور بهذا وقال: «ملكت الدنيا ورب الكعبة».

هذا موقفه من الأولياء يحترمهم ويطلب الدعاء منهم ويعتقد فيهم، ولكن موقفه من العلماء كان غير ذلك. يتفرس فيهم ومن زل منهم لا يرحمه، يلعب بهم كما يلعب الذئب بالحمل أو القط بالفأر، ويلذه فيهم أن يوجه إليهم الأسئلة المحرجة وينتظر كيف يجيبون وكيف يخرجون من المأزق الذي وضعهم فيه، ثم هو بعد ذلك حسب أحواله، فتارة يسر من الإجابة ويبسم، وأحياناً يعبس، وأحياناً يعفو، وأحياناً يقتل.

وكان لتيمورلنك إمام يصلي به، وهو عالم جليل يتولى أمام تيمور مناقشة العلماء وجدالهم، وهو عبد الجبار المعتزلي الحنفي الخوارزمي، برع في فنون العلم ومهر في الفقه والأصول واللغة والبلاغة والأدب، وكان فصيحاً في اللغات الثلاث: العربية والفارسية والتركية، له جاه عند تيمور، يلطف من حدته وقسوته أحياناً، وقد صحبه في فتح الشام وتولى أمامه مناقشة علمائه وإحراجهم بالأسئلة العويصة.

من ذلك أنه لما فتح حلب، واستولى على قلعتها، دعا علماءها وقضاتها، فانتخبوا من بينهم من يجيب عنهم وهو ابن الشِّحنة أحد العلماء المشهورين، كان من أصل تركي وتولى القضاء بحلب، وله كتابه التاريخ المعروف، واشتغل بالحركات السياسية في مصر والشام.

انعقد المجلس وفيه تيمور وعبد الجبار والعلماء، فقال عبد الجبار:

- سلطاننا يقول إنه بالأمس قُتل منا، وقُتل منكم، فمن الشهيد؟ قتيلنا أم قتيلكم؟ فوجم الجميع، وقال العلماء في أنفسهم: هذا والله ما بلغنا عنه من التعنت.

وأحرج ابن الشحنة حقاً، أيقول قتيلكم فيكذب نفسه ويغضب ربه، أو يقول قتيلنا فسيف تيمور على رأسه؟

ولكنه كان داهية ملهماً، فقال:

- هذا سؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأجاب عنه.

فبهت الحاضرون وظنوا أن الشيخ أدركه الخبل، وغضب تيمور وقال: أيسخر من

كلامي، كيف سئل رسول الله، وكيف أجاب؟ قال:

- جاء أعرابي إلى رسول الله وقال: يا رسول الله، إن الرجل يقاتِل حَميَّة، ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليُرى مكانُه، فأينا في سبيل الله؟ فقال رسول الله: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الشهيد».

فسر تيمور لهذا الجواب، وأعجب بدهاء الشيخ ولطف بديهته، وأخذ يؤانس العلماء.

ثم أخذ يسألهم أسئلة أخرى، فلما شعروا بلطفه نقضوا توكيلهم للشيخ ابن الشحنة، وأخذوا يتسابقون للإجابة، ولم يكونوا في مهارته ولا خبرته.

كان تيمور شيعياً يفضل علياً على أبي بكر وعمر، وكان يكره من أهل الشام نصرتهم لمعاوية وقتالهم علياً، ولكن العلماء لا يدرون ذلك، إنما يدريه الشيخ ابن الشحنة الداهية المؤرخ.

سأل تيمورُ ابنَ الشحنة: ما تقول في عليّ ومعاوية ويزيد؟ فقبل أن يجيب ابنُ الشحنة أجاب القاضي علم الدين فقال: الكل مجتهدون، والكل على صواب. فغضب تيمور غضباً شديداً، وسب أهل حلب وقال: أنتم حلبيون وتابعون لأهل دمشق، وهم يزيديون. قتلوا الحسين وأعانوا يزيد.

فكانت ربكة، وكانت حيرة، وكان وجوم.

ولكن ابنَ الشحنة أنقذ الموقف أيضاً، فقال: إن الشيخ علم الدين أجاب بشيء وجده في كتاب لا يعرف معناه، فسرّى عن تيمور وعاد إليه بشره.

وانتقل بعد ذلك تيمور إلى دمشق وفتحها، ووقف من علمائها موقفه في حلب.

فذهب إليه جماعة من العلماء وعلى رأسهم الداهية المؤرخ الآخر ابن خلدون، وذهب إليه بلباسه المغربي، وزيه الأنيق الرقيق، وقد أنابه العلماء أيضاً في الكلام عنهم، ورضوا بأقواله لهم أو عليهم، فعرف تيمور من شكله وزيه أنه ليس من أهل هذه البلاد؛ ثم دعاهم تيمور إلى الطعام، ومدَّ سماطاً كوّم عليه اللحم تلالاً، فمنهم من أكل، ومنهم من جبن، وجعل تيمور يلحظهم ويتفرس فيهم، وابن خلدون يسترق النظر إليه، فإذا وقعت عينه على عين تيمور أطرق، وإذا ولى عنه رمق، ثم جاءت فرصة الكلام، فقال ابن خلدون كلام اللبق الحاذق الماكر. قال: رأيت الملوك، وشهدت مشارق الأرض ومغاربها، وخالطت ملوكها وأمراءها، ولكن الله مَنَّ عليّ بأن أحياني حتى رأيت الملك على الحقيقة، وطعام الملوك إن

كان يؤكل لدفع التلف، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك وللفخر والشرف. فسر تيمور بذلك، وسأله عما يعرف من أحوال البلاد وأخبارها.

واجتمع يوماً علماء دمشق بين يدي تيمور، فأثار ثانية مسألة علي ومعاوية، إذ هي أنسب المسائل التي يتذرع بها للتنكيل بأهل الشام، وذكَرَ يزيد ومقتل الحسين، وقال: إن هذه الأعمال كانت بمظاهرة أهل الشام، فإن كانوا مستحليها فهم كفار، وإن كانوا غير مستحليها فهم عصاة أشرار. وقد هدأ من ثائرته أحد العلماء محمد بن عمر المعروف بأبي الطيب، فقال: إن نسبي يتصل بعمر وعثمان، وكان جدي الأعلى ممن حضر تلك الوقائع، وقد توصل إلى رأس الحسين ونظفه وغسله ودفنه؛ ولذلك سموه أبا الطيب، وتلك أيها الأمير أمة قد خلت وفتن أزاحها الله عنا، ودماء طهر الله سيوفنا منها، فلا خير في إعادة الماضي ونبش ما دفن.

وقد أرضاه هذا الكلام على علاته، وصادف حالة الرضا من حالاته.

ولكن لعل ألطف ما حدث في هذا الباب مجلسٌ مثلُ هذا، أثار فيه تيمور سؤالاً من أسئلته المحرجة، وهو: أيهما أعلى، درجة العلم أم درجة النسب؟

وموضع الإحراج فيه أن تيمور يعتز بنسبه لا بعلمه، والعلماء يعتزون بعلمهم لا بأنسابهم، ويقررون أن شرف العلم فوق شرف النسب.

سمع العلماء هذا السؤال فوجموا وأحجموا عن الجواب، ولكن أحدهم تردد بين أن يسكت سكوتهم أو يجهر برأيه، ولم يلبث إلا قليلاً حتى أخذته الحميّة الدينية والعصبية للحق. كان هذا العالم هو شمس الدين النابلسي الحنبلي، اشتهر بالعلم الواسع، حتى لقب بالجنة، لأن لديه من العلم ما تشتهيه الأنفس.

لم تطاوعه نفسه أن يكون لبقاً كابن الشحنة وابن خلدون، ولا أن يواري ويداري كما فعل غيره، ولكنه أراد أن يكون صريحاً كل الصراحة صادقاً كل الصدق، وأراد أن يقول الحقيقة كلها عارية. صرخ في وجه تيمور وقال: «العلم أعلى من النسب» ولم يكتف بذلك. بل استدل بأدلة في الصميم مما يكره تيمور، فقال: الدليل على ذلك أن الصحابة أجمعت على تقديم أبي بكر على عليّ، لأن أبا بكر أعلم، وإن كان نسب عليّ أشرف.

وما أتم هذا حتى أدرك نتيجة مافعل، فلم يتراجع ولم يجمجم وصمم على أن يتم فصول الرواية فأتمها بفصل ظريف حقاً.

نظر الحاضرون فرأوه يفك أزراره ويخلع إزاره، فدهشوا ودهش تيمور، وسأل: ماذا تصنع؟ فقال: إني قلت ما قلت وأنا أعلم بنتيجته، فأنا أستعد للسعادة، وأختم حياتي بالشهادة.

وعلا الجميع رهبة رهيبة، وشُدت أعينهم بلسان تيمور، ينظرون بماذا يأمر وبأي نوع من القتل يشير، وهم يعلمون أنه يقتل بالظِّنة، ويخسف بالناس الأرض للكلمة الخفيفة، وللقول يحتمل التأويل. فكيف بهذا وقد بلغ الغاية في الإساءة، وتجاوز الحد في الصراحة؟ ولكن الله مقلب القلوب أجرى على لسان تيمور هذا القول ولم يزد عليه:

«لا يدخلن عليّ هذا بعد اليوم».

* * *

ضبط العواطف

تختلف الأمم في ضبط العواطف اختلافاً كبيراً كاختلاف الأفراد؛ فبعضهم حاد المزاج سريع الانفعال، وبعضهم هادئ المزاج بطيء الانفعال. وكذلك الشأن في الأمم، فهي تختلف في حدة عواطفها وبرودتها ومقدار انفعالاتها أمام الحوادث، ودرجة حزنها وسرورها وخوفها وطمأنينتها إلى غير ذلك.

ولعلنا إذا قارنا الأمة المصرية بغيرها من الأمم الأوروبية وجدناها من أكثر الأمم حدة عواطف وشدة انفعال، وذلك يظهر في مظاهر شتى.

من ذلك أنها تبالغ في مظاهر فرحها وحزنها؛ فالميت إذا مات فانفعالات شديدة جداً يتبعها مظاهر قوية من عويل وصراخ، ومغالاة في إقامة المآتم وما إلى ذلك، وكذلك الشأن في الأفراح؛ مظاهر زائطة وطبل وزمر عنيفان ومبالغة في الحفلات وما إلى ذلك.

نقارن بين ذلك وبين مثل هذه المظاهر في بعض الأمم الأخرى، فنجد الهدوء والاقتصاد في العواطف والاقتصاد في مظاهرها، وأسوق مثلاً مثلاً من هذا القبيل، فقد كان لدينا في الجامعة المصرية أستاذ أجنبي في الثامنة والأربعين من عمره، عاد إلى بلاده في الصيف فخرج يتروض فتسلق جبلاً فزلت قدمه وما زال ينحدر ويتخبط في الصخور حتى فارق الحياة - بلغني أن الخبر وصل إلى زوجته وصادف أن أباها كان يزورها ويقضي ليلة عندها، فكتمت الخبر عنه وكتمت عواطفها وإذا احتاجت إلى البكاء انفردت في حجرتها وبكت، فإذا ظهرت أمام أبيها تجلدت، حتى أمضى أبوها ليلته هادئاً لم يعكر صفوه شيء ثم رحل في الصباح، ثم أعلنت هي وفاة زوجها العزيز عليها في هدوء.

ومن مظاهر حدة العواطف الخوف من الأمور الصغيرة، والفزع الشديد من الحوادث التي قد تكون تافهة، والغضب الشديد للكلمة النابية، والوصول إلى أقصى حد في الانفعال للحوادث اليومية، التي يكفي لمرورها غض الطرف عنها، إلى كثير من أمثال ذلك.

ومن مظاهرها عندنا الفنون، فالموسيقى لا تعجبنا إلا إذا كانت عالية جداً وزائطة جداً في السرور، ومائعة جداً وباكية جداً في الحزن؛ أما الهادئة المعتدلة في السرور والحزن فلا.

وكذلك الشأن في الأدب، لا بد من مبالغات قوية جداً واستعارات ومجازات ممعنة في الخيال حتى تعجب، فإذا كان يحب فلا بد أن يذوب، ولا بد أن يصيبه الهزال حتى لا يكاد يرى، ولا بد أن تسيل دموعه أنهاراً، ولا بد أن يبكي دماً، وقلبه لا بد أن ينفطر، وكبده لا بد أن تتصدع، وهكذا. فأما حب في اعتدال وأدب في اعتدال فلا. وإذا فرح فلا بد أن تضحك الشمس لضحكه، وتترنح الأغصان لترنحه، وتبتسم الأزهار لتبسمه وهكذا.

ويظهر ذلك أيضاً في النكت والنوادر؛ فهي لا تعجبه إلا إذا كانت ظاهرة مكشوفة تستخرج الضحك العالي لا التبسم الخفيف، وإذا كانت نكتة ناقدة فلا بد أن تكون لاذعة وأن تكون مميتة، فأما نكتة خفية مستورة تمس ولا تجرح أو تسر ولا تضحك فلا. وهذا هو الشأن في التمثيل؛ فالرواية الجيدة هي التي تهز العواطف هزاً عنيفاً؛ إن أضحكت فلا بد أن يمسك قلبه من كثرة ضحكه، وإن أحزنت فلا بد أن يبل منديله من كثرة دموعه؛ والإخراج لا بد أن يكون فيه صراخ كثير وانفعال قوي؛ فأما أن يتكلم الممثل كما يتكلم الناس في مجالسهم العادية، وأما أن يقتصد في حركاته وإشاراته ونحو ذلك، فكل هذا يخرجه عن أن يكون ممثلاً قديراً ومخرجاً نابغة.

فالذوق لتمشيه مع العاطفة لا يعجبه إلا ما فيه حدة، حتى المأكولات لا بد أن تكون دسمة أو حريفة أو زاعقة، والملبوسات لا بد أن تكون زاهية أو صارخة، والمشمومات لا بد أن تكون ذات رائحة نفاذة قوية وإلا لا يستسيغها الذوق.

هذه الحدة في العواطف، والمبالغة في الانفعال تتخذ في الأمة مظاهر واضحة، فجانب كبير من الجرائم سببه حدة العواطف، فكل يوم نرى في الجرائد أخباراً عن قتل أو كسر أو جراح لأسباب تافهة يعجب العقل الهادئ كيف وصلت إلى هذه النتائج؛ فقتل لنزاع على ماء للري، وضرب أفضى إلى الموت لكلمة صدرت اعتبرها السامع سباً فاضحاً، وهكذا مما نطالعه كل يوم، حتى في الطبقة المثقفة يثور الجدل بينهم ويبدأ هادئاً، ولكن سرعان ما يحتد المزاج وتعلو نغمة الجدال فتنقلب إلى سباب، ولا يقتصر الأمر على حجة ولا برهان أمام برهان، بل يتعداه إلى سباب أمام سباب ونقد لاذع أمام نقد لاذع، وتنسى المسائل الأصلية وتبقى الحزازات النفسية؛ هذا هو المظهر العام في الشارع، وفي البيت وفي المحاكم وفي الصحف، كأن كل الناس يحمل مستودعاً من البنزين ينتظر أقل اشتباك أو احتكاك.

ومما يؤسف له أن هذه الحدة في العواطف، والحرارة في الانفعال تظهر في كل الأشياء التي ذكرنا وتكون فيها أكثر مما ينبغي، مع أنها تبرد أمام أشياء أخرى وتكون أقل مما ينبغي؛

فلا نرى حرارة في الانفعال أمام جمال الطبيعة ولا جمال المعاني ولا حسن النظام، ولا نرى غيرة شديدة على الحرية الفردية ولا الحرية الاجتماعية؛ وهذا الذي يغضب غضباً شديداً لكلمة جرحت إحساسه ولا يغضب لمنظر أوذيت فيه العدالة، وهذا الذي ينفعل انفعالاً شديداً على شيء من ماله لا ينفعل للتعدي على سمعة قومه أو حرية قومه، وهذا الذي يذوب حباً ويفنى عشقاً فيمن يحب لا يتحرك قلبه لجمال طبيعة أو جمال مبدأ سام؛ فأوتار أعصابه لا تنفعل هذا الانفعال العنيف إلا للنواحي الشخصية والأشياء المادية، ولو أنها انفعلت لهذا وذاك لاحتُمل ذاك القبح في سبيل هذا الجمال.

حدة العواطف وشدة الانفعال في الأمة تسبب لها متاعب كثيرة في الحياة، وتُفقدها سعادتها، فالبيت جحيم من غضب الآباء والأبناء، فكلمة صغيرة من أب لابنه أو ابن لأبيه أو من أم لبنتها أو من بنت لأمها تشعل النار في البيت وتجعله جحيماً زمنا طويلاً، والعلاقات بين الأصدقاء عرضة للخطر لتوافه الأمور، والعلاقات بين العاملين في مصلحة أو جمعية معرضة للفساد ولأقل حادث، والعلاقات بين الأحزاب علاقة عداء حاد غالباً، والمحاكم مكدسة بالقضايا من أثر النزاع الحاد، وهكذا، حتى بين الذين لا علاقة بينهم، كالناس في السينما وفي الترام وفي القطار، لا يخلو مجتمعهم من أحداث كثيرة بسبب الانفعال السريع، ولو تعودنا ضبط العواطف في كثير من الأحوال لمرت الحوادث بسلام. ولكن هل هذا العيب قابل للإصلاح، وهل هذه الانفعالات قابلة للانضباط؟

قد يرى قوم أنها حركات نفسية اضطرارية كنبض القلب وإفراز المعدة، وأنها نتيجة طبيعية لحرارة الجو وطبيعة الإقليم، ولكني لست أرى هذا الرأي، وأنها حركات نفسية إرادية يمكن إصلاحها وتهذيبها والتغلب عليها، بدليل أننا نعيش جميعاً في بيئة واحدة خاضعة لدرجة واحدة من الحرارة، ومع ذلك فينا من يضبط عواطفه ويحكم انفعالاته، ولو كان الأمر خاضعاً لفعل الطبيعة وحدها لم يشذ عن الخضوع لها أحد، وكما يقول الفلاسفة «ما بالطبع لا يتخلف»، والمثقفون - في جملتهم - أضبط لعواطفهم من غير المثقفين في جملتهم.

ونحن لو نظرنا إلى سلَّم الرقي من الحيوان إلى أرقى نوع من الإنسان وجدنا أن الحيوان تسيّره غرائزه وانفعالاته الوقتية فقط، وكذلك الشأن في الإنسان البدائي، فإذا ارتقى وجدنا عاملاً جديداً يظهر في تسيير تصرفاته وهو الفكر والعقل، ونراه محكوماً بهما معاً، وكلما رقي الإنسان كان الفكر أظهر في تصرفه، ووجدنا الحدود الفاصلة بين العواطف والفكر تتكسر، فعواطفه تلطفها الفكرة وتهدئها الحكمة، وعقله تحمسه العاطفة ويزيد حرارته الشعور

والانفعالات، ووجدنا العلاقة بين عواطفه وفكره علاقة متينة؛ ذلك لأنه عاش بعواطفه وانفعالاته فقط لم يكن هناك تفاهم بينه وبين غيره إلا من شعر مثل شعوره، لأن أساس التفاهم هو العقل؛ فمن قال إني أحب هذا الشيء أو أكرهه ولم يزد على ذلك لم يكن هناك سبيل إلى مناقشته وإقناعه بخطئه، ولأن الخضوع للعواطف وحدها عرضة للاندفاع السريع ثم التراجع السريع، كما نشاهد في الحب الذي لم يؤسس على التفكير، وعلى النظر في العواقب، فهو انفعال مؤقت كثيراً ما يعقبه فشل أليم، وعلى العكس من ذلك العواطف بعد التفكير، والاندفاع بعد العلم والتأمل، ولو تتبعت أكثر الناس الذين يسيرون وراء عواطفهم فقط لوجدت عاقبتهم الفشل دائماً، فمن يغضب لأقل سبب ويحب لأول نظرة، ويندفع لداعي الغريزة لم يستطع السير في الحياة طويلاً، ولا بد للنجاح من عواطف يحكمها الفكر، وأفكار تحمسها العواطف.

يتطلب ضبط العواطف كظم الغيظ عند دواعي الغضب، والاعتدال في الانفعال عند بواعث السرور والحزن، والتؤدة والتفكير عند إصدار الحكم، والتفكير عند نزوات الهوى، فلا إفراط في السرور والحزن ولا الغضب، ولا نحو ذلك من أنواع الانفعال.

وهو فضيلة في الأمم كما هو فضيلة في الأفراد، فقد تكون حدة العواطف في الأمة سبباً في شقائها؛ فكثيراً ما تعرض للأمة أزمات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية فيمكنها أن تجتازها بضبط عواطفها، وتلطيف انفعالاتها، والحكمة في تصرفاتها، ووزن عواقبها، على حين أنها تعرض نفسها للخطر إذا انقادت لعواطفها من غير تفكير.

ضبط العواطف في الفرد يكتسب بالمران والتعود، فلا يزال المرء يغضب فيكظم ثم يغضب فيكظم حتى يكون حليماً، ولا يزال يقاوم نفسه فلا يندفع في سروره وحزنه حتى يكون حكيماً، وكثيراً ما تكون حدة العواطف نتيجة قصر النظر وضيق العقل، فإذا هو وسع أفقه وجرب الحياة ودرس الأشياء ونتائجها علم كيف يضبط نفسه.

أما تربية هذا الخلق في الأمة، فهو - أولاً - في يد الرأي العام، فإذا احتقر الناس الغضوب لغضبه، والجبان لخوفه، والمرح لاستهتاره، والحزين لجزعه، تصلب عود الأمة وانضبطت عواطفها واعتدلت في انفعالاتها.

وهو - ثانياً - في يد قادتها، فالأمة تحتاج في طور تكوّنها إلى مُثُل عليا من قادتهم يقتدون بها، فإذا رأتهم قد ضبطوا عواطفهم إذا اختلفوا، وحفظوا ألسنتهم إذا غضبوا، وضحُّوا بشهواتهم إذا أُزموا، كانت كل هذه دروساً للشعب يحتذي حذوهم ويسير على

منهجهم، ثم قادة الفنون في الأمة يجب أن يتخلوا عن هذه الميوعة في العواطف، فالغناء يجب ألا يكون كله ذوباناً في العشق وهياماً في الغرام، والأدب لا بد أن يكون مما يبعث القوة في النفس، ويسبب الصحة في العاطفة، والتمثيل يجب أن يكون معتدلاً في العاطفة طبيعياً في الإخراج، ويعلم الناس أن ليست أحسن الروايات ما أسالت الدموع، ولا بعثت على القهقهة العالية، إنما أحسنها ما أثار عاطفة صحيحة لا مريضة، وبعث على التبسم اللطيف أو الحزن الهادئ.

هذه كلها تصبح دروساً يتعلم منها الشعب فيعتدل مزاجه، وتصح عواطفه، ويحسن تصرفه.

* * *

كنوز في بيت جائع

كنت أعتقد - كما علمونا في المدارس - أن قيمة مصر في واديها الضيق الواقع بين جبلين، وأن هذا الوادي المزروع نفحة من نفحات النيل، فيه كل ما في مصر من خير، وأنها بلاد زراعية فحسب، غناها في زراعتها ولا شيء غير ذلك؛ وكانوا يلقنوننا أن «ما عدا الوادي براري وصحارى قليلة النبات والسكان»، فإذا زادوا شيئاً قالوا: «وفيها بعض المعادن كالرخام والنطرون والشب والملح والجير».

هكذا كانوا يعلموننا أيام التلمذة، فخرجنا من ذلك على أن مصر خط طويل منزرع، أودع فيه كل ثروتها وإنتاجها، وحوله صحراء جرداء «فيها كثير من الأرانب والغزلان وبعض الحيوانات المتوحشة»؛ ووقع من ذلك في نفوسنا أن هذه الصحراء ليس فيها من خير إلا أنها تلفحنا بسمومها وزمهريرها، وتحمينا بجدبها وفقرها وقلة مائها من إغارة عدونا علينا؛ وأحياناً تجود شمسها في الشتاء، ويجود قمرها في الصيف، فيخرج إليها الهواة يستمتعون بدفئها ونسيمها، والغزلون والشعراء يستلهمونها في غزلهم وشعرهم.

حتى أتيحت لي قراءات خاطفة ورحلات متعاقبة، أيقنت معها أن الصحراء كنوز متفرقة وثروة ضخمة، لا تقل شأناً عن النيل ومزارعه، والخصب ونتاجه، وأنها كفيلة أن تحول مصر إلى بلد صناعي كما حولها النيل إلى بلد زراعي، فتكون بلداً زراعياً وصناعياً معاً، وينعم أهلها بالخصب الزراعي وبالنتاج الصناعي، ويتدفق المال عن أيمانهم وعن شمائلهم فإذا هم أغنياء ناعمون، وليس ينقصهم للوصول إلى ذلك إلا شيء اسمه العلم، وشيء اسمه الخلُق.

أدرك هذه الثروة في بلادنا الأجانب قبل أن ندركها، وعلموا من قيمتها ما لم نعلم، فجابوا الصحراء، وتسلقوا الجبال، وهبطوا الوديان، ودرسوا وامتحنوا واختبروا واكتشفوا، ورسموا الخرائط، ووضعوا الخطط للاستغلال، وألفوا الشركات؛ وما لم تواتهم الظروف لاستغلاله كتموه سراً دفيناً في نفوسهم حتى يجيء زمنه وتنضج ثمرته ويحين قطفه، وأبناء البلد لاهون غافلون، يتجرع أكثرهم الفقر ويتلوى من الجوع، ولا يرون في الصحراء إلا تراباً متجمعاً أو صخراً متجمداً، والأجنبي يراها كتاباً مقروءاً وكنزاً مفتوحاً.

طف - إن شئت - بالصحراء تر الشركات على اختلاف أجناسها: هذه تستخرج زيوتاً، وهذه تستخرج معادن لا حصر لها، وما كل ذلك إلا قليل من كثير تضمه الصحراء بين جوانحها سراً مكتوماً، تبوح به لمن أوتي «عزائم الكنوز»، وهي العلم والخُلق.

أما العلم فأعني به طائفة تتخصص في معرفة المعادن والتعدين معرفة واسعة عميقة تصل فيها إلى ما وصل إليه علماء الغرب، من معرفة بطبائع الأرض وطبائع طبقاتها وطبائع معادنها وكيفية استخراجها وكيفية استغلالها، وما إلى ذلك.

وأما الخلق فمطلبه أعسر، إذ أعني به حرصاً شديداً على مصالح الأمة، ورغبة قوية في العمل، وإرادة جبارة في التنفيذ، وتعاوناً وثيقاً بين الجهات المختصة وأرباب الأموال، وإهدار الحزبية للصالح العام، والشجاعة في التجارب أمام احتمال الفشل، وما إلى ذلك.

ألم تبلغك مأساة كهربة خزان أسوان وما جر تأجيلها من كوارث وما أضاع على البلاد من فوائد كانت تجنيها منها وبخاصة أيام هذه الحرب؟ لقد أضاعها تخلخل الإرادة، وضعف الإيمان، ودسائس الحزبية، والرغبة القوية في الجدل دون العمل.

* * *

كل الناس في مصر يرغبون في استثمار أموالهم من طريق ملكية الأراضي وزراعتها، وكل الأمل معقود باستصلاح الأراضي «البور» واستغلالها؛ خُلُق موروث من القرون الأولى، وقفوا عنده وتمسكوا به ولم يتزحزحوا عنه؛ وكان ذلك طبيعياً لو لم يكن لهم موارد غير الأرض، وحتى هذا الاستغلال الزراعي لم يؤمنوا بمنهج له إلا مناهج قدماء المصريين في نوع زراعتهم وآلاتها وتصريفها؛ وفاتهم أن العلم في العصر الحديث تفنن في الوسائل الزراعية وأبدع فيها، كما فاتهم أن العلم قد اكتشف في مصر كنوزاً لا عدّ لها يمكن أن تستغل بخير مما تستغل به الأراضي الزراعية، وأن رءوس الأموال يوم تودع فيها تُربح ما لا يُربح القطن والغلال، ولكن عيبها أنها تحتاج إلى علم أوفى وخلق أرجح وإقدام أقوى وإرادة أنفذ وتعاون أوثق.

وليس الاستغلال الصناعي يعود على الأمة بالخير من ناحيتها المادية فحسب، بل من ناحيتها الخلقية والاجتماعية أيضاً، فالأمة الصناعية أرقى - عادة - من الأمم الزراعية في عقلها وخلقها وإدراكها لحقوقها الاجتماعية وواجباتها القومية؛ فإذا أضفنا إلى طبقتنا الزراعية

طبقة أخرى صناعية، كان لنا من ذلك طبقة أخرى جديدة أشد نشاطاً وأصلح حياة وأرقى إدراكاً، تكوّن مع الطبقة الزراعية مزاجاً منسجماً، ومزيجاً متجانساً.

* * *

دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع رحلة في الصحراء مع صفوة من الأصدقاء في عطلة هذا العيد، فاخترقناها من أسيوط إلى الواحات الخارجة فالداخلة؛ وعهدي بالواحة الخارجة قديم، فقد عينت فيها أول ما عينت قاضياً، وجبت بلادها، وزرت أكواخها، وعاشرت أهلها؛ وقضيت بين خصومها؛ فلما زرتها هذه المرة بعد أكثر من عشرين عاماً، حننت إليها حنيني إلى الشباب، ووقفت على دورها القديمة، وقلت هنا كنت أسكن، وهنا كنت أقضي، ورأيت أكثر من عرفت قد اخترمتهم المنية، وعدا عليهم الزمن. ورأيت مظاهرها الخارجية قد حسنت وأصبحت تعجب الناظرين، فقد تحولت من مركز يديره معاون إدارة إلى محافظة يسكنها محافظ؛ فشوارعها قد اتسعت، ومدخلها نسق بالأشجار، وهذا نادٍ للموظفين، وهذه استراحات للحكومة؛ ومع هذا فالشعب بائس كما تركته، فقير كما تركته، مريض كما تركته، وموارده النخيل كما تركتها، والأرض الخفيفة القليلة كعهدي بها، والحيوانات الهزيلة كما خلفتها.

ورحلنا إلى الواحات الداخلة. فوجدنا منجماً جديداً يكتشف، وكنوزاً وافرة يهتدى إليها.

وكانت هناك منذ القدم مياه على بعد قريب من الأرض يُعثر عليها، فإذا مدت الأنابيب إليها خرج ماؤها يسيح على وجه الأرض يستقون منه، ويزرعون به أرضهم القليلة الضعيفة، ثم تقل المياه، وتطمر عين وتفتح عين، والماء محدود، والعيون يؤثر بعضها في بعض، تتأثر العليا منها بالسفلى.

فمن عهد قريب أرادوا تجربة النزول بالأنابيب إلى عمق أبعد، واختراق طبقة أسفل، فما إن دقوا أنابيبهم ووصلوا إلى ثمانمائة قدم حتى تدفقت المياه على سطح الأرض في غزارة عجيبة؛ وإذا بالعين الواحدة تقذف خمسة عشر ألف طن في اليوم من غير آلات رافعة، ومن غير أي عناء، ثم تجرب التجربة نفسها في أربعة مواضع فتخرج عيون أربع كالتي وصفنا، ويدل البحث على أن هناك مساحات فسيحة في أعماق الأرض تدخر هذه المياه في وفرة عظيمة وغزارة عجيبة. فماذا كان؟

هل حللت هذه المياه لمعرفة عناصرها، وما تحتويه من موارد وما لا تحويه؟ وما هو نوع

الزرع الذي يناسبها والذي لا يناسبها؟ هل اختبرت المياه وعرف ما تفيد من الأمراض وما لا تفيد؟ هل رسمت خطة منظمة للانتفاع بهذه المياه الدافقة؟ هل تعاونت وزارة الزراعة ووزارة الاشغال ووزارة الصحة في استغلال هذه المياه؟ فالأولى تنظم الزراعة، وتشير بطرقها وما يصلح لها، والثانية تنظم الري، وتستخرج كمية المياه المطلوبة، والثالثة تنتفع بها من الوجهة الصحية، وتمنع ما ينجم من ركودها من أضرار؟ لا شيء من ذلك كله، وكأن العيون قد نبعت في المريخ، وقد رأيت المستنقعات حولها تتكون، والأيدي العاملة لا تتناسب وغزارتها، وكأن العيون عز عليها سوء استقبالها، فتسربت إلى الرمال لتعود إلى أعماقها في خجل وخزي، وسمعت بعض أولي الأمر هناك يشيرون بسدها إلى أن يستيقظ النائم، ويجدّ الخامل.

رحماك الله! لو نبعت مثل هذه العيون في أمة يقظة، لحولت ما حولها جناناً ناضرة، وبساتين مزهرة، وحدائق غُلبا، وفاكهة وأبًّا، ولأزالت البؤس وأجرت النعيم، ولأفنت العطالة، والتهمت البطالة، ولرأيت المستشفيات تبنى حولها، والمشاتي تقام في نواحيها، والمواصلات تمد إليها! ولرأيت ثَم نعيماً ومُلكاً كبيراً، ولكن واأسفاه! عز العقل المدبر، وضعفت الهمة النافذة، فلننتظر حتى يأتي إليها من غير أهلها من يعرف كيف يستغلها. ويالله للشعب البائس! ويا لله ممن بيدهم تصريف الأمور! أليست هذه كنوزاً في يد مساكين!

* * *

يوسف الكيمياوي

العهد عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون، الجالس على عرش مصر والشام، والمستبد الذي ترتجف منه قلوب الولاة والأمراء، والقوي بجيشه ومؤامراته، فتخطب وده الدول المجاورة، والقابض بيده على زمام الأمور كلها، فترفع إليه كل يوم التقارير عن العمال والولاة، والحركات والتدابير، والدخل والخرج، فلا يفوته منها شيء.

والسنة سنة 731 هجرية وقد أصبح المال معبود هذا السلطان، لأنه محتاج إليه في أبهته وعظمته، وبذخه وترفه، وجواسيسه وأتباعه، وزوجاته الكثيرات، وجواريه العديدات، وبيوته الكثيرة، ونفقاته الضخمة وعماراته، وشروره وخيراته؛ فإن لم يحصل على المال حلالاً فليحصل عليه حراماً، وليتعرف أحوال رجاله ومقدار ثروتهم ومخبأ كنوزهم، وليتلمس لهم العثرات بالحق وبالباطل حتى يستبيح مصادرتهم واستحواذ أملاكهم، ووضع يده على ثرواتهم.

وهؤلاء الأمراء على دين ملوكهم يفعلون بالشعب ما يفعله السلطان الناصر بهم، فيغتنون من الفقراء، ويسرقون من البؤساء، ويجمعون ما يصل إلى أيديهم؛ ثم يصادر السلطان ما تعبوا في جمعه، وتحيلوا في الاستيلاء عليه، جزاءً وفاقاً.

هذا «سَلّار» يتولى نيابة السلطنة إحدى عشرة سنة، ثم يموت، فيتعب الحسَّاب في إحصاء

---

(1) هذا تعبير عامي طريف ليس أدق منه في التعبير عن هذا المعنى في مثل هذا الموقف لأن معناه «هرب في نصب واحتيال» وأصله ـ كما يروون ـ أن سلطاناً سمع بمهارة نصاب محتال، فاستدعاه وقال له: إني أجزل لك العطاء إذا أمكنك أن تنصب عليّ، فقال له: أعطني ألفاً أشتري بها «عدّة النصب» فأعطاه وأمر من يلازمه حتى لا يهرب، ثم حضر بعد مدة بعدته وأدواته، ونصب السلطان سرادقاً دعا إليه من يشاهد نصب النصاب. وكان مما أحضره النصاب بكرة خيط كبيرة. فتقدم إلى السلطان وقال له: أمسك هذا الطرف وأنا اشمع الفتلة لألعب لعبتي، فأمسك السلطان طرفها، وأخذ النصاب يشمع الفتلة ويتراجع رويداً رويداً حتى اختفى عن الأنظار، وبحثوا عنه فلم يجدوه، وبذلك تمت لعبته، ومن هنا اخترعوا هذا التعبير (شمع الفتلة).

تركته، هذه صناديق مصفحة مملوءة بفصوص الياقوت والماس وعين الهر. وهذه صناديق تظهر في اليوم الأول فيها مائتا ألف دينار وأربعمائة ألف درهم، وهذه ضياع لا حصر لها، وهذه الخيول والجمال والمراكب والعبيد والجواري والأغنام والأبقار مما لا يحصيه عد، وكل يوم تظهر له مخابئ جديدة فيها كنوز جديدة، من أين أتى بهذا كله؟ من الشعب، من الظلم.

ويأتي السلطان فيسمع بثروته فيجري لها لعابه، ويقبض عليه ويسجنه ويجيعه حتى يأكل نعاله، ثم يموت جائعاً فيستولي السلطان على ثروته، وتنتهي الرواية؛ وهذه صور تتكرر كل يوم، ورواية تمثل في كل إقليم.

المال - المال - كلمة سحرية تصدر عنها الأعمال، وتتكيف بها السياسة، ويحلم بها كل وال وأمير وسلطان.

في هذا الجو يظهر «يوسف النصراني الشامي»، الفقير المسكين، فيضع خطته المحكمة في هدوء. إن الناس يعبدون المال فليستعبدهم هو بشبح المال، يظهره ويخفيه، ويطمعهم ويؤيسهم، ويلعب بعقولهم لعب المال بهم، إن لمعان الذهب يخلب لبهم فالعب بلمعانه، وإن أملهم في الغنى يفسد منطقهم وحكمتهم فالعب بأملهم.

ولكن قد تقف نصرانيتك حائلاً بينك وبينهم، فيرتابون في أمرك ولا يطمئنون إليك اطمئنانهم إلى أهل دينهم، فالعب بدينك لعبك بالذهب، وتظاهر بالإسلام وبالصلاح وبالتقوى، فالغاية تبرر الوسيلة.

تنقَّلَ في بلاد الشام متفرساً في أمرائها، باحثاً عن فريسة يصيدها، حتى وصل إلى «صَفَد» وأميرها يومئذ الأمير «بهادر» فوجده الغنيمة.

قال: إني أرى السعد في طلعتك، والغنى مكتوباً على جبينك؛ وقد جئت إليك لأملأ خزائنك ذهباً وفضة، وقد أنفقت عمري في طلب الإكسير حتى وجدته. إن الفِلِزّات واحدة في نوعها، والاختلاف الذي بينها ليس في ماهيتها وإنما في أعراضها، وكل شيئين تحت نوع واحد اختلفا بعرض فإنه يمكن انتقال كل واحد منهما إلى الآخر، فالذهب والفضة والحديد والرصاص متحدة النوع مختلفة العرض، فلو أخذنا حديداً أو رصاصاً ونقصنا بعض عناصره وزدنا بعض عناصره تكوّن من ذلك الذهب لا محالة؛ وقد وصلت إلى الإكسير الذي يفعل

ذلك بعد عناء، فإني أطبخ الرصاص أو النحاس بطريقة خاصة أرشدني إليها العلم والتجارب الطويلة، ثم أضيف إليه من هذا الإكسير الذي يمتاز به الذهب عن النحاس أو الرصاص، فإذا الذائب ذهب، وما يوجد بالطبيعة يوجد مثله بالصناعة، فالطبيعة تخرج الذهب من العناصر الأخرى بحرارتها ومزجها، وهذا هو ما أعمل بصناعتي [من البسيط]:

وقــد ظــفــرتُ بــمــا لــم يُــؤْتَــهُ مَــلِــكٌ
لا الــمُــنْــذِران ولا كِــسْــرى بــن ســاســانِ
ولا ابــنُ هــنــدٍ ولا الــنــعْــمــانُ صــاحِــبــه
ولا ابــن ذي يَــزن فــي رأس غــمْــدانِ

وستكون إن شاء الله بهذا أغنى الأغنياء وأعظم العظماء، تقتني من المال ما أردت، وتسود على الأنام بما شئت وكيف شئت.

ومع هذا كله فإن لم تقتنع بالمنطق فاقتنع بالتجربة. فأتى له «بهادر» بقليل من الرصاص، وأفرد له غرفة يجري عليها تجاربه، فأشعل النار وطبخ ثم أشعل وطبخ، وأخرج حُقاً فيه إكسير وأضافه، فإذا المزيج ذهب.

جُن جنون الأمير «بهادر» وتمنى الأماني وسبح في الأحلام، وجمع ليوسف الكيمياوي كثيراً من النحاس والرصاص، وأعطاه كثيراً من الأموال لينفق منها على إحالة هذه المعادن ذهباً خالصاً؛ ولكنه تعلل مرة بفساد الإكسير ومرة بخطأ التجارب، وأخيراً غافل صاحبه وفر إلى دمشق، وأراد أن يمثل مع واليها الرواية التي مثلها أمام «بهادر»، ولكن ساء حظه فعلم بأمره فأراد قتله.

وهنا أدته حيلته أن يملأ دمشق ضوضاء وجلبة، وأنه يريد السلطان حتى يملأ خزائنه ذهباً وفضة، وتحدث الناس به بين مصدق ومكذب، ولم يجرؤ نائب دمشق على قتله بعد أن ذكر اسم السلطان ورسالته إليه، وانتقل خبره من دمشق إلى مصر، وإذا بالبريد يأتي من السلطان إلى دمشق في طلب يوسف الكيمياوي.

دخل يوسف إلى مصر في السابع عشر من رمضان، فأنزله السلطان في بيتِ أمير، وأجرى عليه الرزق الوفير، ورتب له عدة من الخدم يتولون أمره حتى يختبر صدقه، فطلب يوسف أنواعاً من الآلات ورسمها وبالغ في تركيبها وتعقيدها، فصنعت له، وحدد يوم للتجربة، فاحتفل به السلطان وشكل مجلساً فخماً لامتحانه؛ هذا ناظر الجيش، وهؤلاء عدة

من الأمراء، وهذا نقيب الصاغة ومعه جمع من الصياغ. وأوقدت النار وأحضرت الآلات، وطلب يوسف نحاساً وقصديراً وفضة، فوضعها في بوتقة ووضعها على نار حامية حتى ذاب الجميع، فأخرج من جرابه إكسيراً وضعه على الخليط المذاب، وصبر عليه برهة ثم أنزل البوتقة من على النار، فأفرغوا ما فيها فإذا سبيكة من ذهب كأجود ما يكون، زنتها ألف مثقال، وامتحنها شيوخ الصاغة، فأفتوا بأنها ذهب خالص لا شبهة فيه.

سر السلطان بذلك سروراً عظيماً ودهش الحاضرون؛ وأنعم السلطان عليه بهذه الألف من الذهب، وبالغ في إكرامه وأركبه فرساً سلطانياً مسرجاً ملجماً بحرير، ومَنَّى نفسه أن هذا الكيمياوي سيجعل له كل حديد مصر ونحاسها وقصديرها ذهباً.

وما هي إلا ساعة حتى انتشر الخبر في المدينة أن قد ظهر رجل عجيب يحيل كل شيء ذهباً بإذن الله، فما هو إلا أن تقدم له قطعة من حديد، أو إناء من نحاس، أو كتلة من رصاص حتى يعزِّم عليها ويجعلها ذهباً خالصاً. وها قد قتل الفقر وذهب البؤس، وسيسيل الذهب في مصر سيلاً ويتدفق أنهاراً، وسوف لا يكون بعد اليوم فقير ولا مسكين. وكان أحرص الناس - أول الأمر - على أن يغتنوا الحاشية، فقد قدموا المال الكثير ليوسف وقدموا النحاس والحديد الكثير ليقلبه لهم ذهباً، وهو يلعب بهم ويستخف عقولهم ويضحك على هذا بجزء من الذهب مما سلبه من ذاك، وهكذا.

وأراد السلطان أن يستوثق من الأمر مرة أخرى، فأجرى يوسف أمامه التجربة ثانية فأخرج له سبيكة ذهبية كالأخرى كاد يطير بها فرحاً.

وتدفق على يوسف المال من كل جانب، وعاش عيشة البذخ والترف، وأفرط في اللهو، ومرت عليه أيام سرور ومتعة لا ينعم بمثلها إلا القليل.

والسلطان يستحضره بالليل ويناجيه، ويعرض عليه المشروعات الضخمة التي ينوي القيام بها من وراء الذهب المصنوع، ويوسف يسايره ويحبك له خياله.

والناس يأتون إلى يوسف يعرضون عليه الأموال والحديد والقصدير، وهو يعدهم ويمنِّيهم. وأخيراً قابل السلطان وقال له: إن الإكسير قد فرغ.

السلطان - إذاً فاصنع غيره.

يوسف - إنه مركب من نبات وأعشاب لا تنبت في مصر، وإنما تنبت في الكرك.

- سمها لي وصفها أبعث بالبريد من يحضرها.

- إنها سر أخذت على الله عهداً ألا أذيعه، وإذا أذعته فسد الأمر عليّ وعليك؛ إذ يستطيع كل إنسان بعدُ أن يحصل على الإكسير فيحصل على الذهب، وهو أمر حرصت أن يكون لك وحدك، وسر اخترت أن أخصك به، فأنت ولي الأمر، وهو في يدك مصلحة، وفي يد غيرك مفسدة.

- فما العمل؟.

- تأذن لي أن أسافر إلى الكرك وأستحضر منه قدراً كبيراً صالحاً لتنفيذ مشروعاتك الضخمة.

أذن له السلطان إذ لم ير بدّا من ذلك، وأركبه البريد وأوصى به خيراً حيثما حل، وأمر الولاة أن يمدوه بالمال الذي يريد.

ها هو ذا يوسف يتنقل من بلد إلى بلد، والكرم يتدفق عليه، إذ هو ضيف السلطان ونجيه ومأمله، حتى إذا وصل إلى غزة وأقام بها أياماً، غافل من معه وشمَّعَ الفَتْلة[1] واختفى، ثم يبحثون عنه ويبحثون، فلا يقفون له على أثر.

وتتبخر الآمال وتنهار القصور التي شيدت في الخيال.

وفي يوم من أيام ذي الحجة من هذا العام يعثر عليه مختفياً في إخميم؛ وإذا كل أعماله نصب واحتيال، وإذا الناس كبيرهم وصغيرهم يستكشفون أنهم مغفلون، وإذا السلطان يحكم عليه أن يُسَمَّر ثم يشهَّر على جمل.

وإذا الستار يسدل.

* * *

(1) هذا تعبير عامي طريف ليس أدق منه في التعبير عن هذا المعنى في مثل هذا الموقف لأن معناه «هرب في نصب واحتيال»، وأصله أن سلطان سمع بمهارة نصّاب محتال، فاستدعاه وقال له: إني أجزل لك العطاء إذا أمكنك أن تنصب عليّ، فقال له: أعطني ألفًا أشتري بها عدة النصب، فأعطاه وأمر من يلازمه حتى لا يهرب، ثم حضر بعد مدة بعدته وأدواته، ونصب السلطان سرادقاً دعا إليه من يشاهد نصب النصاب. وكان مما أحضره النصاب بكرة خيط كبيرة. فتقدم إلى السلطان وقال له: أمسكْ هذا الطرف وأنا أشمّع الفتلة لألعب لعبتي، فأمسك السلطان طرفها، وأخذ النصاب يشمع الفتلة ويتراجع رويدًا رويدًا حتى اختفى عن الأنظار، وبحثوا عنه فلم يجدوه، وبذلك تمت لعبته، ومن هنا اخترعوا هذا التعبير (شمّع الفتلة).

الحِلْف العربي

كتب إليّ صديق سوري يقول: «أليس عجيباً أن يقف رجال الفكر في العالم العربي موقفاً سلبياً، فيكتفوا بقراءة الأخبار والأحداث من غير أن يكوّنوا لأنفسهم رأياً في مستقبلهم؟ أو ليس من العجيب أن يقرأ العالم العربي أن إنجلترا تؤلف هيئة رسمية لبحث تنظيم العالم بعد الحرب، ويخطب الخطباء من الإنجليز والأمريكيين في مستقبل العالم بعد الصلح، ولا نسمع أن أولي الرأي في العالم العربي فكروا أو اجتمعوا لبحث موقفهم وما يؤول إليه مصيرهم، كأنهم عبيد تركوا تدبير شئونهم لسادتهم؟ أو ليس عجيباً حقاً أن تمتلئ أعمدة «الثقافة» بالكلام في اليابان وروسيا، والقانون الدولي، وما إلى ذلك؛ ثم لا يمتلئ عمود واحد فيها في موقف العرب، ومصير العرب، وآمال العرب، كأن الأمر لا يعنيكم، فكنتم في ذلك كالحاضنة بيض غيرها وهي تترك بيضها في العراء؟ ولست أظن أن السياسة تحول بينكم وبين ما تبدونه من آراء، لأن عرض هذه المسائل فيه مصلحة مزدوجة للأمم العربية، فتحدد مصيرها وتحرك أفكارها وتفتح آمالها، والأمم الصديقة فتعرِّفها ما يجول بخاطر العرب وما تتطلبه وما تأمله» إلى آخر ما قال.

وهو كتاب ممتع طويل أجتزئ منه بهذا القدر لأنه هو الذي يهمنا في موضوعنا اليوم. وكلام الصديق كلام حق، ولكني آسف أشد الأسف لأن الموضوع شاق عسير متشعب النواحي، يحتاج الكاتب فيه أن يدرسه دراسة واسعة عميقة، وأن يطيل التفكير في كل رأي يبديه. وقد علّمنا التعليم الجامعي ألا نكتب إلا بعد درس، ولا نخط كلمة إلا بعد تفكير. فإن قصدت - أيها الصديق - من كتابك أن أكتب في هذا الموضوع كتابة جدية مستوفاة؟ فإني أعتذر إليك، لأن الأسباب كلها لم تهيأ لي. أما إن أردت أن أقول بعض كلمات فطيرة لا يكون الغرض منها إلا توجيه النظر، وإثارة ذوي الرأي، وفتح الكلام في الموضوع، واستعراض بعض المسائل الهامة، فذلك في إمكاني.

في ذهني صورة لحلف عربي هي مجال للأخذ والرد؛ والتعديل والتبديل، وهي أن يتكون

الحلف العربي الآن من دول أربع: مصر والسودان وحدة، والشام وفلسطين ولبنان وشرق الأردن وحدة، والعراق وحدة، وبلاد العرب وحدة، وأن تكون كل وحدة مستقلة في شئونها الداخلية، وأن تربطها مع سائر الوحدات روابط ثقافية واقتصادية وسياسية؛ فأما الروابط الثقافية فأن تكون لكل وحدة جامعة تكون منارة للحركة العقلية، تتكون حسب ظروف كل وحدة وبيئتها ومقدار ثقافتها، وأن تعنى كل جامعة العناية الكبرى بتاريخ أمتها وطبيعة إقليمها وتراثها القديم بجانب الثقافة العامة المشتركة، وأن يكون لكل جامعة مجلسها وإدارتها، وبجانب ذلك يكون مجلس أعلى تمثل فيه كل الجامعات، وهو الذي يقرب بين نظمها ويوحد - بقدر الإمكان - اتجاهها، ولا يتدخل إلا في المسائل العامة التعليمية؛ وأن تتبادل هذه الجامعات المنتجات العلمية، فتتبادل المؤلفات والمجلات، وتتبادل الأساتذة، وتتبادل رحلات الطلبة والأساتذة، وتسهل وسائل التحاق الطلبة في كل إقليم بأي جامعة حسب شهرة أساتذتها ونبوغ كل في فرع من فروع التعليم.

ثم يكون هناك مؤتمر يتكون من عدد محدود من رجال التعليم في كل أمة، يجتمع كل سنة في الأقطار المختلفة على التعاقب، وفي هذا المؤتمر يتلو ممثلو كل أمة تقريراً عن حالة التعليم في أمتهم، ويعرضون المشاكل التعليمية التي اعترضتهم في عامهم، ويسمعون الآراء المختلفة في حلها، ويرسمون السياسة العامة للتعليم، والسياسة الخاصة لكل قطر حسب بيئته ودرجة ثقافته ومطالبه الاجتماعية.

وأما الروابط الاقتصادية فتنظيم الجمارك بين هذه الدول على أساس أفضليتها على غيرها من الدول الأخرى، وتنظيم كل أمة حسب طبيعة إقليمها وشهرتها الصناعية وما إلى ذلك، على أساس التعاون المشترك كما يرسمه الإخصائيون الاقتصاديون.

وأما الروابط السياسية فهي أصعب الروابط وأعقدها، وهي نوعان: روابط بين هذه الوحدات الأربع، وروابط بينها وبين الأمة الأوربية الحليفة.

فأما الروابط بين هذه الوحدات الأربع فإني أتصورها كعصبة أمم عربية، يوضع لها نظام خاص تتقي فيه العيوب التي تكشفت في عصبة الأمم الغربية؛ فقد كان أهم عيوبها تسخيرها لمصلحة أمة أو أمتين، وعدم اشتراك أمريكا فيها، وعدم القوة الكافية التي تسندها حتى تستطيع أن تنفذ قراراتها، ونحو ذلك؛ فلنتق هذه العيوب في عصبة الأمم العربية، وليكن أساسها ما قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ [الحُجرَات: الآية 9] .

وهذا يتطلب أن يكون للعصبة قوة مشتركة أقوى من قوة كل أمة منفردة، وأن يكون لها جيش مشترك، وأن يكون ممثلو العصبة من أحكم رجال الوحدات وأعقلهم وأصلبهم وأحبهم للخير، وأن يكون نظرهم أوسع من أن ينظروا إلى أمتهم وحدها، ومصلحتها الخاصة وحدها.

ثم هذه العصبة لا تتدخل في المسائل الداخلية البحتة، فلكل أمة حريتها في داخليتها، لا يحدها من ذلك إلا النظر في المصالح المشتركة.

وإذا نجحت هذه العصبة العربية كانت نواة في المستقبل لعصبة أمم شرقية، تضم تركيا وإيران وأفغانستان، وتونس والجزائر ومراكش.

وتكون عصبة على هذا النحو أنفع للعالم وللإنسانية. فهي تخلق من الشرق قوة تعمل في خدمة العالم، وإلا فما مصلحته في أجزاء صغيرة مفرقة لا تتعاون ولا تتسامى؟ ليس في مصلحة أي جسم أن يكون بعض أعضائه مشلولاً؛ والنظر القصير فقط هو الذي يُؤثر ضعف جزء منه ليستغله في مصلحة الجزء الآخر. يجب أن يكون كل عضو صحيحاً، وكل عضو قوياً، وكل عضو منتجاً ومستهلكاً؛ وهذا ما لا بد أن يسود العالم اليوم أو غداً.

في كل وحدة من هذا العالم العربي قوة كامنة وصلاحية للعمل والنهوض، وفي كل منها مزايا كأفراد الأسرة الصالحة، ولا ينقصها إلا أن تستكشف مزاياها ويفسح الطريق لها، فيعمل كل حسب ملكاته واستعداده ومزاياه، ويكمل نقص الآخرين، ويستكمل نقصه من مزايا الآخرين.

أما علاقة هذه العصبة أو هذه الوحدات بالأمة الأوربية الحليفة فقد عُقدت معاهدات بين أكثر الأمم الشرقية وبين الدول الحليفة؛ فما الذي يمنع من النظر في هذه المعاهدات من جديد على ضوء الظروف الحاضرة، والدروس الماضية، والآمال المستقبلة، فتعقد معاهدة سمحة مع كل وحدة من هذه الوحدات تضمن فيها مصالح الطرفين، وفيما عدا ذلك تكون كل وحدة حرة طليقة؛ ثم يتكون الحلف العربي الجديد وعصبة الأمم العربية، وتكون العصبة مطلقة التصرف، لا يقيدها إلا المصلحة العامة والمعاهدات التي تعهدت بها كل أمة؛ وبذلك يفسح الطريق للنهوض الشرقي واستعادته قوته ليخدم بها العالم مع العاملين؟

. هذه هي الصورة الصغيرة التي في ذهني، ليست وافية ولا كاملة؛ وكل خط من خطوطها يحتاج إلى وقفة طويلة وتفصيل واف؛ أعرضها ليتولاها من هو أقدر مني بالنقد والبحث والتفصيل.

* * *

بجوار شجرة الورد

أخذت قلمي وورقي، وجلست بجوار شجرة الورد في حديقتي الصغيرة المتواضعة، أستمليها ما أكتب، فأوحت إليَّ بهذه الخطرات.

هذه شجرة الورد تمتد وتشرئب وتتفرع وترتشف - في نهم - ما تقدمه لها الشمس من ضوء وحرارة، وتشرب كأس الحياة إلى الثمالة.

فليت الناس يعملون عملها، فيفتحوا قلوبهم للضوء والحرارة، ويمدوا فروعهم ما استطاعوا ليمتصوا غذاءهم، وينموا قواهم وملكاتهم، ويشربوا كأس الحياة مترعة.

* * *

وهذه شجرة الورد تمد جذورها، وتفرز ما يعرض لها، فتختار ما يصلحها وينفعها، وتتقي ما يضرها ويسمها.

فليت الناس يسيرون سيرها، ويعلمون أن حولهم غذاءً صالحاً يجب أن ينالوا منه ما وسعهم، وأن حولهم سموماً يجب أن يتجنبوها ما أمكنهم، وأن أمامهم كئوساً مختلفة الألوان، مختلفة الطعوم، مختلفة الصلاحية، بعضها شراب صالح وقد يكون مراً، وبعضها شراب سام وقد يكون حلواً. غذاء شجرة الورد سهل يسير، فما عليها إلا أن تحول ما حولها إلى عناصر أولية، فتمتص ما ناسبها وترفض ما خالف طبعها. ولكن غذاء الإنسان في عواطفه وميوله وغرائزه ومشاعره مركب معقد، حتى قد يكون الغذاء داءً ودواءً معاً؛ هذا الطموح الحالم يبعث على الجد، وهذا التواضع النبيل يدعو إلى الخمول.

* * *

ها أنتِ قد تقيدت بطينتك، ونزلت على حكم ترتبك: فلا تستطيعين الخلاص منها والخروج عنها، جيدة كانت أو رديئة، صالحة أو فاسدة؛ فوطنت نفسك على الرضا بما كان والانتفاع بالكائن حسب الإمكان؛ ولم تمنعك ذلك أن تثوري على ما قُدِّر لك، وتحاولي التخلص منه والتحايل عليه، فخرجت من ظلام الأرض إلى نور السماء، ومن مقبرة الباطن

إلى مسرح الظاهر، ومن سكون الجذور إلى لعب الغصون، ومن عبوس المنبت إلى ضحك الثمرة - وهكذا كان أخوك الإنسان؛ خضع للقدر كما تخضعين، وثار كما تثورين، فاجتمع له جبر البيئة واختيار الإرادة، وعمل على أن يخرج من الظلمات إلى النور، وخلق من الطين، وتطلع إلى السماء. وبلغ من تطوره أن كاد يكون ملكاً كريماً أو شيطاناً رجيماً، وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له.

* * *

يعجبني منك أنك دُفنت فسكنت، وتكونت في الخفاء، ولم تجزعي من الظلام، ولم تظهري إلا بعد أن تم نضجك، واكتمل وجودك، واستطعت أن تغالبي الأحداث، وتقفي أمام العواصف - فليت أخاك الإنسان يعمل عملك فيدفن نفسه حتى تكتمل قواه، ولا يظهر إلا بعد أن تنضج ملكاته، ويحسن استعداده، ويقوى على مصارعة الزمان ومغالبة الصعاب؛ فمن ظهر قبل أن يتم نضجه لم يرج خيره، والقيمة الحقة ولو قليلة، خير من الشهرة الزائفة ولو واسعة.

* * *

أعجب ما فيك صبرك وعملك المتواصل حتى تأتي بالمعجزة، ومعجزتك أنك رسمت خطتك في صمت وسكون، وما زلت تكدين وتجدين، وتختفين ثم تظهرين، وإذا بك قد استخرجت من الحمأ المسنون والطين اللازب ألواناً زاهية تستخرج العجب، ورائحة عطرة تنعش النفس، وجمالاً فتاناً يأخذ باللب، فما أبعد مرماك! وما أقدرك على تحويل القبح إلى جمال، والظلمة إلى نور، وكراهة الرائحة إلى عطر! فمن استطاع من الناس أن يأتي بمثل ما أتيت به فيفيض على الناس جمالاً ونوراً وشذى، كان - ولا شك - عظيماً أي عظيم.

* * *

يحدثني علماء النبات عنك أن أخطر الأوقات عليك وعلى أمثالك يوم يجري الماء في جذعك وعيدانك، فإذا صادفك إذ ذاك جو شاذ من سموم أو صقيع كنت أشد تعرضاً للهلاك. كذلك عصر الشباب أشد العصور على الإنسان خطراً، إذ يجري فيه ماء الحياة فيشعر بحرارة الشوق، وحرارة العواطف؛ وتتعرض حياته يومذاك إلى أشد الأخطار، ويستولي عليه نوع من القلق خوفاً من أن تتثلج عواطفه أو تقوده إلى المهالك.

* * *

هذه أنت زهرة وشوك كلاكما من بذرة واحدة تسقى بماء واحد، ثم يجري الماء في

الجذوع والأغصان، فيكون مرة زهرة وادعة ضاحكة، وتارة شوكة حادة قاسية عابسة؛ فعلمتِنا أن الجمال محفوف دائماً بالأشواك، وأن الخير دائماً ممزوج بالشر، والذي أنزل الكتاب فيه هدى ورحمة أنزل الحديد فيه بأس شديد، ولا بد أن يقلّم شوكك ليكثر زهرك. هكذا نفس الإنسان، زهرة جميلة محاطة بالأشواك، ويجب أن تقلم أشواكها ليتفتح زهرها، فإذا أهملت وتكاثر شوكها كانت كلها شوكاً لا زهر فيه. ما أكثر نفوس الناس التي يجدّ الإنسان في الهرب منها حتى لا يتعلق بأشواكها، أولئك كل مظاهرهم ومخبرهم شوك لا خير فيه، وشر لا نفع فيه. إن كل نفس تحيط بها أشواك من رغبات وشهوات وميول وإرادات وأعمال. وما التهذيب والتربية والديانات ونظم الحكومات الصالحة إلا عمليات تتحد في الغرض، وهو تقليم هذه الأشواك لتتفتح الزهرة جميلة نقية، تشع الخير والنسرور والرحمة على من حولها؛ وبعض النفوس لم تقلم أو ساءت تربتها، أو ساء محيطها، فكثر شوكها، وقل أو انعدم زهرها؛ وبعض النفوس قلمت وصلحت تربتها فأنبتت الزهرة الجميلة يعجب لونها، وينفتح عطرها، فهي جذابة لمن رآها أو سمعها أو قرب منها، وهي بلسم لجراحات الزمان، وطعنات السنان.

* * *

ها أنت يمر عليك دور تتكونين فيه لنفسك، وتبحثين عن غذائك لنفسك، وتمدين جذورك لنفسك، وتتفرعين فروعاً لنفسك، وعلى الجملة تعيشين لنفسك؛ فإذا أزهرت فقد وصلت إلى الغاية، فتجاهلت نفسك لنفع غيرك، ووزعت خيرك وجمالك على من حولك، فملأت محيطك بعبيرك، وأشععت جمالك على كل من له عين تنظر وقلب ينبض؛ وهكذا أخوك الإنسان يبدأ حياته لنفسه، ولا تشغله من الحياة إلا نفسه، فهو أناني مستأثر، وقد يقع حياته كلها في هذا الدور، فيكون مثلكِ إذا شوَّكتِ[1] ولم تزهري؛ أما إن هو قطع دور أنانيته وتوجه قلبه لخير الناس وحب الناس، وأخذ يفكر ويعمل لنفع الناس أولاً ونفسه ثانياً، فقد بدأ يزهر، وقد يصل به الخير أن يرى سعادته في سعادة الناس، أو أن يدخل السرور على الله بإدخال السرور على الناس، فتكون وردته قد بلغت الغاية في نفح الطيب وإشعاع الجمال.

* * *

غمرتني الشمس وغمرتُها، ورأيت من الذوق أن أتركها تنعم بحرارتها وضوئها فاستأذنتُ فأذنَتْ. ورجوتها أن تسمح بنشر الحديث، فسمحت، غير أنها أومأت إليّ أن عندها أحاديث

(1) شوكت الشجرة: أخرجت شوكها.

أخرى لا تسمح بها لكل الناس. وأن معانيها تنوء بالألفاظ مهما سلست ورقت، وإنما تنتقل باللاسلكي من زهرتها المتفتحة إلى القلوب المنفتحة.

* * *

النظام الاجتماعي في تركيا

ترجم أخي الأستاذ «محمد بدران» مقالاً عن تركيا الجديدة من الوجهة السياسية، وأشار إشارة خفيفة إلى حركتها الاجتماعية، فأحببت أن أعرض لهذه الناحية بشيء من التفصيل، على أن أقف منها موقف العارض، لا المقرظ ولا الناقد.

إن احتكاك الشرق بالغرب فتح أعين العالم الإسلامي وجعله يتطلع إلى حياة خير من حياته، وعملت على ذلك عوامل كثيرة، أهمها معرفة الشرق بأحوال الغرب، وكانت مجهولة لديه كل الجهل، وتدفق كثير من أبناء الشرق إلى أوربا يتعلمون فيها ويدرسون أحوالها ونظمها السياسية، ويعودون إلى بلادهم يبثون فيها ما شاهدوا وما تعلموا؛ فلما قامت الحرب العظمى اكتووا بنارها، وتسمعوا بشغف إلى أخبارها؛ وسمعوا الدعايات المختلفة، وكونوا رأيهم فيها. وجاءت تعاليم «ولسن» فزادت في آمالهم، وتشوقوا إلى معرفة مصيرهم، حتى إذا سكتت المدافع وتكلم القادة في الصلح، أرهفوا أسماعهم ليسمعوا ما تقوله أوربا فيهم، ولم يكفهم ذلك، بل ذهب كثير من أولي الرأي إلى باريس يتجادلون ويطالبون ويحتجون، ولم تكن باريس عاصمة فرنسا فقط، بل أصبحت مركز عظماء القارات الأربع، وكنت تسمع في شوارعها لغات العالم عالية، وأشكاله المختلفة ظاهرة، ومن بينهم ممثلو العالم الإسلامي على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم، وتحولَ المسلمون بشكل ظاهر من مطالبة بجامعة إسلامية إلى مطالبة باستقلال قومي، تقليداً للنزعات الأوربية. وتمشياً مع روح العصر؛ وساعد على ذلك انفصال جزء كبير من العالم الإسلامي عن تركيا - بعد أن خسرت الحرب - كالشام وفلسطين وجزيرة العرب والعراق.

فلما تم الصلح أحس العالم الإسلامي بخيبة أمل، إذ لم يحقق مطالبهم، ولم يُنلهم حقوقهم، فوضعت فرنسا يدها على سوريا، وبريطانيا على فلسطين والعراق، فاضطربت النفوس وثارت الثورات.

وكانت حالة تركيا أسوأ الحالات، إذ فقدت أرضها، وفقدت استقلالها؛ فكان من حروبها للدفاع عن كيانها ما عرفت تفصيله.

فلما انتصر مصطفى كمال سياسياً وحربياً، وحفظ لتركيا استقلالها اتجه إلى الإصلاح الاجتماعي، فكان من أول ما فكر فيه إلغاء الخلافة، وكان الباعث على إلغائها أمور، منها: خوفه هو وحزبه من أن الخليفة وأسرته لا يرضون عن نظام الحكم الجديد، فيدبرون المكائد، ويدسون الدسائس، لإعادة سلطانهم القديم، لأن الخليفة في النظام الجديد فقد سلطته الدنيوية والروحية جميعاً، وأصبح مظهراً فقط، ولا عمل له إلا استقبال الزائرين، وصلاة الجمعة في ملأ من الناس، ومع هذا لم تطمئن أنقرة إلى هذا الوضع، وكان السلطان يسكن استانبول والحكومة الجديدة تقيم في أنقرة، وتعتقد أن الخلافة دائماً عش الدسائس الأجنبية، ومهما كان السلطان «عبد المجيد» مخلصاً وصادقاً ومحباً لرقي شعبه، فإنه قابل للانقلاب والتغير بنفسه أو بخلفه. واستحضر حزب «مصطفى كمال» في أذهانهم كل سيئات الخلفاء العثمانيين في العصور المتأخرة، وما جروه على البلاد من وبال.

ثم هذه الميزانية الضخمة التي تصرف على الخليفة وبيته من غير مبرر ومن غير عمل، والبلاد أحوج ما تكون في نهضتها إلى المال.

وأخيراً أنهم يريدون أن يكوّنوا دولة مدنية ينظمونها تنظيماً أوربياً، ويقفوا بين حكومات العالم موقف المساواة، والخلافة تقف عثرة في سبيل هذا التنظيم.

كل هذا جعل القابضين على زمام الأمور يفضلون إلغاء الخلافة ففعلوا. نعم كان للمسألة وجه آخر، وهو أن الخلافة كانت تربطهم بالعالم الإسلامي، وتمكنهم من حق الزعامة الروحية على الممالك الإسلامية، وهذه الناحية العاطفية لها قيمتها؛ ولكن لم تأبه تركيا لهذه الاعتبارات، ورأت أن العالم يسير نحو تكوين القوميات، فأولى أن تعنى أكبر عناية بأمنها وحدودها وقوميتها.

لهذا كله قرر الزعماء الوطنيين أن يصلوا إلى هذه النتيجة على خطوات كان آخر خطوة فيها إلغاء الخلافة، في مارس سنة 1924، وإخراج السلطان عبد المجيد وأسرته من تركيا.

كان في العالم الإسلامي نزعتان ظاهرتان، وإن شئت فقل ثلاث نزعات: نزعة محافظة ترى التمسك بالتراث الإسلامي من غير تغيير، ونزعة ترى الاحتفاظ بخير ما في التراث الإسلامي مما يتفق وروح العصر، ثم تطعّمه بالمبادئ الجديدة مما اخترعته المدنية الحديثة، ولكن في تريث وحذر، ونزعة ترى التجديد المطلق، واحتذاء المدنية الحديثة في أكثر ما يمكن، وبأسرع ما يمكن.

وربما صح أن يمثل النزعة الأولى الحجاز، والثانية مصر، والثالثة تركيا.

وقد أدى إلغاء الخلافة في تركيا، وإحلال الجمهورية محلها، إلى تغيير كبير في النظام القديم الذي يجعل الخلافة مصدر السلطات، من قضاء وجيش وتشريع؛ فلما زالت الخلافة اضطرهم ذلك إلى التغيير في الأسس.

لم يهملوا الدين جانباً كما يتصور البعض، ولكن - على وجه الإجمال - ضيقوا من دائرته. فأما التشريع العام ووضع نظم الحكومة وما إلى ذلك، فجعلوا أساسه ومنبعه المدنية الحديثة، وتحكيم العقل، والنظر إلى الشعب، فهم يدرسون المدنية الحديثة، ويقارنون في الشيء الواحد بين ما فعلته أمم أوربا المختلفة، ومن ناحية أخرى ينظرون إلى شعبهم وحالته الاجتماعية، وما يناسبه، وما لا يناسبه، ويختارون له بعقولهم من النظم الحديثة ما هو أليق بالشعب. وأما الدين فينظم العلاقة بين الإنسان وربه.

على هذا الأساس قامت كل إصلاحاتهم الاجتماعية؛ فمثلاً في سنة 1926 قدم وزير العدل مشروعاً بقانون للدولة مكون من 1800 مادة مقتبس في الأغلب من القانون السويسري، ووافق عليه البرلمان في 4 أكتوبر من هذه السنة، وهو في بعض مسائله ثائر على النظم المعول بها في الممالك الإسلامية جميعاً؛ فقد كان تعدد الزوجات - مثلاً - جائزاً، فجاء هذا القانون وحرمه بتاتاً، وكذلك الشأن في المهر، فقد ألغي في القانون الجديد، ولم يفرض على الزوج، وطلب من الزوجة أن تبذل جزءاً من مالها في تأثيث المنزل إن كان لها مال، وسلب الزوج الحق في الطلاق، وجعل للمحكمة وحدها حق الفصل لسبب من أسباب ستة محصورة؛ وأكثر من هذا خطورة أن المرأة التركية أصبح لها الحق بهذا القانون أن تتزوج من تشاء من أي دين كان؛ فللتركية المسلمة أن تتزوج نصرانياً أو يهودياً أو بوذياً.

وعدلت قواعد الميراث تعديلاً كبيراً، فسوت بين الذكر والأنثى، فللبنت كما للابن، وللأم كما للأب، وللزوجة كما للزوج، وألغت نظام الإرث بالتعصيب، والإرث بالقرابة البعيدة، في نظام طويل لا محل لتفصيله، وغيروا نظام الولاية والوصية على أساس الحرية.

ثم نظروا فرأوا جزءاً كبيراً من أموال الدولة قد شله الوقف، فمنعت إرادة الواقفين أن يتصرف فيه الجيل الحاضر حسبما يرى من صالح عام، وكانت الأحكام التي وضعت له مقيدة لحرية الدولة في الإصلاح، والأوقاف الأهلية مزرعة رديئة للاستغلال، ومفسدة للمستحقين بترك العمل المنتج اعتماداً عليها، ومفسدة لنظارة الأوقاف بانتهابها، ومفسدة لكل هؤلاء بخصوماتهم ومنازعاتهم، وقضاياهم التي لا نهاية لها؛ فهي - في نظرهم - سيئة من سيئات

الماضي، سواء من ناحيتها الاقتصادية أم الاجتماعية أم الأخلاقية.

لهذا عمدوا - بجرة قلم - إلى إلغائها وإلغاء وزارتها.

ثم إن الجمهورية التركية أعطت للمرأة التركية حريتها وأصغت إلى صوتها، وسمحت لها بأن توسع حركتها التي بدأت من سنة 1908، حين ظهر أول وجه سافر في الآستانة، فألفت نالدة هانم جمعية مؤلفة من نحو خمسمائة من الأعضاء المثقفات، وطالبن بضروب من الإصلاح: أهمها وضع حد لسن الزواج لا تتزوج من لم تبلغه، وإصلاح أوضاع الزواج، وتأسيس الطلاق على قاعدة المساواة بين الرجل والمرأة وتحريم تعدد الزوجات.

وتسابقت البنات إلى الجامعات، وزاحمن الأبناء في الحصول على الدرجات.

وخرجن إلى دور السينما وإلى المساجد، وألغين نظام الحريم، وحجز أمكنة خاصة لهن في الترام أو القطار، وطالبن بحقهن في الانتخابات وعضوية البرلمان، وصحب الشبان أخواتهم في القيام بهذه الحركات إلى غير ذلك.

ثم جدت تركيا في نشر التعليم بين أفراد الشعب ذكوراً وإناثاً. وكانت أسرع من مصر في تنفيذ قانون التعليم الإجباري، فقد استصدرته مصر سنة 1923، ثم عاق تنفيذه قلة المعلمين، وقلة المال، وقلة الهمة، إلى غير ذلك؛ ولكنه نفذ في تركيا بأسرع وأقوى واعترض نشر التعليم في تركيا صعوبة الحروف العربية والشكل، فوقفت بين اختراع ما يسهلها وبين السير مع الأوربيين في استخدام الحروف اللاتينية؛ ففضلت الطريقة الثانية متأثرة بإغراقها في حب المدنية الحديثة، وقلبت كل أدبها وصحافتها وتعليمها إلى الحروف اللاتينية، حتى القرآن نفسه كتبته بهذه الحروف، وقد ساعد هذا في سرعة نشر التعليم، ولكنه من جهة أخرى قطع صلتها - إلى حد ما - بأدبها القديم وتراثها القديم.

وأسست التربية عندها على أسس وطنية، ووضعت كتبها ونظمها على هذا الأساس، واعترضها في هذه السبيل ما رأت من مدارس أجنبية، فتخوفت من صبغتها التي تصبغ بها تلاميذها، ورأت أن كثيراً من مشاكلها السياسية القديمة كانت ترجع إلى هذه المدارس، وما تبثه من مبادئها التي تبعث الإعجاب بالدول الأوربية والاحتقار للأمم الشرقية؛ فوقفت تركيا إزاء هذه المدارس وقفة حازمة اضطرتها أن تُتَرّكها.

ودعتهم الحماسة الوطنية أن يسيروا بخطى واسعة نحو نشر الثقافة، والاطلاع على كل

عناصر التقدم الأوربي ليسيروا سيره، ويحتذوا حذوه، سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية أو الحربية.

ثم حافظوا على المظهر محافظتهم على الجوهر، فالجوهر الائتمام بأوربا، والاقتباس من نظمها وقوانينها، والتحرر من سلطة رجال الدين؛ والمظهر لبس القبعة وسفور المرأة، فحموا الجمهورية من كل عبث بنظامها ومن كل ما يهدد كيانها؛ كما فرضوا لبس القبعة فرضاً، وجعلوها قانوناً؛ وحرّموا لبس العمامة تحريماً، ولم يجيزوها إلا لمن له عمل رسمي ديني؛ ونهوا عن الحجاب، وعاقبوا عليه؛ وهكذا ربطوا المظهر بالجوهر، وتمسكوا بالشعائر التي تدل على المعنى.

وكان بعض الناس يعتقد أن حياة هذا النظام مرتبطة بحياة «مصطفى كمال» فإذا مات مات، لأنه نما من خارج الأمة لا من داخلها، ولا من أعماق نفوسها، فمات مصطفى كمال، وبقي النظام سائراً في طريقه، حتى قامت قيامة العالم بهذه الحرب الطاحنة، التي لا يعرف مداها وعقباها إلا علام الغيوب.

* * *

ضحية

حدثني صديق قال:

اعتدتُ يوم الجمعة في الشتاء أن أخرج من بيتي قبل طلوع الشمس إلى جبل المقطم، أنفض عن نفسي ضوضاء الاسبوع، وملل العمل الراتب، وسآمة الحديث المعاد، وأهرب من جو القاهرة المسمم، وأريح أعصابي من مطالب البيت وتكاليف المهنة، وأفر من الإنسان الموحش لأستأنس بالطبيعة الطاهرة، وأكرم نفسي بالعزلة عن الناس، وأهين جسمي بالحركة العنيفة، فقد خلق من طينة لا تصح إلا بالإهانة.

واعتدت أن أنوّع الطرق، وأخالف بين الجبال، فمرة أختار الجبال والوديان مما يلي حلوان، وأحياناً جبال المعادي ووديانها، وأحياناً العباسية وما إليها.

ففي ذات يوم اخترت العباسية وتغلغلت في جبالها ووهادها، أعلو أكمة وأهبط وادياً، وأتخذ مسيري صوب الأزهر، حتى حان الظهر، ونال مني التعب؛ فبحثت عن مكان أتفيأ ظلاله، وأنعم بنسيمه، وأطل منه على الدنيا الفانية وما فيها حتى وجدته.

واستمتعت بيوم دافئ جميل، وعزلة مريحة، فلم أصادف منذ خرجت من القاهرة إنساناً، وخلعت قبعتي وحططت مخلاتي وألقيت عصاي وجلست، وكان الجوع قد بلغ مني مبلغه، فأخذت أخرج ما حملت: هذه «زمزمية» ماء، وهذه شطائر بعضها باللحم وبعضها بالجبن وهذا عدد من الليمون الحلو لا بأس به، وهذه عُقَل صغيرة من القصب، وهذا كل ما معي، فصففتها أمامي وتغزلت فيها، وجرى لها لعابي، وأعددت نفسي لأكلة شهية بعد سير طويل.

فلم اشعر إلا وشبح يبدو من بعيد. لم أتبينه أول الأمر، ثم ظهر أنه إنسان، ثم ظهر أنه يقصدني، وأَخَذَتْ مظاهره وملامحه تبدو شيئاً فشيئاً.

جفّ اللعاب من فمي، ونسيت منظر الأكل لمنظره وحل الخوف محل لذة النهم، وذكرت قول القائل [من الطويل]:

عوى الذئب فَاسْتَأنَسْتُ بالذئب إذ عوى
وصَوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ[1]

ويلاه من الإنسان! هو كالموت لا بد منه، وكظلام الليل لا بد أن يلفك، ولا مهرب منه إلا إليه.

لكنه إنسان عجيب حقاً، ليس ككل الناس الذين رأيتهم؛ أبيض البشرة بياض الأجنبي، ويلبس جلباباً أزرق كلبس البلدي، ملامح وجهه وزرقة عينيه وشكل رأسه واصفرار شعره دلالة على أنه أوربي صميم، وطاقية رأسه المشبكة وحفاء قدمه المتيبسة دلالة على أنه مصري بائس فقير.

هذا لغز معقد! وقد كنت تركت عقلي الذي يحاول حل الألغاز في القاهرة، وأتيت هنا بشعوري وعواطفي، وروحانيتي الفطرية فلأسرع الآن في استرداد عقلي القاهري لأحاول به حل هذا الإشكال.

- سلام عليكم.

- عليكم السلام ورحمة الله. هل تتفضل وتأكل معي؟

- لا بأس.

وأخذ يلتهم الأكل بنهم أشد من نهمي، فأسفت لقلة زادي، ونزلت له عن أكثر ما معي.

واعتذر عن نهمه في أكله بأنه قضى يوماً كاملاً لم يذق فيه طعاماً.

- لماذا؟

- لأني لم أجد عملاً، ولم أجد مالاً.

- ماذا كنت تعمل قبل اليوم؟

- خادماً في قهوة بلدية، وما عملك أنت؟

- مدرس في مدرسة عالية.

- إذاً اتفقنا.

---

(1) البيت لأحيمر السعدي في الشعر والشعراء ص 791.

- كيف اتفقنا؟

- هي كلمة خرجت من فمي ولا معنى لها.

- ما بلدك؟

- خرجت اليوم من القاهرة لأستريح من عناء التفكير.

- هل أنت مصري؟

- أقمت في القاهرة زمناً طويلاً.

- وما وطنك الأصلي، ولم قدمت؟

ويبدأ يتكلم، ولكن أصابته حبسة:

- أنا. أنا. أنا أتيت اليوم من القاهرة وكفى.

وعلت وجهه الأبيض - المشرب بحمرة، في الأصل والمشرب بصفرة الآن من الجوع - حمرة الخجل، وظهر لي أنه يحمل جنبيه سراً دفيناً يجرح عزته؛ فحبست نفسي عن الاستقصاء، وكلمته في الجو والجبل والمسافة بيننا وبين القاهرة؛ وأتى موعد الرحيل فسلمت، وأخذتني الشفقة عليه فتركت له عنواني إذا احتاجني، ومشيت.

لم يفارقني التفكير في هذا المنظر الغريب، ولا هذا اللغز العجيب الذي لازمني من وقت أن وقع بصري عليه؛ وكل ما حدث بعدُ لم يكشف سراً ولم يلهمني حلاً، بل زاد اللغز تعقيداً؛ فهو يمسك الشطيرة كالأوروبي المثقف في ظرف ولباقة، ويأكلها أكل المصري البائس الفقير في نهم وشراهة، عقليته عقلية مثقف ومنظره منظر جاهل، وهو يتكلم كمصري، وإذا سألته: أمصري هو؟ عرَّض ولم يصرّح، وجمجم ولم يبن، واكتفى بأنه أتى من القاهرة. لو كان جاسوساً فَلِمَ يجوع ولم يخجل، ولو كان غير جاسوس وكان أوربيًّا فلم يجمجم؟

لعن الله الإنسان ومناظره؛ لقد أردت الهرب منه فلحقني، وأردت البعد عن مشاكله فوقعت فيها، وأردت الأنس بالطبيعة على طهارتها فأُصبت بالطبيعة مدنسة.

جال هذا وأكثر منه في نفسي حتى وصلت إلى بيتي، وشغلتني دنياي عن التفكير في هذا المخلوق العجيب. فأنا بين مطالب أسرة وتحضير درس وإلقائه وغير ذلك من الشئون.

* * *

وفيما أنا عصر يوم في بيتي، منصرف لبعض أمري، وإذا بالجرس يدق. فتحت الباب فإذا هو صاحبنا.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

وفرحت بمجيئه، ولكن لنفسي لا له، فقد خطر لي أني سأكشف السر الذي حيرني، وأقف على حقيقة نفسه وجلية أمره.

ولم آنف أن أجلسه على كرسي مُجنَّح في غرفة استقبالي، ولو كان حافياً وفي جلباب أزرق، وقد تعلمت من حديثه السابق ألا أجرحه بسؤاله المباشر عن موضع سره، فحدثته في كل شيء يخطر ببالي إلا ما يتصل به، وأمرت أثناء الحديث أن يهيأ له أكل شهي دسم، لا من جنس الشطائر الجافة التي التقمناها في الجبل، فأكل بنفس النهم الذي أعهده واستزدته حتى لم يبق عنده مكان للمزيد. وأهل بيتي وأولادي وخدمي يعجبون من هذا المنظر الغريب، ومن تفاهة ملبس الضيف وشدة عنايتي به، وبعد الفراغ من القهوة استأذن لينصرف فأذنت له ومنحته ما استطعت؛ وقبل أن ينصرف وضع يده في جيبه، وأخرج كراسة طلب مني أن أقرأها وأدبر علاجاً لما فيها.

ولا أكتمك أني فرحت بها فرح الطفل بفتح صندوق البخت، أو فرح الفتاة بهدية مغلقة أتت إليها ممن تحب؛ فأخذتها وتسللت إلى غرفة مكتبي، وأغلقتها عليَّ، وأضأت المصباح، وجعلت ألتهم ما فيها التهام صاحبنا للأكل، وما زلت بها حتى أتممتها، فأخذني منها كل العجب. فماذا هي؟

هي يوميات لهذا الشاب منظمة مرتبة، ذكر فيها أهم ما استرعى نظره في دقة وإحكام.

إنه شاب هولاندي، تخرج من جامعة هولاندية، وتخصص لدراسة اللغات الشرقية والدراسات الإسلامية، ورأت جامعته نبوغه وجِدّه، فمنحته مكافأة دراسية، وإجازة طويلة يقضيها في بلد عربي إسلامي، ليتقن العربية والإسلاميات، فلم يجد لذلك خيراً من القاهرة.

فحضر إليها، وسكن في حي مصري في المنشية، ولبس جبة وقفطاناً وعمامة ومركوباً أحمر، ليتسنى له في يسر حضور دروس الأزهر، وجدَّ في الدراسة، واختلف إلى المشايخ يحضر دروسهم ويتفهم كتبهم، وانتهز كل فرصة يتقن فيها الكلام العربي الفصيح واللغة العامية الدارجة، فجلس مع العامة، وتحدث إلى الناس، وإلى الباعة، وغشي الأسواق.

وفي كل شهر كان يكتب تقريراً مفصلاً بما حصَّله وما عمله وما أتقنه، والجامعة من جانبها تمده كل شهر بما ينفقه عن سعة.

ثم خطرت له فكرة نبيلة جميلة، هي أن يدرس الحالة الاجتماعية بمصر بجانب دراسته اللغوية والعلمية، فوضع لذلك برنامجه الدقيق، فغشي مجالس الذكر، وحضر الصلوات في المسجد، وشاهد أسواق البيع والشراء، وحضر الولائم والجنائز وما إلى ذلك.

وأخيراً رأى أن يشاهد مجالس اللهو، ولكن هذه كان لا بد له فيها من مرشد خبير؛ وكان من بدء دراسته قد عرف «كُتْبياً» يتاجر في الكتب القديمة، فيشتري منه الكتب بثمن رخيص، ويلتهمها قراءة ودرساً، فتوثقت الصلة بينهما، وكان هذا الكتبي داعراً عربيداً، عليماً بأماكن اللهو خبيراً بمجالس الحظ، فأفضى إليه بمكنونه، فهش له وبش. وقال له: على الخبير سقطت».

فما زال يتنقل به من ملهى إلى ملهى، حتى كان آخر المطاف «غرزة الحشيش» دخلها مع صاحبه الكتبي، وأداه حب استكشافه ألا يكتفي بمنظر الحشاشين و«جوزتهم» وطريقة تعاطيهم، بل أراد أن يجرب تجربتهم ويختبر فعل الحشيش في نفوسهم، فدخن معهم، وسمع لفكاهاتهم وتنادرهم، ولكنه شرق وسعل، ولم يجد في نفسه أثراً بالغاً كما كان يسمع عن الحشيش، فشكا ذلك لصاحبه، فقال له - في خبث ودهاء - إن ذلك لا يتم إلا بالتعود والتكرار. فاستمع لنصيحته وعاد وكرر، فرأى - كما يقول - أن أعصابه تخدرت، وتتابعت الصور على ذهنه، وغاب عن الزمان والمكان؛ وأحياناً كانت تتراءى له صور مرعبة مفزعة، كأن يرمَى من جبل، أو تتخلخل الأرض تحت قدميه؛ وأحياناً صور مفرحة منعشة سارة كأنه في جنة النعيم. وبعد أن أفاق أحس بشهوة شديدة للطعام، فأكل كل ما قدم إليه في شراهة، ونام نوماً حالماً لذيذاً.

ولزمته العادة، وخضع لحكم «الكيف»؛ فإذا هو حشاش لا يطيق صبراً عن الحشيش ولا يستطيع أن يعيش ليلة من غير أن يحشش.

قال. وقد شعرت بضعف حيويتي وسقوط نفسي، وميلي إلى الكسل والخمول، وفتور في قوى عقلي وسوء تقديري للأمور.

قال صاحبي: وإلى هنا انتهت يوميات صاحبنا. وبقي الفصل الأخير من الرواية لم أتبينه مما كتبه: كيف وصل إلى ما شاهدت من حالته، فتشوقت إلى أن أراه ليتم لي روايته.

فأتاني بعد أيام، فاستقبلته ونفسي مغمورة أسفاً وعطفاً وإشفاقاً، وسألته عما حدث له بعدُ.

فقال: لم أجد بعدُ لنفسي ميلاً إلىٰ قراءة أو درس، ولا إلى أي عمل، ولم أكتب لجامعتي حرفاً، وانقطعت أخباري عنها، فقطعت ما كانت تمدني به من مال؛ وضاقت بي السبل، ولم أجد مورداً أقتات منه، ولم يرشدني صاحبي الكتبي إلى أي عمل أعمله، ولم أعد أعبأ بنظافة ملبس ولا حسن مظهر. وتخاذلت قواي وفقدت كرامتي؛ فعرضت نفسي على من يستخدمني، وأخيراً لم أجد إلا عملاً في قهوة، وبعد مدة وجدتني لا أصلح حتى لهذا العمل؛ وخرجت هائماً على وجهي في الجبل يوم قابلتك!

ثم بكى، وما أشد وقع بكاء الرجال على نفسي!

فكرت طويلاً فيما أستطيع أن أعمله لإنقاذ إنسانية ضالة معذبة، وزهرة كانت يانعة فذبلت وجفت وسقطت.

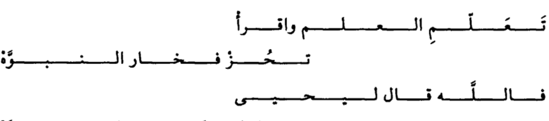
فهداني التفكير إلى أن أذهب به إلى من يعنى بأمر الهولنديين، وكان يستطيع أن يهتدي بنفسه إلى ذلك لولا أنه سلب قدرة التفكير وقوة الإرادة؛ فشرحت لهم حاله، وتفاهمت معهم أن يسفروه إلى بلده فرحبوا بالفكرة ونفذوها. ثم انقطعت عني أخباره، ولم أدر - بعدُ - من أمره شيئاً.

* * *

أول مجلة مصرية

كانت ساعات ممتعة تلك التي قضيتها وأمامي ثمانية مجلدات من أول مجلة عربية علمية أدبية مصرية(1)، أتصفحها وأقرأ بعض مقالاتها، وأقارن بين أعدادها. فمنذ إحدى وسبعين سنة، في عهد الخديو إسماعيل كان علي باشا مبارك «مدير ديوان عموم المدارس»، وهذا كان اللقب الذي حل محله فيما بعد ناظر المدارس فناظر المعارف فوزير المعارف.

وكان رفاعة بك الطهطاوي «ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس»، وقبل ذلك بسنوات كانت قد نشطت حركة المدارس والمكاتب وفتحها، وأقبلها عليها المتعلمون، فرأى القائمون بالأمر أن تصدر إدارة المدارس «مجلة» تشد أزر هذه الحركة، وتعمل على نشر التعليم؛ فأنشأوا مجلة أسموها «روضة المدارس المصرية» وقد صدر أول عدد منها يوم السبت 15 محرم سنة 1287 هجرية، الموافقة سنة 1870 ميلادية؛ واختاروا لها رمزاً جملة كتب عليها داوة غمست فيها ريشة تستملي منها، وحولها قوسان من غصون الشجر؛ وطبع تحت الاسم هذان البيتان في كل عدد:


تَعَلَّمِ العلم واقرأْ
تَحُزْ فخار النبوَّةْ
فالله قال ليحيى
خذ الكتاب بقوَّةْ

وتحتهما أنها «تحت نظارة رفاعة بك»، أي كما نعبر نحن اليوم «مدير المجلة»؛ وأن «مباشر تحريرها» علي فهمي بك بن رفاعة بك، أي أنه رئيس تحريرها؛ وكان علي فهمي هذا مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن، وجعلوها تظهر كل أسبوعين، وكانت تخرج في 16 صفحة من حجم الكتاب المتوسط - وجعلوا اشتراكها 6 77 قرشاً، ولعلهم اختاروا هذا الرقم لأنه يساوي «البنتو» وهي عملة مشهورة كانت في ذلك العصر، ولم يسموا هذا

(1) ظهر قبلها مجلات خاصة كاليعسوب في الطب.

«اشتراكاً» كما نسميه نحن، بل قالوا «ثمن ترتيبها» كذا، وطبعوها بمطبعة «جرنال وادي النيل»، بباب الشعرية.

وافتتحوها بمقال يبين الغرض منها، فقالوا: «إن جل مرغوب ديوان المدارس المصرية، اعتماداً على مساعدة العناية الخديوية، تعميم العلوم وتتميم المعارف، وانتشار الفنون وإكثار اللطائف، ومداولتها بين جميع أبناء الوطن، وتسويتهم في الورود على مستعذب هذا المشْرَع الحسن... بحيث تكون فيها الفوائد متنوعة؛ والمسائل المتأصلة والمتفرغة، أقرب تناولاً للمطلع المستفيد، وأسهل مأخذاً لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد، بقلم سهل العبارة، واضح الإشارة، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب، ومعان رجيحة تنخرط في سلط مستحسن الأساليب».

وقد ذكرت أنها لا تتعرض للسياسة ولا للإدارة، وأنه مما سيعينها على أداء غرضها ما أنشئ من دار الكتب بجانبها «تقتطف الأزاهر من مكامنها، وتلتقط الجواهر من معادنها» - وأن سعادة مدير المدارس (وهو علي باشا مبارك) «جعلها ملحوظة بنظر نظارته، لا يندرج فيها شيء إلا بإشارته، ومنحها الرئاسة التشريفية والإدارة العملية».

ثم قدر القائمون عليها أن ستكون لها أبواب مختلفة، فجعلوا على كل باب مشرفاً يحرر فيه ويراقب ما يأتي منه.

فعلي باشا مبارك عليه وصف البحار العمومية، وذكر متعلقاتها وأحوالها الكلية والجزئية.

وعلي عبد اللّه بك فكري العلوم العربية والفنون الأدبية، وذكر أساليب العرب في النظم والنثر.

ومسيو «بروكش» ناظر مدرسة اللسان المصري القديم، عليه مسائل التاريخ القديم والحديث.

وإسماعيل بك الفلكي الفلكيات.

ومحمد أفندي قدري (وهو الذي صار بعدُ محمد باشا قدري مؤلف كتب الفقه المشهورة) عليه الجغرافية والأخلاق والعوائد والمعاملات والاعتقادات.

ومحمد أفندي بدر علم الأبدان.

ومحمد أفندي ندا النبات.

والشيخ عثمان مُدُوخ (وكان سوري الأصل)؛ عليه غرائب النوادر والفكاهات والمضحكات والألغاز.

وعلي فهمي رفاعة رئيس التحرير عليه الكلام في تخطيط مصر القاهرة ومقارنة جديدها بقديمها.

وعلى خوجات المدارس جميعها المشاركة في تحرير باب العلوم الرياضية.

وخرج العدد الأول كنموذج، ففيه مقال لعلي باشا مبارك في إنشاء دار الكتب الخديوية، فخبر عن إيفاد بعثة من عشرة من نجباء التلامذة إلى إيطاليا «لتعلم الإدارة الملكية» وذكر أسماءهم، ثم فائدة جليلة عن سكان أقسام الدنيا، فقصيدتان في تهنئة الخديوي إسماعيل بالعام الجديد، إحداهما لصالح مجدي بك، والأخرى للتلميذ اللبيب أحمد أفندي نظمي، ثم ملحتان إحداهما في السريرة الحسنة والسريرة السيئة، والأخرى في صاحب هرة. وبذلك انتهى العدد.

وصدرت تباعاً تجري فيها أقلام الكتاب والعلماء من مصريين، وأجانب تترجم مقالاتهم إلى اللغة العربية.

وفي العدد الثالث تنبهوا إلى ضرورة فهرس في أول العدد يبين المقالات وأصحابها، وابتكروا طريقة نشر كتب تنشر بالمجلة تباعاً، فيلحق بها ملزمة أو أكثر من كتاب أو أكثر، وكان من المساهمين في تحريرها بعض علماء الأزهر كالشيخ حسونة النواوي، والشيخ سليم القلعاوي، والشيخ حسين المرصفي؛ ومشهورو الأدباء كصالح بك مجدي وعبد الله بك فكري وبعض التلاميذ. وتنشر فيها الخطب التي تقال في حفلات الامتحانات العمومية، وتقارير إصلاح التعليم، ومقالات خوجات المدارس في العلوم الرياضية والطبيعية والكيمياوية الخ.

ومن العدد الثالث زادت صفحاتها إلى 20 ثم 22 ثم 24.

وحدث في العام الثاني من حياة المجلة أن قررت وزارة المعارف إعطاء دروس للثقافة العامة تلقى من مشهوري العلماء في دار العلوم، يحضرها كل من أراد، وكانت دار العلوم إذ ذاك في درب الجماميز.

فالشيخ حسين المرصفي يلقي محاضرتين كل أسبوع في علوم الأدب، وإسماعيل بك الفلكي في علم الفلك، ومسيو ويدال فن السكك الحديدية باللغة الفرنسية، وفرانس بك فن الأبنية، ومسيو بروكش للتاريخ العام، الخ.

فكان هذا المشروع الجليل مادة صالحة جليلة لتغذية المجلة، فكان ينشر فيها خلاصة بعض هذه الدروس.

وفي السنة الرابعة من المجلة يخرج العدد السابع في 15 ربيع الثاني سنة 1290 لا يحمل اسم رفاعة بك، إذ كان قد توفاه الله، فنشرت المجلة ما رثته به الوقائع المصرية، ويكتفي بذكر «مباشر التحرير» علي فهمي رفاعة، ثم يتحول النص إلى أنها «تحت إدارة ناظر الروضة ومطبوعات المعارف علي بك فهمي نجل رفاعة بك» وتضعف بعض الشيء في عهد الابن، إذ لم يكن له من الشخصية العلمية ما للأب، فيقل ما يرد من الأقلام المشهورة، ولكن تستمر وتستمر إلى السنة الثامنة، فيخرج العدد السادس عشر في آخر شعبان سنة 1294 وليس فيه إلا خطب افتتاحية وختامية قيلت في المدارس والمكاتب الأهلية، ولما بلغت من الضعف إلى هذا الحد أسلمت روحها لخالقها.

قد كانت هذه المجلدات الثمانية معرضاً جميلاً يمثل للناظر كيف كانت الأقلام تجري في هذا العصر، وبأي أسلوب تكتب، وبأي عقلية تفكر، وإلى أي حد بلغ مجهود القوم ونشاطهم العلمي والأدبي، وما الموضوعات التي كانوا يحبونها ويتذوقونها، وكيف كان عقلاء مصر أمثال علي مبارك وعبد الله فكري وصالح مجدي ومحمد قدري وأمثالهم، حركة دائبة لا تعرف الكلل في تنظيم المدارس والمكاتب وتغذيتها بالكتب تؤلف وتترجم، وبالحفلات تقام وبالمجدين النابغين يشجعون ويكافَئون، وبالمحاضرات العامة تلقى على الجمهور، وبهذه المجلة يسجل النشاط ويبعث الشوق.

وهي في ناحية أخرى صورة لحالة النظم والنثر في ذلك العصر يبعث من مرقده، فيتعلم السير ويتعثر بالسجع وبالاستعارة المتكلفة، ثم يحاول أن يتحرر من قيوده، فيقطع في ذلك شوطاً لا بأس به.

والقوم يواجهون المصطلحات العلمية في العلوم على اختلافها، ويكلفون ترجمة الكتب الأجنبية والمحاضرات التي يلقيها الأساتذة الأوربيون، فيجدّون في وضع الكلمات العربية التي تقابلها، أو يستعملون الكلمات الأجنبية مصوغة صوغاً يستسيغه اللسان العربي.

ثم هي تقوم بنشر ما يهم المدارس من الأخبار، فتنشر أسماء النابغين. وتنشر التقارير الواردة عن طلبة البعثة. فتنشر أن «عثمان غالب» مثلاً من تلاميذ مونبليه «أخذ في أول السنة الأخيرة درجة المسرورية». ومحمد علوي «تحصل في أول امتحان آخر السنة على درجة مسرورية جيدة زائدة وهو نبيه».

وتنشر أسماء من تفوقوا واستحقوا مكافآت ونوعها. وتقتبس من تقارير التعليم والمكتبات في الممالك الأجنبية. الخ.

ثم نرى ألفاظاً كثيرة في طور التكوّن. كما رأينا في «درجة المسرورية». و«ثمن ترتيبها» بدل «قيمة اشتراكها»، ومثل ذلك في مصطلحات العلوم. وبعض هذه الألفاظ أقر وبعضها عدل.

ونرى المجلة تكثر فيها الألغاز حسب ذوق العصر. حتى يضج المشرف على المجلة منها. ويطلب من الكتاب الإقلال من إرسالها.

ونرى فن «المقالة» لم يتكون بعد. وإنما هي محاولات في كتابة المقال.

ونرى الجمهور لم يعرف الكتب القديمة. ولم يطلع على ما فيها. فيستغله بعض العلماء، وينقلون من هذه الكتب بعض فصول وقصائد يدَّعونها لأنفسهم، ويمضونها بإمضائهم.

وعلى الجملة فهذا وأكثر منه موضع لدراسات قيمة في نواح متعددة.

* * *

التضحية

لعل من أهم الفروق بين أمة راقية وأمة غير راقية، أن أفراد الأولى يشيع بينهم العمل لأنفسهم ولغيرهم، وأن أفراد الثانية لا يعملون إلا لأنفسهم.

ها هو الجو حولنا مشبع بالأنانية إلى أقصى حد، هذا موظف كل همه أن يرضي رؤساءه في الحدود الضيقة لينال «درجة»، ولا يهمه بعد ذلك قضيت مصالح الناس أو لم تقض. وهذا موظف آخر لم يمنح من المرتب ما يشتهي، فهو يضن بمقدرته وكفايته على الناس، وكل ما يعمل أن يؤدي الأعمال الآلية التي تنجيه من العقوبة ومن التبعية القانونية، فهو يحضر في الميعاد وينصرف في الميعاد، ثم لا روح في عمله، ولا شعور بواجبه. وهذا غني لا ينظر في تصرفاته إلا إلى شخصه مهما شقي الناس من حوله. وهذا مزارع من كبار المزارعين لا ينظر في مشروع القطن والقمح إلا بمقدار ما يحتمل أن يدخل جيوبه من مال، مهما جاعت الأمة وعدمت القوت. وهذا ثري ذو جاه يستعمل جاهه ونفوذه في الهرب من ضريبة واجبة عليه، أو يتحايل في تخفيضها إلى أقصى حد ممكن، فتكون النتيجة أن يدفع الضريبة كاملةً غير القادر، ويهرب منها أو ينقص منها القادر - وهذه هي الروح الشائعة التي نراها في البيت وفي الشارع وفي المصلحة، وفي البيع والشراء، والأخذ والعطاء: أنانية مسرفة، في حدود ضيقة، لا ينظر منها الإنسان إلا إلى نفسه، وإلى نفسه فقط، يدور في خلده أن ينهب من اللذائذ ما استطاع قبل فوات الوقت، ويهرب من الواجبات ما استطاع مع المحافظة على الشكل، حتى لا يقع في يد القانون. يردد قول أبي فراس: «إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القَطر»، ويهزأ ببيت أبي العلاء [من الوافر]:

فلا هَطَلَتْ عليّ ولا بأرضي ... سحائبُ ليس تَنْتَظِمُ البلادا[1]

ويقول البارودي [من البسيط]:

أدعو إلى الدار بالسُّقيا وبي ظمأ ... أحَقُّ بالرأيِ لكني أخو كَرَمِ

(1) البيت لأبي العلاء المعري في سقط الزند ص 198.

ليس مظهر التضحية مقصوراً على الجنود في مواقف القتال، فليس هذا إلا مثلاً عالياً من أمثلة التضحية، ولكن هناك أمثلتها العديدة في الحياة اليومية لكل فرد؛ فالذي يتنازل عن لذته الفردية الضيقة للمصلحة العامة الواسعة يكون مضحياً على قدر ما بذل؛ والموظف ينال شيئاً من العناء لراحة الجمهور مضح، والمدرس يبذل أقصى جهده في إعداد درسه وإيصاله إلى طلبته مضح، والغني يتنازل عن بعض لذائذه لخير الناس مضح، والمزارع يرعى حال فلاحيه مضح، وهكذا. وعلى قدر انتشار هذه الروح في الأمة يكون مقدار رقيها ونجاحها - ولا تفلح أمة يبحث أفرادها عن لذائذهم الشخصية فقط، مهما حسن تشريعها وصلح قادتها؛ فشرِّعْ ما شئت لتنظيم التموين فلن ينجح، ما دام كل فرد لا ينظر إلا إلى شخصه، وشرع ما شئت لتنظيم الضرائب فلن ينجح مع محاولة الأفراد الهرب منها، وشرع ما شئت لإصلاح الفلاحين فسيظلون كما هم، ما دام التشريع لا يلقى مجاوبة من نفوس القادرين.

* * *

لقد أضاع علماء النفس المحدثون جمال التضحية بما أفرطوا من تحليل، وما أرجعوا من أعمال نبيلة إلى غرائز وضيعة، وما وصلوا إليه من أن مظاهر إنكار الذات تعود في آخر الأمر إلى حب الذات؛ فقالوا - مثلاً - إن السياسي الكبير الذي يدل مظهره على أنه يؤدي واجبه، ويخدم أمته، ويتحمل أشق الأعباء في سبيل مجدها ورقيها ونهوضها، لو حللت البواعث التي دفعته إلى عمله وسلوكه هذه السبيل، لوجدتها ترجع في النهاية إلى غريزة حب الذات، وشعوره الكمين بأهمية ذاته وعظم شخصه. والواعظ الذي يعظ الناس ويذكرهم بالدين، ويخلص في سبيله، ويتحمل أشد العذاب في سبيل تحقيق دعوته وانتشار عقيدته إنما نصل في النهاية عند تحليل نفسه إلى حبه إظهار شخصه، وتمجيد ذاته، والتفات الناس إليه، واتجاههم نحوه. والزاهد الذي فر من الحياة ولذاتها، واعتكف في الأديار أو التكايا أو نحوها، وتجرد من الدنيا وشئونها، لم يكن في الحقيقة عند التأمل العميق في بواعثه إلا ناظراً لنفسه، هارباً من تبعات الحياة وتكاليفها. والطبيب الذي يعنى بمرضاه ولا يعنى بنفسه، ويتعرض للأخطار أيام الوباء إنقاذاً للناس، ولو كان في ذلك حتفه - قالوا - إنما يبحث وراء حسن سمعته وذيوع شهرته. والعالم الذي يقضي أوقاته في معمله أو في مكتبه باحثاً منقباً وراء حقيقة يكتشفها، أو نظرية يعثر عليها، أو اكتشاف يخدم به الإنسانية دواءً لمرض أو إمتاعاً للناس في ناحية من نواحي حياتهم، ليس - في نظرهم - إلا مجيباً لما ركب في طبيعته من حب الاستطلاع. والمصلح الذي يكدح ليله ونهاره في سبيل خدمة قومه وإصلاح عيوبهم،

ومعالجة ما أصيبوا به من مرض اجتماعي، ليس يرجع ذلك - في رأيهم - إلا إلى حب الظهور، وإشباع رغبته في إعظام نفسه، والدويّ حول شخصه. بل قالوا أكثر من ذلك وأعنف، قالوا: إن الممرضة التي تهب نفسها لخدمة المرضى، وتعمل جهدها في الرحمة بهم، وتلطيف عذابهم، وتضميد جراحهم، وتجد من نفسها السعادة في تفريج كربهم وتخفيف آلامهم، ليست في الحقيقة مدفوعة إلى ذلك إلا لداعي ما ركب في غريزتها من الاستطلاع الجنسي. قالوا: وإنما اختارت هذا الضرب من الإحسان لأنه محفوف بما يغذي نفسها من مظاهر الإعجاب والمدح والثناء، والظهور بمظهر من يفني ذاته في نفع الناس، ويضحي بخيره لخير الناس.

وهكذا رجعوا كل البواعث النبيلة، ومظاهر التضحية الجميلة للغرائز الوضيعة المتأصلة في النفس، وللبواعث الذاتية المتأصلة في الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض.

وقالوا: وما ذنبنا أن وجدنا الإنسان هكذا خلق، وعلى هذا طبع، وهو هو من بدايته إلى نهايته؟

ولكن أحقٌّ كل هذا؟ أيستطيعون أن يستمروا في تفسيرهم لكل أنواع التضحية من شخص لا يؤمن بدين، وهو - مع هذا - يرمي بنفسه في ميدان القتال دفاعاً عن أمته، وأُم تضحي براحتها ولذتها لابنها من غير أن تنتظر مثوبة أو جزاء، ونحو ذلك من أمثلة لا تعد؟

وهب ذلك كله صحيحاً، فهل ذهب جمال التضحية، وقيمة التضحية؟.

لتكن كل هذه الأعمال النبيلة ناشئة عن غرائز شخصية وبواعث ذاتية؛ فهذه الغرائز في الحقيقة والواقع قد تتجه إلى أعمال خسيسة فنكرهها ونشمئز منها، وهي هي قد تتجه إلى أعمال تنفع الناس فنعجب بها ونمجدها. إن حب الذات قد يدفع الشخص إلى أن يقتل استيلاءً على مال القتيل، وقد يدفعه إلى أن يقتل دفاعاً عن أمته أو دفاعاً عن عرض فتاة، ومحب الظهور قد يغذي غريزته بتضليل الناس، وخلق المؤامرات، وتدبير الدسائس حتى يعترف له بالمقدرة، وقد يغذي غريزته بالإحسان الكثير والإصلاح الكبير، والمرأة قد تدفعها غريزتها الجنسية إلى الاستهتار، وقد تدفعها الغريزة نفسها إلى التمريض، فالغريزة في كل هذه الحالات واحدة، ثم قد يصدر عنها الخير، وقد يصدر عنها الشر، فالعبرة بالنتائج لا بالتحليل إلى العناصر الأولية. وخطأ علماء النفس هؤلاء - إن كان ما يقولون صحيحاً - أنهم أفرطوا في التحليل، ولم ينظروا في التركيب، بالغوا في المقدمات وأعرضوا عن النتائج.

لتكن كل الأعمال ناتجة عن حب الذات. فلا تزال هناك أعمال نبيلة وأعمال خسيسة، ولا يزال هناك من الأعمال ما يصح أن يسمى «أَثَرة» وأنانية وما يصح أن يسمى إيثاراً وتضحية، وكل الفرق فرق في التعريف لا في المعرَّف، وفي العرض لا في الجوهر، فعلى قولهم تكون التضحية أن يجد المرء لذته الشخصية فيما يعود على الناس بالنفع، وعلى قول الآخرين هي أن يبعثه على عمله نفع الناس وخيرهم، ولا عبرة بالمقدمات إذا تساوت النتائج، وليس يهمنا أن يكون الباعث له على إتيان الخير لذته الشخصية أو رغبته في الصالح العام ما دام العمل ينتج هذا الخير.

ولا يزال الناس بعد هذا البحث السيكولوجي منقسمين إلى قسمين: قسم لا ينظر إلا إلى شخصه في حدوده الضيقة، وقسم ينظر إلى شخصه في حدوده الواسعة. قسم ينظر إلى ذاته كالحيوان، وقسم ينظر إلى ذاته كفرد في أمة وعضو في جسم وفرع في شجرة، يوفق بين نفعه ونفع أمته ونفعه ونفع شجرته. قسم بلغ به ضيق النظر أن يجد لذته في حرمان الناس وسعادته في شقاء الناس، أو هو على الأقل لا يهتم بالناس، وقسم قد بلغ من سعة نظره أن يجد لذته في لذة الناس، وسعادته في سعادتهم، وخيره في خيرهم، وهذا غاية الرقي. وخير الناس من استطاع أن يوفق بين غرائزه وخير الناس، فإذا كان محباً للظهور فليظهر بما ينفع أمته، وإذا كان محباً للاستطلاع فلا يستطلع أخبار الناس وعيوبهم وخفاياهم، وإنما يستطلع حقيقة مجهولة في العلم أو قانوناً مجهولاً في الطبيعة؛ ومن كان من طبعه الخوف فليخف من شر يلحق الناس، وأذى ينالهم، ولا يخفْ من أوهام من خلقه، وعفاريت من خياله. وهكذا.

مهما قيل فالتضحية أنبل ما وصل إليه الإنسان. منظرها أجمل منظر وأروعه، ولا شيء يكسب الأمة قوة كما تكسبها التضحية؛ فالأمة المضحية تأكل غير المضحية في سهولة ويسر، لأن الأمة المضحية كتلة متماسكة ووحدة واحدة، والأمة غير المضحية أفراد متفككة، وشهوات متعددة، تتحارب أجزاؤها، ويأكل النزاع والشهوات والأنانية قواها. فالأسرة التي يعمل فيها كل فرد لشخصه أسرة ميتة، والمصنع الذي يعمل فيه كل فرد لمصلحته الخاصة لا يبقى شهراً، والحزب الذي ينظر فيه كل عضو إلى نفسه فقط حزب مصطنع لا حول له ولا قوة، والأمة التي يحسب فيها كل فرد حساب لذته الخاصة هي أفراد لا أمة.

في الأمة التي تسودها التضحية كل أفرادها أقرباء، وفي الأمة التي تسودها الأنانية كل أفرادها غرباء.

التضحية عشق وهيام، ومحال أن يصدق عشق على أساس الأنانية. وإنما يصدق يوم

يقول ويؤمن بما يقول: «إني أضحي بأنانيتي وسعادتي وشخصي وكل ما يقف في سبيل الحب لحبي».

لا تكون التضحية حتى يتعود القلب لذة العطاء كما يتعود لذة الأخذ؛ ولذة أن الناس يَجِدُون ويسعدون، كما يتعود أن يتلذذ من أن يجد ويسعد.

التضحية إرادة القوي ليقوى، وإرادة الضعيف ليتخلى عن ضعفه - هي حجر المسن تُشحذ عليه الإرادة لتقطع الصعاب وتجتاز العقاب، وهي النار المقدسة التي تطهر النفوس وتأكل الأعشاب الطفيلية.

التضحية أشرف الطرق تسير فيه الأمة لتحقيق ذاتيتها، وأنبل السبل تسير فيه الإنسانية لتبلغ غايتها، وبدونها يصبح الإنسان حجراً لا روح فيه، أو بهيماً يعيش ليأكل.

التضحية أفق واسع تنعم فيه النفس بجمال السعة وبعد المدى وجلال اللانهاية، والأنانية أفق ضيق تألم فيه النفس بضيق المكان. وتنقبض فيه من كثرة السدود والحدود.

في التضحية حرارة وإيمان يُسعد، وفي الأنانية جمود بارد وإلحاد مقبض.

في التضحية حياة كلية شاملة وفناء النفس فيما حولها ومن حولها، وفي الأنانية حياة جزئية محصورة، ودوران النفس حول ذاتها في خمود وركود.

في التضحية كرم وسماحة، وفي الأنانية شح وكزازة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية 9] .

* * *

النار

كان الجو بارداً قاسياً، وكان الهواء عاصفاً قاصفاً، وكان الليل مظلماً حالكاً؛ فأويت إلى بيتي وكأني لا أجد جسمي، وخلعت ملابس التكلف ولبست ملابس البساطة؛ وفرحت بالنار الموقدة في حجرتي، والجو الهادئ حولي؛ فكل شيء يحيط بي نائم، وأنا والنار وحدنا يَقِظان.

جلست بجوارها أتأمل صنيعها، وأستمليها معانيها.

* * *

يعجبني فيك - أيتها النار - ميلك إلى السمو دائماً، يلعب بك الهواء في نواحيك، فتقاومين وتعارضين، وقد يتغلب عليك الحين بعد الحين، ولكن لا تملّين ولا تخضعين، حتى يمل هو فيسكن، وتستمرين في تساميك أبداً، وفي تعاليك دائماً؛ فتبًّا لمن يخضع لأول عاصفة ويطأطئ رأسه لأول صدمة.

قوية قوة لا نهاية لها، لا تلمسين شيئاً حتى تأكليه وتخضعيه لأمرك، وتحلليه إلى شيء واحد مهما اختلفت أنواعه - جماداً كان أو حيواناً أو نباتاً، عظيماً أو حقيراً، جميلاً أو قبيحاً - إلى رماد، إلى هباء، إلى فناء. تحللينه بحرارتك، وتهضمينه بقوتك، ثم تتركينه بارداً برود الموتى، أين منك مخالب الأسد؟ وأين منك أنياب الأفاعي السامة؟ وأين منك الريح العاتية ترمي ولا تفني، وتقتلع ولا تبتلع؛ لولا أن رأينا أفاعيلك قبل أن نعقل لجنَّ جنوننا لرؤيتك، وأخذنا العجب كل العجب لقدرتك.

* * *

عجب المجوس لقدرتك فعبدوك وأَلَّهُوك، واستدل الموحدون بعظمتك على عظمة خالقك وامتن الله بك على عباده، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: الآية 80] .

* * *

اشتق العرب أقوى فترة من العمر من صفاتك، فسمَّوا الشباب من شبوبك، ووصفوا التهاب الشعور من التهابك، وقالوا ضرام الحب من ضرامك. واندلع لهيب الثورة من لهيبك. وكما استعاروا صفات القوة من قوتك، استعاروا صفة الضعف لغيابك، فقالوا: انطفأت شعلته إذا مات، تشبيهاً بانطفائك، وهمدت قوته وخمدت، من همودك وخمودك.

وكما عبدك المجوس جعلك العرب أعظم مفاخرهم وأشهر مآثرهم، فرفعوك للسَّفْر ولمن يلتمس القِرَى، وكلما كان موضعك أرفع كانوا بك أفخر، فقال شاعرهم [من الوافر]:

لــــه نـــــارٌ تُــــشَــــبُّ بـــكــــلِّ ريـــعٍ
إذا الــظــلــمــاءُ جــلَّــلَــتِ الــقِــنَــاعــا

ومـــا إن كـــان أكـــثــرهـــمْ سَـــوَامـــا
ولـــكـــن كـــان أرحــبَـــهـــم ذراعـــا

ومثل ذلك كثير لا يحصيه عد.

* * *

لقد أبت الشمس أن تنزل من سمائها، وتتنازل عن عليائها، فأنابتك في الأرض عنها، ومنحتك أعظم صفاتها، وهي الضوء والحرارة والقوة، فضوءك من ضوئها، وحرارتك من جنس حرارتها، وقوتك بعض قوتها؛ وكأنك تبرهنين على ولائك لها، فتميلين دائماً للصعود إليها! تستطيعين أن تمزقي الظلام، فتكوني آية الليل كما كانت أمك آية النهار، وتستطيعين أن تقهري البرودة، وتبعثي الدفء إذا غابت أمك، وتستطيعين أن تبعثي الحياة بحرارتك. وهل الحياة إلا حرارة؛ وهل الموت إلا برودة؟

* * *

ثم أنت بقوتك نفاعة إلى أشد حدود النفع، ضرارة إلى أشد حدود الضرر. فيك الحياة وفيك الموت. هأنذا أستدفئ بك وأحذر القرب منك، وهذا الأكل تنضجينه وتحرقينه، وهذا القطار تسيّرينه وتمزقينه.

عدَّ الإنسان اكتشافه لك أجَلَّ شيء في حياته وأعظم حادثة في تاريخه، لا يستغني عنك بدوي في بداوته، ولا حضري في حضارته. عرفَتْ المدنية الحديثة طرق استغلالك فقفزت في

تقدمها، واتخذتك أكبر وسائلها في بنائها وهدمها، وبؤسها ونعيمها، ورفاهيتها وعذابها، وسلمها وحربها. وهل بنيت المدنية إلا على الحديد والنار؟ ومهما اختلفت الأسماء التي وضعوها لك من فحم وبنزين وغيرهما فأنت أنت التي صيغت من ضوء وحرارة.

* * *

لقد كنا نحن وأرضنا وما حولنا جذوة منك، فلما بردت قشرتها دبت الحياة فيها وظل باطنها شعلة منك، تنبئ بأصلها وتدل على تاريخها، ومن أجل ذلك كان كل شيء حولنا إما ناراً ظاهرة، أو ناراً كامنة.

* * *

لك فوق جلالك وقدرتك جمال عجيب..! وقلَّ أن يجتمع الجلال والجمال والقوة في شيء كما اجتمعت فيك. أدرك الرضيع جمالك فناغاك، وشُدت عيناه إلى مرآك، وارتبط جمال الليل بجمال ثرياك، واجتمع فيك سر جمال النور وجمال اللون وجمال الحركة وجمال القوة وجمال الوداعة، تهدئين فتكونين شمعة، وتثورين فتكونين بركاناً، وقد أنصف العرب إذ سموك «النار» قريباً من «النور» لقرب حقيقتك من حقيقته، وجمالك من جماله.

* * *

ثم ها هي النار من أكثر ما في الوجود إيحاءً وإلهاماً. فلأمر ما ارتبطت النار في حياة موسى بنور الوحي ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾! [طه: 10 ـ 12] ولأمر ما كانت النار معجزة إبراهيم ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾! [الأنبياء: 69] ولأمر ما عظمها اليهود وقالوا: إنها تأكل قربان المخلص ولا تأكل قربان النغِل. ثم هي والجنة عِدْلان تلعب عليهما عواطف الإنسان من خوف ورجاء ورغبة ورهبة؛ وبفضلها لم نجد تعبيراً خيراً من حرارة الإيمان وحرارة العواطف وحرارة القلب، ولو انعدمت حرارة الإيمان لكان إيماناً جافاً، ولو انعدمت حرارة العواطف لتجمدت وماتت، ولو انعدمت حرارة القلب لكان حجراً. إنما يقوِّم الشاعر بحرارة شعره، والخطيب بحرارة قوله، والأمة بالتهاب وطنيتها، ولا فرق بين الموت والحياة إلا الحرارة. وإذا أظلمت النفس فما أحوجها إلى لمعة كلمعة البرق تضيء جوانبها، وإذا برد القلب فلا يحييه إلا قبس من نار يلهب شعوره، وإذا جمدت عواطف أمة فليس إلا النار والعذاب يحييان مشاعرها، ويبعثان وجدانها.

لم يجد العاشق - أيتها النار - تعبيراً صادقاً عما يجد إلا النار ترعى فؤاده، والنار تحرق كبده، والنار تكوي قلبه.

ولم يجد الصوفي خيرًا منك ومن النور ولد منهما معاني عجباً.

* * *

وهنا أحسست أن جسمي أخذ حظه من الدفء، ورأسي كأنه شعلة نار من التفكير في النار، فأطفأت نارها وأطفأت رأسي، وقلت: إلى مخدعي.

* * *

العام الهجري الجديد

باسم الله نستقبل هذا العام الهجري الجديد، وباسم الله نرجو أن يكون خيراً من أخيه الراحل، وأن يكون يمناً وبركة وسعادة للإنسانية عامة، وللعالم الإسلامي خاصة، وأن ينظر فيه المسلمون إلى أنفسهم فيعرفوا مواضع الضعف فيها فيُقَوُّوها، وإلى مواضع القوة فيزيدوها، وأن ينظر العالم الأوربي إليهم نظرة عادلة، فيعلم أن المسلمين قد شعروا بإنسانيتهم فلم يعد في الإمكان أن يُستعبدوا، وبصروا بأنفسهم فأصبح من العسير أن يُستغلوا، وتجاوزوا طور الصِّبا فلا بد لكسبهم من إخائهم لا سيادتهم، ومن مساواتهم لا السيطرة عليهم، ومن معاملتهم معاملة الإنسان للإنسان، لا معاملة الإنسان للسلع، وفوق ذلك فتكاليف المدنية كثيرة، والقيام بأعبائها شاق عسير، وتسيير آلاتها يحتاج إلى أيد لا عداد لها، وعقول لا تحصى، فلماذا نضعف المدنية بتسليط قوة على قوة بدل أن تتعاون القوتان؟ ولماذا نضيع الوقت في إذلال نصف السكان لنصفهم الآخر، ولا نضع أيدينا بعضها في بعض للتعاون والتساند؟ ولماذا يخيل لقوم ألا ينجحوا إلا بهدم أممهم للأمم الأخرى، مع أنها صالحة كل الصلاحية لتبنى كما بنوا، وتشيد كما شيدوا؟ والله قد قسم الخيرات على الناس، فكما جعل أرضاً صناعية وأرضاً زراعية، جعل لعقول الأمم مميزات ولنفوسهم مميزات، ولا شك أن للعالم الإسلامي مميزات تغل الخير الكثير لو استغلت، وتساعد في بناء المجتمع لو استخدمت.

* * *

جرى العالم الأوربي - إلى عهد قريب - على تنحية المسلمين وإبعادهم عن أن يشتركوا في البناء، ورسم خطة محدودة نحوهم، هي خطة الممالك للعمال في مزرعته، وخطة صاحب رأس المال للمنتجين في مصنعه، لا خطة تعاون أصحاب رؤوس الأموال، ولا خطة الشركاء في الإنتاج.

لقد غزا العالم الأوربي في القرن الماضي العالم الإسلامي بكل قواه. وبعبارة أخرى غزت قارة أوربا الممالك الإسلامية في آسيا وأفريقيا واستعملت في إخضاعها كل أسلحتها؛

فالمبشرون ينظمون قواهم لنشر دعوتهم في البلاد الإسلامية، ويتخذون لذلك المستشفيات والمدارس والملاجئ ستاراً لنشر دعوتهم، والملحدون يدعون إلى الإلحاد، وينشرون آراءهم في لباقة ومهارة، عارية صريحة، أو تحت ستار من ألوان براقة خداعة، ويأملون أن يتحرر المسلمون من دينهم، فإن ظفروا بذلك فقد ظفروا بنصف المكسب، ورجال السياسة يضعون الخطط لإذلال المسلمين وتحكيم دولهم فيهم، وتسيير الآلات الحكومية في الدول المستعمرة لخدمة الاستعمار، حتى لا يخرجوا قيد شعرة عما رسموا، ولا يفكروا في غير ما خطوا، ورجال الحرب ينفذون ما تشير به السياسة، فمن حدثته نفسه أن يفتح فاه في غير مصلحة الحاكم المستعمِر فالويل له. ورجال الاقتصاد من وراء رجال السياسة يدرسون الحالة الاقتصادية للمسلمين دراسة عميقة، ويضعون الوسائل لاستغلالها في مصلحة أممهم، لا مصلحة من يستعمرونهم، فإن عجزوا عن تنفيذها اقتصادياً نفذوها سياسياً أو حربياً، وهكذا.

كان هذا كله، وأكثر من هذا كله، والمسلمون - كانوا - في شغل عن أمورهم، ترضيهم لعب كلعب الأطفال، ويسر كبارهم أن يطعموا أرفه الطعام، ويلبسوا أنعم الثياب، ولا يعنيهم من أمتهم إلا أنفسهم وأولادهم، ثم كانوا - كذلك - كالأطفال في عدم استطاعتهم إدراك المعاني المجردة، فالطفل لا يدرك أبوة ولا أمومة، وإنما يدرك أباً أو أماً. فكذلك هؤلاء، كانوا لا يدركون المعاني إنما يدركون الأشخاص، فالفكرة لا تقدر في ذاتها، وإنما تقدر بقائلها ويكفيهم في هذا المجال التنازع على فتات السلطة التي خلفها لهم المستعمر من موائده، والتنازع على الجاه والتنازع على العَرَض. وكلمات الصالح العام، ومصلحة الأمة، وخير البلاد، ونحو ذلك، كلمات جوفاء تقال على أفواههم، ولم تسكن قلوبهم، وتقال للتنكيل بخصم سياسي أو للقفز بها إلى الحكم، فإذا حكموا كانوا كسابقيهم، جعجعة ولا طحن، وقول ولا عمل!

* * *

مضى على هذه الحال أعوام وأعوام، حتى بدأ النائم يستيقظ، وعمل على هذه اليقظة عوامل، من أخطاء ارتكبها الساسة في الحكم، ومن تعاليم أتت مع المدنية الحديثة، ومع الفاتحين في نظم الدولة وحقوق الإنسان، فتسربت إلى القادة، وتقطرت منهم إلى العامة، ومن مبادئ إنسانية عامة أعلنها قادة السياسة في الحرب العظمى، تبين حقوق الإنسان، أو تستعطف الأمم للدخول في صفها، أو تدعو إلى السلم، إلى غير ذلك من أسباب لا أطيل بذكرها.

غير أني لا أنسى هنا أن أذكر بالفضل قوماً من المنصفين الأوربيين، وقفوا للدفاع عن الإسلام وعن المسلمين، واستطاعوا بأقوالهم وخطبهم وكتبهم أن يعدلوا كثيراً من الرأي العام الأوربي، فلم يعد الإسلام في نظر كثير منهم - كما كان - ذلك الدين الذي ينفث العصبية والحقد، ولا ذلك الدين الذي لا يصلح للعالم الحاضر ويجب أن يسرع في القضاء عليه قبل أن يموت تدريجياً، ولا ذلك الدين الذي ليس له أسس أخلاقية شريفة، ولا ذلك الدين الذي ليس له تأثير في الضمير الخ، بل تحول كثير من الرأي العام إلى الاعتراف بصلاحية الإسلام للحياة، وابتنائه على أسس أخلاقية قويمة، كما تحول كثير إلى الوقوف على الحياد، بعد أن كان موقفهم موقف عداء، ثم كان من موضع الإعجاب ما ظهر به المسلمون أنفسهم من مناعة نحو تمسكهم بدينهم وبقوميتهم، فلم يلق التبشيرالديني ولا السياسي من النجاح ما كان ينتظر!

* * *

تحرك المسلمون يطالبون بحقوقهم، وسببوا بحركاتهم مشاكل للدول التي تحكمهم، ورأى الساسة أن حكمهم لم يصبح من السهولة كما كان، ورأى الاقتصاديون أن الاستغلال في أراضي المملكة الإسلامية أصبح عسيراً، وأن غفلة المسلمين التي كانت تمكنهم من الاستغلال على أحسن وجه وأيسره قد زالت أو زال أكثرها، فعسر عليهم الإنتاج.

كما صادف أن العالم الأوربي تمزق في الخصومات والعداء، ولم يعد الأوربيون كلهم على اتفاق فيما بينهم، حتى يستطيعوا أن يرسموا خطة واحدة نحو الممالك الإسلامية.

كان من نتيجة ذلك كله أن تحول موقف الدول نحو البلاد الإسلامية تحولاً ظاهراً، ورأوا أن يصانعوا المسلمين ويحاسنوهم ولا يخاشنوهم، فكانت المعاهدات المختلفة للأقطار الإسلامية المختلفة، وإلغاء الامتيازات في الدول التي بقيت فيها، إلى كثير من أمثال ذلك.

* * *

هذا عرض سينمائي سريع لتاريخ المسلمين الحديث وموقفهم الحديث، ولكن هذا الموقف الجديد يتطلب واجبات جديدة، ويحملهم أعباءً ثقالا، فإحداث الثورة أيسر من استغلالها إذ هدأت، وإشعال النار أسهل من استخدامها في تسيير القطارات وإدارة الآلات. وقد ظل العالم يشعل النار طوال عهوده؛ ولكنه لم يعرف أن يستخدم البخار إلا في عهده الحديث، وواجبات العبد أيسر من واجبات السيد، ومسئولية الرجل أعظم من مسئولية الطفل.

فالعالم الإسلامي الآن يقف - لأول مرة - بعد العصور المظلمة - على رجليه، ويحاول أن يدير حكومته بنفسه، ويتحمل غلطاته، ويفخر بحسناته، وقد أصبح لأول مرة في العصور الحديثة عقلاً يدبر بعد أن كان يداً تدار، وأمسك بيده المصباح، فإما أن يضيء به منزله إذا أحسن استعماله، وإما أن يحرقه إذا أساء استعماله. ووقف الآن يحمل أوزاره وأوزار آبائه، وديونه الثقيلة وديون آبائه، فكان الأمر جدًّا لا لعب فيه، وميدان جهاد لا مسرح مهزلة.

وإن أبواب الجهاد عديدة ليس شيء منها أولى من شيء. وقد علَّمنا الإسلام في تعاليمه الأساسية الأولى أن نعد أنفسنا ما استطعنا من قوة، نتسلح بالعلم كما تسلح القوم بالعلم، ونتسلح بالأداة الصالحة للحكومة كما تسلحوا، ونتدرع بتنفيذ العدل الدقيق كما تدرعوا، وبوحدة الأحزاب عند الخطر كما توحدوا، وبالاستعداد للطوارئ كما استعدوا، وفوق ذلك نتقوى بالخلق كما تقووا.

فأما أن يترك العالم الإسلامي بيوته فوضى، ويتنازع على الرياسة أو على من يمثله في المجتمعات والمؤتمرت، وأما أن تتحارب أحزابه لا للمصلحة القومية، ولكن لتولي الحكم، وأما أن يبذر أمواله على أنواع الترف والكماليات، وهو في أشد الحاجة إلى الضروريات، وأما أن يسير في آلاته الحكومية على أساس المحسوبيات والشهوات لا على أساس العدل الدقيق، وأما، وأما. . . فضرب من العبث إن اغتفر في الماضي فهو أكبر أنواع الإجرام في الحاضر.

إن موقفنا اليوم موقف التاجر يمارس التجارة لأول عهده، وموقف الشاب أونس منه الرشد فرد إليه ماله وروقب كيف يتصرف. ولسنا في عزلة عن العالم نفعل كما نشاء، وإنما نقف على مسرحٍ نظَّارته كل العالم، وليس لدينا من القوة العلمية والأدبية والحربية ما يحمل العالم على أن يغفر لنا خطايانا ويغمض طرفه عن زللنا، ويقف العالم منا موقف الرقيب ماذا نصنع والراصد ماذا نعمل، وفي أعناقنا تبعاتنا وتبعات أبنائنا من بعدنا.

فلنجعل العالم يهابنا في إجلال، ويحترمنا كصديق، ويعاملنا كشريك، ولا يمس حقوقنا لقوتنا، ويفسح لنا في بناء المدنية لقدرتنا، ويؤمن - بأعمالنا لا بأقوالنا - بأن لنا مجداً قديماً أتبعناه بمجد حديث، ولنُسمع من لم يسمع أن المسلمين لم تمتهم الأحداث الثقال، وإنما أنامتهم ثم انتبهوا، وخدرتهم ثم انتعشوا، وأنهم منذ انتبهوا عملوا مع العاملين وجدُّوا مع الجادين.

هذا أيها العام الجديد، رجاؤنا فيك وأملنا منك، فكن صفحة مجيدة يسجل فيها العالم الإسلامي نبل فعاله وخير أعماله، وكن لهم مناراً حتى يهتدوا بضوئك ويأنسوا بنورك ويبددوا ما يحيط بهم من ظلام، ويضطلعوا فيك بأعبائهم الجسام، حقق الله الآمال.

الخصومة في الأدب

كانت الخصومة بين الأدباء دائماً نعمة على الأدب وإن كانت نقمة أحياناً على الأدباء أنفسهم.

فالخصومة - أول الأمر - في كثير من الأحيان هي التي تنتج الأديب وتهيج مشاعره، وتطلق لسانه، وفي تاريخ الأدباء الشيء الكثير من ذلك، فقديماً كان الشاعر العربي يهجو القبيلة ويعيّرها ويجسم مثالبها ويقلب حسناتها سيئات، فتتلفت يمنة ويسرة تنظر من يدافع عنها، ويصد كيد عدوها، فتفعل هذه اللفتة في المستعد المتهيئ فعل السحر، فإذا للقبيلة من يروض نفسه على القول، ويعدها للنضال ويطلق لسانه بالقول، وإذا هو شاعر. ولولا هذا الهجاء وهذه الخصومة لكان إنساناً كسائر الناس لا شاعراً كسائر الشعراء. وحديثاً سمعنا أن «عبد الله نديم» أطلق لسانه بالقول رجل دعاه ليعلم أولاده ثم أكل عليه أجره، فأخذ يعمل لسانه في هجوه فإذا هو هجاء، وإذا هو أديب، وإذا هو كاتب وشاعر.

ثم الخصومة هي التي أورثتنا باباً كبيراً من أبواب الأدب هو باب الهجاء، فلولا الخصومة ما كانت لنا نقائض جرير والفرزدق ونقائض جرير والأخطل، ولا كانت أهاجي بشار وأبي نواس وابن الرومي وغيرهم من الهجائين، وكثيراً ما هم، ولحرمنا ما أبدعوا في هجائهم من صور فنية هي غاية في الروعة والإتقان، تثير في النفس الهزء والسخرية حيناً، والضحك حيناً، والإعجاب من مصورها حيناً، ولو فقدت هذه الصور لكانت كارثة على الأدب ولفقد ركناً كبيراً من مقوماته.

ثم هذه الروايات الكثيرة في الأدب الغربي التي وضعت لنقد كاتب والهزء به وبآرائه؛ والتي وضعت لنقد فكرة والسخرية بها وبواضعيها ومؤيديها - كل هذه ما كانت تكون لولا الخصومة الأدبية، وكلها ثروة كبيرة من ثروة الأدب لا غنى عنها، ولا حياة له بدونها.

وبعد هذا كله فما النقد؟ أليس هو خصومة، شريفة أحياناً وغير شريفة أحياناً؟ إن كان النقد في قليل من أوقاته مدحاً وتقريظاً فهو في كثير من أحيانه عيب وتجريح.

وليس يشك شاك في نعمة النقد على الأدب، فهو الذي بخصومته يهاجم الأدباء في شدة

وعنف فيبين أغاليطهم، ويوضح ضعفهم، ويظهر عيوبهم، فإذا هم حذرون يجيدون خوف النقد، ويحاولون أن يتبرءوا من العيوب خوف النقد، وينشدون الكمال خوف النقد، فإذا خرج نتاجهم كاملاً أو قريباً من الكمال فالفضل في ذلك للنقد.

وفي كل عصر تنشأ خصومة حادة عنيفة بين رجال الأدب من أنصار القديم وأنصار الجديد يتجادلون ويتسابون، وجدالهم وسبابهم أدب، وينقسم الناس إلى معسكرين: أنصار المجددين وأنصار المحافظين، ويحمل كل فريق أقلامهم فيجيدون ويمتعون، فيكسب الأدب من هذه المعارك مكسباً مزدوجاً، مكسباً من ناحية ما يقال في هذه المعارك من هجاء وتعنيف وسب وخصام، ومكسباً من ناحية ما يكسبه المجددون - غالباً - من توجيه الأدب وجهة جديدة، وإدخال عناصر فيه جديدة. ولولا ذلك لظل هيكل الأدب كهيكل الأهرام تمر عليها الدهور والأعوام وهي هي في شكلها ومادتها، ولكان أدبنا اليوم هو الأدب الجاهلي، ولكان أدب الغرب اليوم هو أدب القرون الوسطى، فلولا ثورة المجددين والخصومة بين الأدباء لما تقدم الأدب خطوة، ولظل على حالته كما تركه الأولون.. هذا في إجمال نعمة الخصومة على الأدب.

* * *

ثم إن الخصومات بين الأدباء هي من جنس الخصومات بين ذوي المركز الواحد أو أهل الصنعة الواحدة.

هي من جنس الخصام بين الضرائر، فالضرة تخاصم الضرة لأن كلتيهما تتنازع قلب الزوج، وتريد أن يكون لها السلطان عليه كاملاً، وهي من جنس الخصام بين الزوجة والحماة، لأن الحماة تُدِل بأمومتها وكبر سنها، والزوجة تدل بجمالها وشبابها وغير ذلك.

وهي من جنس الخصومة بين ذوي الصنعة الواحدة. فالنجار قل أن يحب النجار، والحداد قل أن يحب الحداد، والتاجر في نوع من السلع قل أن يحب التاجر في هذا النوع، وكلما قرب الشبه اشتد النزاع، فالنجار في حي من الأحياء أشد كراهية للنجار في حيه من النجار في غير حيه، وتاجر الغلال أشد كراهية لتاجر الغلال منه لتاجر القطن، والسبب في ذلك تسابقهم إلى اكتساب «الزبائن» فكل يريد أن يستولي على السوق، وينفرد بالمكاسب، ويستبد بحسن السمعة والجاه، فإذا شعر بأن هناك من يزاحمه في هذا انتقصه وكرهه وعمل على إخماد أنفاسه، ولذلك كانت كراهية التاجر العظيم للتاجر العظيم أشد من كراهيته للتاجر الصغير، لأنه كالآمن من ناحيته، المطمئن إلى أنه لا يبلغ شأوه.

فالخصومة بين الأدباء من هذا الصنف، ولذلك قل أن تجد خصومة بين أديب وعالم أو أديب وموسيقي، لأن ميدان السباق بينهما مختلف، إنما يخاصم الأديب الأديب لأنهما من واد واحد، ويريد كل أن يكون له السوق وحده، فإذا شعر من أحد أنه يزاحمه في ميدانه خاصمه وهجاه، وقلل من شأنه وشأن أدبه، وفعل الآخر مثله، فكانت النقائض والمهاجاة ونحو ذلك. وعلى قياس ما سبق كلما كانت درجة الأدباء متقاربة كانت الخصومة بينهم أشد، والمهاجاة أعنف. وقد يتصافى الأديبان ظاهراً ويتخاصمان باطناً، فتكون الخصومة دفينة تنتظر عودة الثقاب ليشعلها، وقد يمر زمن طويل قبل أن يشتعل هذا العود. وكلما زاد أحد الأدباء حظوة عند القراء أو أخرج كتاباً أقبل عليه الناس، ازداد خصومه غيرة فراحوا يقللون من شأن نتاجه، ويتمحلون الأسباب في انتقاصه، وقد تتكون حول كلٍّ أنصارٌ وحول كلٍّ خصوم فيه فيكون النزاع بين جماعات لا بين أفراد.

ولكن من الحق أن نقول إن الغيرة ليست كل شيء في الموضوع، فقد تكون تربية الأدباء وثقافتهم سبباً في الخصومة بينهم. هذا أديب نشأ نشأة عربية خالصة، ولم يقرأ إلا لشعراء العرب، ولم يطلع إلا على الكتب العربية، فعنده أن الأدب الغربي تافه ثقيل الظل، وخير يحتذى هو أسلوب الجاحظ أو أسلوب البديع أو شعر المتنبي أو أبي تمام؛ وهذا أديب أخذ حظه من أدب الغرب، ومزج بين الثقافتين وفضل الأدب الغربي على الأدب العربي، وصار المثل الأعلى له أن يحاكي شكسبير أو لامارتين أو جوته، فهو يريد أن يطعّم الأدب العربي بخير ما في الغربي، ويريد أن يجدد في بحور الشعر وفي موضوعاته وفي ميادينه، فتنشأ الخصومة العنيفة، وهي في الواقع خصومة بين مدرستين ونزاع بين مذهبين؛ هذا يتعصب للقديم ولا يريد أن يتحول عنه أنملة، ويريد أن يتبع عمود الشعر كما كانوا يعبرون، وهذا ثائر لا يرضى عن القديم إلا أن يمزجه بجديد. وقد كانت هذه الخصومة في كل عصر تقريباً. عاب الناس على أبي تمام تجديده ونصره قوم. وهاجم العقاد والمازني شوقي وحافظاً لهذه النزعة بعينها ونصرهما آخرون، وسيصبح الحديث قديماً ويعيبه جيل المستقبل ويريدون جديداً، وهكذا سنة الله في كل شيء حتى في الأدب.

وسبب آخر في الخصومة كثيراً ما يحدث، وهو الخصومة بين شيوخ الأدب وشباب الأدب، وهي خصومة - لا شك - واقعة، غاية الأمر أن المسألة ليست بالسن، فقد يكون شيخاً وهو من أدباء الشباب، وقد يكون شاباً وهو من أدباء الشيوخ، لأن المسألة ليست تقدير عمر، إنما هي نزعة، والنزعة إلى التجديد قد يشترك فيها شيوخ وشبان، والنزعة إلى

المحافظة قد يشترك فيها شيوخ وشبان.

والخصومة بين الشيوخ والشبان ترجع إلى عوامل مختلفة: منها هذا الذي ذكرنا من اختلاف النزعات. ومنها أن الشبان قد يكرهون من الشيوخ استيلاءهم على السوق وكثرة الزبائن فينفسون عليهم ذلك ويريدون أن يهدموهم ليحلوا محلهم، ويدافع الشيوخ عن مراكزهم فتكون المعركة مروعة تختلف فيها الأسلحة وآلات القتال، وقد يكون السبب أن الشاب إن كان ناشئاً في الأدب رأى من وسائل شهرته أن ينازل شيخاً، فإن ظفر به فقد فاز فوزاً عظيماً، إذ غلب عظيماً، وإن لم يظفر به فليست هزيمة منكرة، ويكفيه فخراً أنه ناوشه، فهو كاسب على كل حال.

وبعد، فكل الناس يتخاصمون، تاجر يخاصم تاجراً، وصانع يخاصم صانعاً، ورب أسرة يخاصم رب أسرة، وأمة تخاصم أمة وتقاتلها، ولكن الأدب هو الذي يظفر بتخليد خصومته. فقد ذهبت كل الخصومات في العهد الأموي وبقيت خصومة جرير والفرزدق، وذهبت خصومات الناس في العصر العباسي وبقيت خصومة الخوارزمي والبديع، وخصومة المتنبي وأعدائه، وهكذا.

وكم تساب الناس وذهب سبابهم. أما سباب الأدباء فباق خالد، وهو طُرفة، وهو إبداع، وهو يثير التبسم ويستخرج الضحك أو الإعجاب. وسبب ذلك أن الأديب طويل اللسان وقلمه أطول من لسانه، وهو ماهر فنان يستطيع أن يصوغ سبابه في قالب فني يكسبه الخلود. أما سائر الناس فمساكين، إما قصار اللسان، وإما طواله، ولكن ليست لهم القدرة الفنية.

* * *

الرمز في الأدب الصوفي

تدور العقيدة الصوفية على فكرة «وحدة الوجود»، فليس العالم والله شيئين منفصلين، وليس الله في السماء وحدها ولا في الأرض وحدها، بل هو في كل شيء، بل هو كل شيء، وليس هناك محب ومحبوب، وعاشق ومعشوق، بل المحب والمحبوب واحد، يختلفان في المظاهر والأحوال، ويتحدان في الحقيقة؛ وكل شيء في العالم له مظهر فان متغير متقلب، وله مخبر دائم باق لا يتغير؛ ونفس الإنسان كذلك: نفس ناقصة فانية ظاهرة، ونفس كاملة باقية باطنة؛ والنفس الأولى تشق الطريق لتحقق نفسها الثانية، فتتحد بالحقيقة وتتشربها وتفنى فيها. وسمى الصوفي هذا المسلك «طريقاً» أو «طريقة»، وسمى نفسه «سالكاً»، وسمي المسافات التي يقطعها فيقف عندها للاستجمام «مقامات»، وسمى الغرض الذي يقصده من سلوكه وهو اتحاد نفسه بالحقيقة، وبعبارة أخرى اتحاد ذاته بالله «الفناء في الحق». وقد رسموا «خرطا» لهذا الطريق، وتعددت «خرطهم» بتعدد أنظارهم، وسموا كل مرحلة وكل مقام باسم، فهي عند بعضهم مقام التوبة، ثم مقام الورع، ثم مقام الزهد، ثم مقام الفقر، ثم مقام الصبر، ثم مقام التوكل، ثم مقام الرضا؛ وفي كل مقام من هذه المقامات يقف السالك فيشعر بمشاعر نفسية خاصة سموها «الأحوال»، فحال الخوف، وحال الرجاء، وحال الشوق، وحال الأنس، وحال الطمأنينة، وحال المشاهدة، وحال اليقين الخ، ولا بد للسالك أن يستوعب كل مرحلة من هذه المراحل، ويؤقلم نفسه بها ليستعد للمرحلة التي تليها، حتى يصل في النهاية إلى حالة اتحاد بالعالم وبالله، فيستحق بذلك أن يسمى «عارفاً». ولا بد للسالك أن يقوده «شيخ» في هذه الطريق الوعرة حتى لا يضل المسلك.

وليس المقام مقام تفصيل لتعاليمهم وعقائدهم؛ وإنما نريد أن نقول إنهم بتعمقهم في هذا المبدأ الذي ألممنا به إلماماً بسيطاً قد أقاموا أنفسهم في عالم غير العالم المادي الذي يعيش فيه غيرهم، فلهم لغة خاصة بهم ومسميات لا يعرفها إلا هم. ولكنهم فعلوا في اللغة كما فعل كل العلماء في اللغة العربية، فأخذوا الألفاظ العربية وأطلقوها على مدلولات خاصة كما فعل النحاة بالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر والجار والمجرور، ونحو ذلك من ألفاظ كان يستعملها العرب في مدلولات عامة فأخذها النحاة ووضعوها لمصطلحات خاصة، حتى إن

العربي القح لم يكن يفهمها في معاني النحاة. وهكذا الشأن في البلاغة والعروض والفلسفة، غير أن هنالك فرقاً كبيراً بين المتصوفة وغيرهم، فالأوضاع النحوية والصرفية والبلاغية لها مدلولات ترجع إلى العقل في تفهمها، أما المصطلحات الصوفية فلا ترجع إلى العقل، وإنما ترجع إلى الذوق، ولهذا لا يفهمها أحد بعقله فهماً صحيحاً؛ إنما يفهمها من تذوقها ووقف في المقام الذي يقف فيه المتصوف؛ والفرق بين العاقل والمتذوق كالفرق بين شخصين أحدهما لم يذق الكمثرى قط فوصفت له وصفاً لفظياً علمياً، وشخص ذاقها وعرف الفروق الدقيقة بين مذاقها ومذاق الموز والتفاح؛ فاستعمل شعراء الصوفية ألفاظ الشعراء الغَزِلين من «ليلى» و«الخمر» والوصل والعناق والهجر والعذال، واتخذوها رموزاً لأحوالهم ومقاماتهم، وكان لهم من ذلك كله أدب رمزي بديع غريب، يمتاز عن غيره من الأدب بروحانيته وصفائه، كما يمتاز بغموضه وخفائه، والسبب في الغموض والخفاء أن الشاعر المادي إذا وصف خمراً أو لوعة حب أو هجراً أو وصالا، فإنما يصف عواطف يدركها الناس وهي في متناولهم، أو بعبارة أخرى هي قدر مشترك بينهم، فكل الناس أحب، وكل ذاق لذة الوصل وألم الهجر. أما الصوفي فيعبر عن مقام يقفه وحال غلبت عليه. فوصف مقامه وحاله بحيث لا يفهمه إلا من كان في موقفه وحاله، أو كان قد قطع هذه المرحلة إلى مرحلة أبعد منها مدى. ومن أجل هذا لا يفهم الصوفي إلا الصوفي، بل قد لا يفهم الصوفي الصوفي إذا سلك كل منهما مسلكاً خاصاً أو كان الصوفي الشاعر في مقام بعيد عن مقام الأول؛ ومن أجل هذا شرح بعضهم قصائد بعض المتصوفة، فكان الشرح غامضاً كالأصل. وصاحب القصيدة معذور كل العذر، لأنه في حال لا يجد فيها ألفاظاً تعبر عما في نفسه في وضوح وجلاء؛ وهناك سبب آخر قد يدعو إلى الغموض، وهو أنه في حال لو أوضح ما في نفسه لرماه من يفهمه بالكفر والإلحاد.

على كل حال يمتاز الأدب الصوفي بأنه أدب رموز من ناحيتيه القابلة والفاعلة، فهو يفهم مظاهر العالم على أنها رمز؛ والعالم عنده لا يختلف عن أحلام النائم؛ فكما أن الحلم يعرض حوادثه عرضاً رمزياً فكذلك العالم كل ما فيه رمز، فكل ما يقع تحت عينه وما يسمع بأذنه، وما يتصل بجميع حواسه رموز يستنتج منها ما يغذي عواطفه ومشاعره، وبذلك انفتح أمامه عالم غريب الأطوار مملوء بالجمال، مفعم بالتخيلات، حتى كأن كل شيء - ولو كان صغيراً - كتاب مليء علما، أو لسان ينطق دائماً بالحكمة، وهو في العالم دائماً يقرأ ولا مقروء، ويسمع ولا مسموع، ويستخرج من الحبة قبة، ومن القطرة بحراً خضماً. يقرأ في كل حادثة نفسه وعالمه وربه، ويفسرها تفسيراً يتفق ومزاجه وحاله.

وهذا الأدب الرمزي والدين الرمزي والحكمة الرمزية نزعة كانت في الإنسان منذ القدم، فالديانة المصرية القديمة مملوءة بالرموز الدينية، وكذلك ديانة الهنود والفرس الأقدمين، ترمز إلى الحقيقة في بعد وخفاء؛ والميثولوجيا اليونانية ليست إلا رموزاً لما كانوا يرون من حقائق، وكثير من شعائر الأديان إنما وضعها فلاسفة متصوفون رمزوا بها إلى بعض الحقائق. فأتى العامة الجهلة، وظنوا الرموز حقائق؛ فما الأصنام ولا النجوم ولا نقوش المصريين في عباداتهم ولا كثير غيرها إلا رموز أتى عليها الزمن فنسي أصلها وعبدت ذواتها؛ وجرى كثير من الفلاسفة على هذا النحو؛ فيحكي عن فيثاغورس اليوناني أنه كان يكثر من الكلام الرمزي ليدل به على الحقيقة، وكذلك كان من بعده أفلوطين.

ولهذا الأدب الرمزي جماله. فهو يمتاز بأنه جمال مقنع تدركه ولا تلمسه؛ وتتخيله ولا يسمح لك أن تحدق فيه، فهو جمال تنظره وكأنك لا تنظره، وتسمعه وكأنك لا تسمعه، وتعرفه وكأنك لا تعرفه، قد خلع عليه الخفاء جلالاً فكان جميلاً جليلاً معاً؛ تسمعه فتلتذ له وتترنم به. فإذا أردت أن تقبض عليه قبضت على هواء، ليس لكلماته مدلول محدود ولا لمعانيه حدود، وإنما هو إمعان في اللانهاية، وسبح ولا غاية.

يرى الصوفي أن لكل ظاهر باطناً، وفي كل شيء إشارة، وفوق السطح عمقاً، ووراء القناع جمالاً فاتناً، ويتيه عجباً على الناس إذ فهم ولم يفهموا، وغنّى لهم ولم يطربوا، ويرى أن العقل حجاب يحجب النفس عن إدراك الجمال، وأن كشف هذا القناع إنما هو بالذوق والإلهام، لا بالمنطق والقضايا والأحكام.

وبهذا النظر نظر الصوفي إلى العالم، فسمى الحقيقة ليلى وسعدى، وأعجب بالخمر وتغنى بها، ورأى في الخمر معاني ليست في غيرها. فهي رمز إلى رقي النفس وتساميها، فالنفس ترقى بالفناء في الحقيقة كما تنشأ الخمر بفناء العنب، فيكون شيء من شيء، ويختلف الشيئان والأصل واحد، وإذا خرجت الخمر من العنب بقيت إلى الأبد وصلحت بمرور الزمان، على حين أن العنب نفسه لا يصلح للبقاء، فكذلك النفس إذا تجردت من مادتها الفاسدة ونزعت إلى الكمال صلحت للبقاء، ولم يعتورها فناء، وكلما مرت عليها السنون والأعوام زادت نقاء، ورقت صفاء.

وهكذا ولّد الصوفية من كل شيء أشياء، ورأوا في كل مادة رمزاً لمعان لا عداد لها، وبنى آخرهم على ما أتى به أولهم.

ونظروا إلى الدين نظرهم إلى كل ما في العالم، فكل آية في القرآن رمز، وكل حديث له

تأويل. فليسوا يفهمون من الآيات ما يفهم الناس، ولا من الأحاديث ما يفهم الناس.

إن شئت مثلاً لذلك فخذ ما فهموا من حادثة شق صدر النبي ﷺ، فعلماء السيرة يرون أنه ﷺ شُق قلبه وهو مع رابّته ومرضعته في بني سعد، وأنه جيء بطست من ذهب فيه ثلج فغسل به قلبه إلى آخر ما رووا، والصوفية لا يفهمون هذا إلا على أنه رمز؛ فقلب الإنسان قد ران عليه الخوف والشهوة والطمع وغير ذلك من السيئات، فأراد الله أن يذهب عنه الرجس ويطهره تطهيراً، فأبعد عنه ما غشي قلوب الناس، وفتح قلبه ونقاه من كل سوء حتى يستعد للنبوة. فرويت هذه القصة وفهمها العامة حقيقة، وفهمها الخاصة رمزاً.

وهكذا كان شأنهم فيما عرض عليهم من العالم ومن الدين ومن الأدب، وهكذا كان شأنهم فيما أنتجوا من دين وأدب - عاشوا في حلم لذيذ من حب وتضحية، ونعموا بما قرءوا في العالم من رموز، وأخذوا أدب الأدباء وشعر الشعراء فنقلوه إلى أحوالهم ومقاماتهم، فطربوا لشعر مجنون ليلى وأبي نواس وفسروه بليلاهم وخمرهم، فلما شعروا هم أسبغوا على شعرهم من معانيهم ورموزهم، فكان لنا من ذلك كله نوع من الأدب طريف. أرجو أن أعرض لتفصيله فيما بعد.

* * *

خداع النفس

هل علمت أن العين تخدع فتريك الشمس في حجم الرغيف، والقمر في مقدار الكرة، والنجم كجذوة نار، وتريك المتساويين غير متساويين، وغير المتساويين متساويين، وهكذا الشأن في الحواسّ كلها، يخيل إليك أنك تسمع ما ليس له وجود، ولا تسمع ما له وجود، وتغمس إحدى يديك في ماء بارد والأخرى في ماء حار، ثم تغمسهما في ماء دافئ، فتريك الأولى أن الماء حار، وتريك الأخرى أنه بارد، وهكذا من أمثلة لا تعد ولا تحصى؟

وهل علمت أن الناس يخدعون الناس، فيحتال محتال ويهرج مهرج، ويظهر الرجل بمظهر السياسي الكبير، وليس في حقيقته سياسياً ولا كبيراً، ويظهر الآخر بمظهر العالم المحقق، وليس عالماً ولا محققاً، وتمر أمام أعيننا مناظر من الخداع لا عد لها، تشبه الحاوي في لعبه، والممثل في روايته؛ غني يتصعلك، وفقير يتغنى، وعيي يتفاصح، وماجن يتوافر، وفاسق يتصالح؟

ليس هذا ولا ذاك شيئاً بجانب خداع النفس للنفس، وكذب النفس على النفس. هذا كل إنسان تقريباً يستصحب نفسه منذ صباه وشبابه، فلا يقر بشيخوخته وهرمه، فيرى نفسه شاباً مهما تجعدت أسارير وجهه، ومهما دب الضعف في جسمه.

وهذه المرأة - دائماً - تخدع نفسها بالجمال وبالصغر، مهما حسبت عمرها، ومهما رأت كبر أبنائها وبناتها، ومهما نظرت في مرآتها؛ فترى آية القبح آية جمال، وتقرأ علامات الكبر علامات الصغر، وتغالط نفسها في عمرها، لا خداعاً للناس فحسب، بل خداعاً لنفسها أيضاً، حتى لتؤمن بما كذبت، وتصدق بما ادعت، وتجعلها حقيقة ما توهمت.

وهؤلاء المؤلفون والمصورون والموسيقيون والأدباء والشعراء يرون أجمل ما في الوجود ما ألفوا، وخاصة آخر ما أبدعوا. والفنانون بما منحوا من خيال واسع وتصور عريض يستعملون خيالهم في نتاجهم. فيتخيلون أنه بعيد المنال، قد بلغ حد الكمال، إن نقص أسلوبه فهو بديع المعاني، وإن أعوزته الحقيقة فهو بديع الخيال، وعلى كل حال فهو وليد

النبوغ، تتجلى فيه العبقرية ويمتاز بالسمو، إن عابه الناس فالعيب في ذوقهم، وإن نقدوه فالفساد في ميزانهم، يأكل قلوبهم الحقد، وتفسد حكمهم الغيرة.

سبحان الله! حتى مشتري السلعة - ومثلها عند البائع كثير - لا خير مما اشترى ولا أجودها اقتنى؛ سجائره أحسن السجائر ولو رخصت، وثيابه خير الثياب ولو عيبت، والتاجر إنما اصطفاه بها لأنه صديقه، وأكرمه في ثمنها لأنه يحرص عليه؛ وفستانها خير الفساتين لأنه اختير بذوقها، وخيط بإرشادها؛ إن عيب الشيء بنسجه اطمأن الشاري لحسن منظره ورخص سعره، وإن عيب بمنظره اعتذر بحسن نسجه وقوة متانته، كالمرأة لم يعجب منظرها فتعزت بخفة دمها، وطعن في خفة دمها فاحتكمت إلى منظرها.

ما أظلم النفس تنقد الصغير في غيرها ولا تنقد الكبير في نفسها، وتزن بميزانين، فتبالغ في تحري العيوب إذا وزنت لغيرها، وتبالغ في تحري المحاسن إذا نظرت إلى ذاتها! ف﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: 1 - 3].

* * *

في السنين الأولى من حياة الطفل - وخاصة الثالثة والرابعة - يبدأ يشعر بذاته، وتبتدئ في الظهور شخصيته، ويأخذ رويداً رويداً يحدد موقفه من العالم، وتظهر عليه الأعراض الأولى منبئة بما سيصير إليه شأنه مع الدنيا، من تشاؤم وتفاؤل، وأمن أو خوف، وأنس أو وحشة، وأهم من ذلك التفاته إلى نفسه وشعوره بها، وإعظامه لها، واهتمامه بشأنها؛ وهذه النظرات الأولى لنفسه ولعالمه تكاد تلازمه طول حياته، وتحدد نوع أخلاقه مع ما يدخل عليها من تعديل بعوامل التأثير.

بهذه النفس - المتكونة تحت ظروف خاصة من وراثة وبيئة - ينظر الإنسان إلى العالم، فليس ينظره كما هو، بل ينظره من خلال نفسه، كمن يضع على عينيه منظاراً أسود أو أصفر أو أزرق، فهو ينظر الدنيا من خلاله بلون نفسه، ويفسر الأحداث تبعاً لمنظاره، ويقوّم الأشياء بميزان شخصيته، وينظر إلى الأعيان لا حسبما هي في الخارج، ولكن حسبما لونتها نفسه، كالثوب تغمسه في لون الصبغ فينظر بلون ما صبغته، وكزجاجة المصباح تظهر نوره أحمر أو أزرق، حسب لونها لا حسب لونه. والفيلسوف والأبله تقع عيناهما على شيء واحد، فيرى الفيلسوف فيه معاني جمة، ولا يرى فيه الأبله شيئاً، وليس عيبه في عينه ولكن في نفسه، والعالِم وكلبه ينظران إلى صفحة في كتاب، هذا ينظر فيفهم، وهذا ينظر ولا يفهم.

من أجل هذا اختلف الناس في حكمهم على الأشياء وفي تذوقهم لها، وفي سلوكهم نحوها، ومن أجل هذا آمن المؤمن وكفر الكافر، ومن أجل هذا نبل النبيل، وسخف السخيف، وصلح الصالح، وفسد الفاسد.

فالمنظور واحد ولكن الناظر متعدد، والحق واحد والآراء مختلفة.

قد يبالغ الإنسان في تقويم نفسه - وهو الأغلب - فيمنحها من الأهمية في العالم ما ليس لها في الحقيقة؛ ويرى كأن الدنيا لا تنتظم إلا به، ولا تسير إلا بنفَسه، وإنه - في حقيقة أمره - ليس إلا ملكاً متخفياً. ويبالغ الصوفي في احتقار نفسه، فهي ليست شيئاً، ولا قيمة لها في حياتها أو مماتها؛ ثم ينظر كل من هذا وذاك إلى العالم على أساس هذا الاعتقاد؛ ويختلفان اختلافاً تاماً في تقويم الأشياء، وقلّ من يعرف نفسه على حقيقتها، ويقومها حق قيمتها.

ثم خداع النفس هذا قد يكون عاماً، وقد يكون خاصاً كالجنون، بعضه كليّ وبعضه فرعي؛ فيحدثنا الأطباء أن من المجانين من هو مجنون في كل شيء، ومنهم من هو مجنون في شيء خاص، فهو عاقل في كل شيء، ولكنه يعتقد أن له إصبعاً من زجاج، أو هو إنسان مألوف في كل شيء إلا في عقيدته أنه ملك سلب ملكه ونحو ذلك؛ وهذا هو الشأن في النفوس، قد تخدع النفس نفسها في كل شيء، في العلم والمال والخلق، وقد تكون عاقلة حكيمة، إلا فيما يتصل بعظمتها، فهي لم تتبوأ مركزها في الوجود، ولم يقدر الناس ما لها من قيمة. وقد يكون خداع النفس منصباً على الشؤون المالية وحدها، فهو حريص كل الحرص، يخدع نفسه بالخوف من الفقر، والخوف من الاغتصاب، وهكذا الخداع فنون، كما أن الجنون فنون، وكل الناس خادع لنفسه، ومخدوع بنفسه، إلا من رحم ربك. وقليل ما هم.

* * *

من صور الحياة

وسطٌ في ثقافته وعقله، وسطٌ في خلقه، ولكن آتاه الله بسطة في المال، وقوة في الجاه، وحظًا في مباهج الحياة. له المزارع الواسعة بحيواناتها وآلاتها تغل عليه خيراتها، وله القصر الفخم على البحر يتخذه مصيفًا، وعلى حافة الصحراء يتخذه مشتًى؛ ما اشتهى شيئًا إلا كان لديه حاضرًا، فالمال لا يعز عليه شيء. كل الناس مسخَّرة له، تنفذ إشارته وتمجد إرادته، سواء منهم من انتفع بغناه ومن لم ينتفع. طلبه نافذ بين رجال الحكومة لجاهه، وفي بلده لماله وعند من لم يعرفه لمنظره الفخم ورنة صوته التي توحي بالعظمة والسلطان. استطاع المال أن يجعل منه «باشا»، وأن يتخذ منه عضوًا في البرلمان، على اختلاف الحكومات في ألوانها ومذاهبها. تخالَف قوانين الري لسقي أرضه، وتعطل اللوائح لتحقيق غرضه، ويقف تنفيذ الأحكام عليه خوفًا من بطشه.

لم تستطع رغباته الكثيرة، ولا مطالبه الوفيرة، ولا نفقاته الواسعة أن تنقص شيئًا من ماله، بل كل سنة يشتري أرضًا جديدة وأسهمًا في الشركات جديدة.

ولم يذق يومًا طعم الحاجة ولا ألم الدَّين، ولا تمنّى شيئًا، ثم لم يجد من المال ما يسعفه، بل إنْ حقّ له أن يشكو شيئًا فهو أنه يأكل في الحياة من مائدة فخمة دائمًا ليس فيها توابل، وينعم دائمًا نعمة لم يلوّنها الشقاء.

ثم تزوج فسعد في زواجه سعادته في ماله، ضم بزواجه مالًا إلى مال، وجاهًا إلى جاه، ونعيمًا إلى نعيم، ورأى في زوجته ما يتمنى من جمال ومن خلق ومن ذوق.

تكشفت له الدنيا عن صورتها الجميلة، وحجبت عنه كل نواحيها السيئة، فكان يعجب من شكوى الناس ومن ذم الدنيا، ويقيس كل شيء بمقياسه، فيرى أن ليس في الإمكان أبدع مما كان؛ ويعلل شكوى الناس بسوء طباعهم، وفقرهم بقلة عقلهم، وألمهم بضيق نظرهم.

* * *

لم يرزق من الدنيا إلا ابناً واحدًا وضع فيه كل أمله، ومنحه كل عنايته ورعايته، حتى شبّ كأحسن ما يكون الشباب صحة وثقافة وخلقًا.

أخذته الحمى فارتفعت حرارته، وذبل جسمه، واصفر وجهه، وغاب عقله، وبذل الأب كل ما يستطيع لنجاته؛ هؤلاء أشهر الأطباء، وهذا أعز الدواء، وهؤلاء الممرضات ينفذن التعاليم في دقة وإحكام، وهذا كل ما يستطاع وما لا يستطاع لإنقاذه.

وينظر الأب إلى مزارعه الفسيحة ودنياه العريضة فيراها أضيق من سَم الخياط.

يتمنى أن لو جرّد من كل ثروته، ومن كل صحته، ومن عينيه يبصر بهما، وأذنيه يسمع بهما، ليبرأ ابنه من المرض، وينجو من الموت. ويرجو أن يكون سائلًا يتكفف الناس، ومعدمًا لا يجد قوت يومه، ومسكينًا لا يملك من الدنيا إلا ثوبه المهلهل يستر جسمه، ثم يشفي ابنه.

ويود أن لو كانت الصحة توهب فيهبها له، والحياة تمنح فيخلعها عليه، ويتشهى أن يفقد كل نعيم الدنيا لينعم -فقط- بابنه صحيحًا بجانبه.

كان يؤمن بالطب فدعا الأطباء، وكان يفكر بالرقى والتعاويذ ودعوة للصالحين فآمن بها وتشفّع بأهلها، وكان لا يذكر الله في سرائه فذكره في ضرائه، وحشد لشفاء ابنه كل ما يستطيع من قوى مادية وقوى روحانية.

ولكن غلب القدر فمات الولد.

* * *

لقد انقلب برنامج حياته رأسًا عن عقب، شكا الدنيا كما كان يشكو الناس، ولم يستطعم لذائذ الحياة كما كان يستطعمها من قبل. ما قيمة المزارع الواسعة والقصور المشيدة والمال الكثير إذا لم تكن نفس تتذوقها ورغبة تتشربها؟ وما جمال الدنيا إذا لم تكن عين تبصرها؟ وما الموسيقى الرائعة إذا لم تكن أذن تسمعها؟ إن النفس المرحة التي لم تصب بكارثة تجتاحها، تستطيع أن تخلق من العدم وجودًا، ومن الألم لذة. أما النفس التي براها الحزن فلا تستطيع أن تجد في الجنة متاعًا، والروح التي أظلمتها الكوارث لا تضيئها الشمس.

لقد وجد في الدِّين عزاءه الوحيد فتديّن. أدرك فشل المال والجاه في دفع المرض فآمن بسلطان القدر، ورأى عجز الطب والعلم والدواء فلجأ إلى من لا يعجز، وفهم أن الإلحاد يدعو إلى اليأس ويقرر فناء الميت فكفر بذلك كله، ورأى الإيمان يقول بحياة بعد هذه

الحياة، وتلاقٍ بعد الفراق، وفناء الجسم وحياة الروح، فطبق ذلك على ابنه وعلى نفسه، فبعث عنده الأمل وأحيا فيه الرجاء، وقرأ أن العمل الصالح يقربه إلى بغيته ويجعل الحياة الأخرى أسعد وأهنأ فأكثر من الصلاة والزكاة، وشارك في أعمال البر، وكان يقرأ القرآن ويقف كثيرًا عند آيات الجنة ونعيمها، فيتلهف شوقًا إلى أن يجمعه الله وابنه فيها. كان يناجي ربه «أن قد مات قلبي بموت ابني فأحيه بك، وقد انطفأت شعلتي فأمدها بنورك، إني فقير إليك فألهمني الصبر. لقد كنت في حلم فتبدد، وفي سعادة فزالت، وكنت معتمدًا على مالي وجاهي فإذا هما هباء، فلا ألجأ الآن إلا إليك، ولا أسألك الآن سعادة فقد مللتها، ولا شيئًا من متع الدنيا فقد زهدتها، وإنما أسألك أن ألمس قوتك لأستعين بها على حمل عبئي، وأن أمس رحمتك لألطف بها حرارة الحمّى في كبدي، وأن أسْبح في بحرك الواسع أطهر فيه نفسي من يأسي، وأن تنيلني قبسًا من حكمتك أدرك به الدنيا على حقيقتها، فلا أجزع لمصايبها، ولا أخدع بزخارفها.

أي ربي - اغفر لي جهلي بك، وغروري بمالي، واعتزازي بجاهي، فلا عز إلا بك، ولا أمل إلا فيك، ولا اعتماد إلا عليك.

أي ربي - أسكن قلبي فقد صار هواءً، وآنس وحشتي فقد فزعت من كل شيء حولي، واطوِ الحياة طيًّا حتى ألقى وجهك ووجه ابني».

* * *

كان يقرأ الجرائد فأهم ما يلفت نظره أخبار الوفيات، ومصادمة السيارات، وحوادث الحريق، وخروج القطار والترام عن الطريق، ثم يعقد مقارنة دقيقة سريعة بين مصاب الناس ومصيبته، ثم يقرأ أخبار الحرب فيسليه إحصاء القتلى والجرحى وغرق السفن بمن فيها، وشن الغارات، وكثرة ضحايا الطائرات، ويقف عند ذلك طويلًا يفكر ويوازن، فإذا وقع نظره على حفلة عرس أو خبر خِطبة مرَّ بها سريعًا، وعلق عليها بأن السرور ظلٌّ زائل، والسعادة حلم نائم.

وأخذ يتذوق الأدب، ولكن لم يعجب فيه بشيء إعجابه بقصائد الرثاء ولزوميات أبي العلاء. سمع الثناء على قصيدتي ابن الرومي في الرثاء فما زال يرددهما حتى حفظهما، وتخير من اللزوميات أنكاها في شكوى الزمان وحقارة الدنيا وفساد العالم.

ولم يعجبه من المجتمعات إلا عزاء في ميت أو حديث وعظ في مسجد، ودلوه على

كتاب مخطوط في دار الكتب للسيوطي اسمه «فضل الجَلَد عند فقد الولد»، فذهب ونسخه بيده.

* * *

ما الدنيا إذا كانت تذهب في لحظة؟ وما النعيم يضيع في لمحة؟ وما كل شيء في الدنيا بجانب الحياة؟

الحياة عرض، ونعيمها وشقاؤها عرض العرض.

موجة سارت إلى الشاطئ ثم اختفت، ولفافة تحللت إلى دخان، ثم تحلل الدخان في اللانهاية.

كلمة لفظ بها ثم انتهت.

لم يسلم أحد من لطمة القدر لعلل لم ندرك أسرارها ولا الغرض منها، والحياة طريق مملوء بالأشواك لا يسلم مارٌّ من أن يُشَاك بها، ومهما اختلفت المسالك فستنتهي بالنتيجة المحتومة: بالموت، إليه ينتهي كل سالك من ملك وصعلوك، وبه تحلل كل كمية من اللذة والألم إلى صفر.

ثم إن هذا الطريق -طريق الحياة- امتحان شاقٌّ للسالكين، فمنهم من يجتازه في خوف وضعف، كلما مسته شوكة صرخ وتحطمت نفسه وسقط من الإعياء؛ ومنهم من يجتازه في شجاعة وقوة واحتمال، فمهما أصابه فإنه يركن إلى ركن ركين من قوة نفسه وحكمته وروحانيته.

لا شيء يضيء هذا الطريق الشائك المظلم إلا طهارة النفس ونور القلب وسمو الروح؛ إن أضاء القلب بدد ضوؤه ضباب الطريق، وإن طهرت النفس انسجمت مع العالم، وإن سمت الروح لم تعد المادة إلا جسم الشمعة لا نورها، وغمد السيف لا نصله، وجذع الشجرة لا ثمرتها ولا زهرتها، فلا يأبه كثيرًا بالحوادث، ولا تحطمه الكوارث، إن مَسَّهُ الخير فليس منوعًا، وإن أصابه الشر فليس جزوعًا.

* * *

مع الطير

من نعم الله عليّ أن غَنِيتْ حديقتي الصغيرة هذه الأيام بالطيور، فهذه شجرة -لا أدري السر فيها- جذبت العصافير الكثيرة إليها، فهي في حركة دائمة حولها وفيها؛ وهذه بعض زوايا البيت عشَّش فيها اليمام يغرد من حين إلى حين بصوته الشجي الجميل. ولوددت أن أتخيّر من الطيور أجملها وأظرفها وأضعها في أقفاص تحت سمعي وبصري، أستمتع بجمال شكلها وجمال صوتها، لولا ما يؤلمني من حبسها.

هي أحب الحيوان إليّ وأقربه إلى قلبي، وهي تقوم في عالم الحيوان مقام الأديب والفنان في عالم الإنسان، جمال في شكلها، جمال في هندامها، جمال في غنائها، مرح في حياتها، ظرافة في بناء عشها، حنان في حبها لأولادها.

* * *

أبرز شيء فيها عواطفها، فهي تغنّي استجابة لعاطفة، وتمرح لعاطفة، وتتحبب لجنسها وأولادها لعاطفة، وبحق علّمت الإنسان الأول أن يواري سوأة أخيه بعد موته، فقال: «يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواريَ سوأة أخي، فأصبح من النادمين» -كما علمته درس الحرية، ولقد كان حرًّا مثلها، ثم أباح لنفسه أن يُغَلَّ غُلاً بعد غلّ، فلما استثقل حمل الأغلال أخذ يجاهد في فكها قيدًا بعد قيد ولما ينجح. وغار من الطير فأخذ يحبسه حبس نفسه، ويتحين الفرص لصيده وتكبيله، فما يجد الطائر فرصة للفرار حتى يهرب، ولو كان قفصه من ذهب، وحبه أغلى حب، وشرابه ماء الورد، ضنًّا بحريته أن تباع بأي ثمن، وأن تُسترقَّ بأي جزاء. حافظ على حريته من مبدئه إلى منتهاه، لا كالإنسان الأبله يرضى بالقيود، ثم يبذل في فكها الجهود، وما كان أحراه ألا يقيد ولا يفك. قديمًا حكوا أن رجلًا كان يدعو: «ربنا أدخِلْنا بيوت الظالمين وأخرجنا منها سالمين». فأجابه آخر: «وما أدخلك وما أخرجك!».

* * *

حلوة الغناء، تغنّي حبًّا، وتغني سرورًا ومرحًا؛ تغني سرورًا في موسم الوصال، وتغني أسًى وضنًى وحزنًا يوم الفراق، وكم وددت أن يسجل صوت الطيور وأغانيها على أسطوانات أو على شريط الراديو حتى أكررها على سمعي كلما شئت، فهي أفعل في نفسي من كثير من أغاني الإنسان؛ ولكن لا، لست أريد حبسها ولا حبس أصواتها، فلتكن حرة في كل شيء لها، ولو حرمْتُ الاستمتاع بها وبأصواتها.

إن موسيقاها متنوعة تنوع نغمات البيان، علوًّا وانخفاضًا، ورقة وغلظًا، وقوة وضعفًا، تغنّي إذا هاجت عواطفها ليلًا أو نهارًا. وما أحلاها وهي تغني فتقفز من شجرة إلى شجرة، ومن سطح إلى سطح، مندفعة في سيرانها بشكل كله خفة ورشاقة! لقد حرمنا دقة الملاحظة فحسبنا أن كل أصواتها سواء، وأن غناء كل نوع منها متشابه؛ ولكن ما أبعد هذا عن الحق، فهي تغني مناغاة للحب، وتغني محذرة من خطر، وتغني سرورًا بحياة الربيع، وتغني دعوة إلى الرحيل، وتغني حزنًا على فقد حبيب! فما أكثر أغانيها وما أغبانا في فهمها! لَغايةُ مغنينا أن يكون «بلبل الشرق»، وغاية أديبنا أن يكتب «هدية الكروان» و«دعاء الكروان».

* * *

أمامي الآن يمامتان ظريفتان حقًّا، سكنتا بالقرب من غرفة نومي، ما أجمل غناءهما، وخاصة في الفجر إذا شعشع النور، وما أرشق حركتهما، لا عيب فيهما إلا أني آنس بهما ولا تأنسان بي، وأحن إليهما وتفرقان مني- ما ألطفهما وألطف نوعهما وألطف الحمام كله! لقد كان ذوق رسول الله (ﷺ) ظريفًا حقًّا، إذ روي أنه كان يعجبه النظر إلى الخضرة وإلى الأترُجّ وإلى الحمام الأحمر؛ وشكا إليه «عليّ» الوحشة فقال له: «اتخذ زوجًا من حمام تؤنسك وتوقظك للصلاة».

ظريف هذا الحمام كل الظرف! غزله علّم الإنسان الغزل، يدعو فتتمنع، ثم تجيب وتلوي عنه عنقها، «ثم يتعاشقان ويتطاوعان»، ثم ما شئت منه من رشف وتقبيل، ثم ما شئت منها من تيه ودلال، ثم ما شئت منهما من فرح ومرح بالوصال.

ثم هو لطيف في حنانه على ولده، أرأيت كيف يقلب بيضه حتى تنال جوانب كل بيضة حظها من حرارته وحَضْنه؟ أورأيت تعاقبه ذكرًا وأنثى على رعاية بيضه وفرخه في الحضن والتغذية؟ أو هل رأيت عنايته بعشه كيف يتخير مكانه، وكيف يتخير عيدانه، ثم ينسجها نسجًا متداخلًا؟ وكيف يهندسه ليحفظ البيض من التدحرج، ثم يتعاون الذكر والأنثى على العش: «يسخنانه ويطيبانه وينفيان عنه طبعه الأول، ويحدثان له طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما،

ومستخرجة من رائحة أبدانهما. . . لكي تقع البيضة إذا وضعت في موضع أشبه المواضع بأرحام الحمام[1]»؟

ليت كل أسرة تربي في بيتها حمامًا وترقب عيشته، فيتعلم منه الآباء كيف تكون العناية وكيف يكون الحنان، ويتعلم منه الأبناء كيف يجازون جهد الآباء وتضحيتهم.

* * *

لتمنيت أن تكون الطيور كالأزهار، آنس بها وتأنس بي، وأكون بجوارها وتألف جواري، ولكنها سيئة الظن بالإنسان جدًّا؛ ولعلها وحدها التي عرفت حقيقة الإنسان فهربت منه، وأبت أن يكون بينها وبينه رابطة، تحوم حوله في حذر، وتمس أرضه في وجل، وتفضل حياتها القليلة - تتعب في البحث عنها - على القرب منه، وإن كان معه شبعها وريها، أنفة منه، وكراهية له، وضنا بحريتها وطلاقتها.

هل عرفت بغريزتها طبيعته ففرت منه ابتداءً، أو سالمته وأنست به، فلما جربته ورأت أنانيته وسوء سلوكه رسمت خطتها في البعد عنه؟ أقرب ظني أنه الوجه الثاني، فإنها تأنس ببعض الحيوان الذي لا يؤذيها. ويذكر بعض الرحالين أنهم نزلوا في جزيرة لم ينزلها قبلهم إنسان، فرأوا طيورها تألفهم وتطير عليهم وتأكل من الحب في أيديهم، وهذا حمام الحرم أمن شر الإنسان فاستأمن، وأنس به الإنسان فاستأنس. فلولا ما رآه قديمًا- من مطاردة الإنسان ومحاولاته نصب الشباك له والإيقاع به بكل الأشكال، واستلذاذه قتله، وتعلمه الرماية فيه، وتصويب أسلحته عليه- ما ذعر من الإنسان هذا الذعر، ثم هو قد رآه خائنًا غادرًا، غفر له أولًا إن كان جائعًا فصاده ليأكله، فكيف يغفر له إن رآه شبعان، ثم يصيده لمجرد اللذة في قتله؟ وعجب كيف يكون مجرد القتل لذة، فعدّ الإنسان -بحق- أعدى أعدائه، ولم يقرب منه للضرورة إلا وترتعد فرائصه، وأسرّ الآباء للأبناء هذا السر الرهيب، فما رأى طائر إنسانًا إلا واستحضر هذا السر وأدركه الفزع منه.

* * *

من عظمة الطير أن الإنسان سهل عليه أن يدرك مزايا الحيوان فيقلدها وينتفع بتقليدها، تعلم من الأسد شجاعته، ومن القرد كياسته، ومن الحِرباء تلونها، ومن الذئاب خداعها،

---

(1) الحيوان للجاحظ.

ومن الثعالب روغانها، ومن النحل مهارتها في صناعتها، ومن النمل جده وادخاره. . .إلخ. ولكن مرّت آلاف السنين، وهو يعجب من الطير كيف يطير، وحاول تقليده فلم ينجح؛ وأخيرًا جدًّا بعد أن شاب الزمن اهتدى إلى سر طيرانه فطار، وليته لم يطر؛ فقد عاش الطير منذ خلق وهو يطير من ظلم الإنسان، ولا يظلم الإنسان، ويطير جمالًا ولا يطير قبحًا، ويطير سرورًا إلى عشه، وحنينًا إلى إلفه، وطلبًا في رزقه، فلما طار الإنسان لوّن طيرانه بشره فخرب ودمّر، وسفك وأهلك، وكرَّه إلينا السماء والقمر، وطأطأ رؤوسنا مما لزمنا من عار وخجل فيالله للإنسان!

ومع هذا التقليد من الإنسان لا يزال أمر الطير عجبًا أي عجب! فهو يقطع المسافات الشاسعة باحثًا عن غذائه ودفئه، فما كان منه في شمالي آسيا يأتي في الربيع إلى مصر، وما كان في شمالي أوروبا يرحل إلى جزائر في البحر الأبيض، أو يعبره إلى أفريقيا، ويرجل أكثر ما يكون ليلًا يتقي الأخطار، ويهتدي بالريح وبالشواطئ وسير الأنهار، ويعلو في طيره عن الأرض ميلًا إلى ثلاثة أميال، ثم هو يقطع آلاف الأميال عابرًا البر والبحر من غير دليل إلا طبيعته، فإذا لم يقتله الإنسان عاد كما جاء إلى عشه مهتديًا بذاكرته. فسبحان خالقه.

* * *

تحسن الطيور إلى الإنسان كثيرًا ويؤذيها الإنسان كثيرًا. فهل كان الإنسان يستطيع أن يحصل على قوته وزرعه لو لم يعنه الطير على الفتك بدوده وحشراته؟ فمئاتها طعام كل يوم لكل طير من أكلَتها، فكيف لو سلطت على مزارع الإنسان ولم تسعفه الطيور فتقضي عليها؟ إذًا لرأيت الأرض غطيت بالدود، واكتسحت الزرع وأعقبه فناء الإنسان. لقد أحصى ظريف ما تأكله الطيور من الدود في مقاطعة في أمريكا فكان مليونين ونصفًا كل يوم، فقدِّرْ حالتها لو تركت وتناسلت؛ ومع هذا كله جهل الإنسان فضل الطير، واتخذه ملهاة لصيده، ومجالًا لقماره، وملعبًا لرمايته؛ كان المتوحش يصيدُ طالبًا لغذائه، فأصبح المتمدن يصيد مَلأً لفراغه.

* * *

لقد عجب أوروبي أن الطيور في مصر لا تغنِّي كثيرًا، فلك الله أيها العاجب. فلمَ تغني وكيف تغني ولمن تغني؟ لو رأت ما يسرها لغنت، فالأسى يبعث الأسى، والسرور يبعث السرور، وسعادة الجار تتضح على الجار، ولو ضحك مَن في الأرض لضحك من في السماء، ولو غنت الطير في مصر كثيرًا لغنت حزينًا كما غنى الناس حزينًا، ولكن تأبى طباعها إذا غنت إلا أن يكون غناؤها مرحًا، وطيرها فرحًا. ففضلت السكوت إلا أن تلح بها

الحاجة. وهل سمع الناس -يا أخي- غناءها القليل لتفيض عليهم بالكثير؟ إنهم في شغل عن جمال الطبيعة بتزييف الصناعة، وعن غناء السرور بغناء الحزن، وعن النداء العالي بالنداء السافل، وعن التسامي بالتدلي؛ فيوم يبتهج أهل الأرض يبتهج أهل السماء، ويوم يسعد السكان يغني الطير، ويوم يتسامى الناس تعلو أغراضهم وتطير نفوسهم، فتحاذي الطير ويحدو لها، فيمرح كثيرًا ويغني كثيرًا.

* * *

ولفخر للطير عظيم أن تُخلَق الملائكة خلقته، وتعار أجنحته ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ **[فاطر: 1]**.

* * *

حوار في أسرة

كانت أسرة وسطًا، لم يفسدها الفقر، ولم يبطرها الغنى؛ تتمثل فيها الإنسانية بصنوفها، فأبٌ وأمٌّ وابن وبنت؛ كان الأبوان من الجيل الماضي بأخلاقه وميوله، وتقاليده وعقائده، يكرهان البهرجة والرياء، ويغاران على سمعتهما كل الغيرة، ويحرّمان على أنفسهما اللذائذ إلا ما أحلّ الله، ويدبران ما لهما على قدر مطالب الحياة، ولا يسمحان لأنفسهما أن يقترضا لأي سبب وفي أي ظرف.

حتى شبّ الابن وشبَّت البنت في ظروف غير ظروفهما، وحياة غير حياتهما وجيل غير جيلهما - نشآ بين أغاني الراديو ومناظر السينما ومشاهد التمثيل، وفي بحبوحة الحرية وبهرجة السفور والإعتداد بالشخصية، ونظرا إلى أبويهما نظرهما إلى التاريخ القديم وآثار القرون الوسطى، تحترم لقدمها لا لصلاحيتها، وتبجل لدلالتها على زمنها لا لرقيها. ونظر الأبوان إليهما نظر الآمل ضاع أمله، والسلطان خرج الأمر من يده، والمربي فشل في تربيته؛ فهم إن جمعتهم أسرة فأهواؤهم متفرقة وقلوبهم موزعة وآراؤهم متباينة، وإن ضمهم بيت واحد فلضرورة الحياة لا وحدة المشرب.

* * *

كانت ليلة سعيدة تلك التي اجتمعوا فيها على مائدة المنزل يتصالحون بعد خصام، ويتعاتبون بعد نفار، ويتصارحون بعد الكتمان، وحضّر وليمة الصلح قريب للأسرة يحترمه الجميع لسعة عقله وصدق نظره وحسن حديثه قد منحته الطبيعة ما منحت البلسم لمداواة الجروح وما منحت الدواء لشفاء الداء، متقدم في السن ولكن عقله من عقول المستقبل لا الماضي ولا الحاضر، خبير بالماضي بما قرأ، وبالحاضر بما شاهد، وبالمستقبل بما استنتج، له جاهه بالمنصب وجاهه في المال وجاهه في العلم وجاهه في الخلق، فإذا تكلم أنصت الجميع وأطاع الجميع، رأيه الحق وقوله الفصل.

قال الأب لابنه: كم تعبتُ في تربيتك، وعانيت الأمرّين في العناية بك، وسهرت الليالي لمرضك، وهجرت راحتي لراحتك، وضيقت على نفسي في الإنفاق لأوسع عليك، وحرمت

نفسي من اللذائذ لأوفرها لك، فإذا جاء زمن تعليمك في المدرسة فكم بذلت جهدي لتنجح، وأنفقت مالي لتكون رجلًا، وترقبت النتيجة كل عام في وجل من رسوبك؛ وعلى الجملة إن تعدَّ نعمي عليك لا تحصيها، فقد ضحيت كل شيء لي في سبيلك، وأغمضت عيني عن كل شيء وراء هذه الدار لأجلك؛ أفحين شاب رأسي وضعفت قوتي، وحين صرتَ رجلًا تهدر كل هذه التضحيات، وتكافئ الجميل بالقبيح، والإحسان بالجحود؟

قال الإبن: لقد أكثرت يا أبي من ذكر التضحية والإحسان، والجميل والمعروف، فهل فعلت شيئًا أكثر مما يجب عليك وعلى كل أب أن يفعله؟ إنك تفسد ما أدّيت من واجب بالمنّ به، وتذهب جمال التضحية بذكر اسمها. إنك تريدني أن أكون ذيلًا لك أتبعك في حركاتك وسكونك وميولك، فهل هذا يتفق والطبيعة؟ إن زمني غير زمنك، وآمالي غير آمالك، ونظراتي إلى الحياة غير نظرتك، إن الثمرة إذا نضجت فارقت شجرتها، إنني شاب أخضع لقوانين الشباب ويجري فيّ دم الحياة، وتملؤني الآمال وتستهويني المغامرات، فمحال أن تخضع إرادتي لإرادتك، وليس لك مني إلا احترامك وإجلالك. لا بد لي أن أعيش حسب طبيعتي وشخصيتي وزمني وأملي، حتى أحقق غرضي أنا في الحياة لا غرضك لي. ولَأن أشكرك على أن أبحت لي حرية العمل خير من أن أشكرك على أن تعاملني معاملة طفل كبير يحتاج إلى الرعاية دائمًا، بل إن تركت لي الحرية فأنا أشكرك وعملي الحرّ الطليق يشكرك، ويعترف لك بفضل أنك نزلت عن استبدادك وسلطانك، وسايرت الزمن في تغيره الطبيعي وتقدمه المستمر، ثم لا تخشَ من خطئي إن أخطأت، فسأتعلم من خطئي أكثر مما أتعلم من تحذيرك، وأستفيد من فشلي أكثر مما أستفيد من نصائحك، ولأن أكون رجلًا يخطئ خير من أن أكون حجرًا لا يخطئ. وليس أضْيَع من ابن سلبت إرادته، ولو كان السالب لها أباه، ولا أفشل من إنسان أحيط بالرعاية التامة فمنعته الرعاية من أن يجرب بنفسه الحياة. دعني أتعلم السباحة في بحر الحياة، ولا بأس إن غرقت، فسأغرق حتمًا إن لم أتعلم العوم، وسأغرق احتمالًا إن تعلمته.

دهش الأب من هذا الحديث الصريح الجريء، وأطال التفكير.

فانتهزت الأم فرصة هذا السكوت وخاطبت ابنتها:

– إن موقفي معك موقف أبيك من أخيك... لقد وقفت حياتي على العناية بك، وكم خفق قلبي حزنًا لألمك وسرورًا لسرورك، وعددتك صورة مني، واتخذتك في الحياة أملي، وأنست بك أكثر من أنسي بأخيك؛ لأنك من جنسي، أعرف شعورك كما أَعرف شعوري،

وتدور برأسك الأفكار التي كانت تدور برأسي، وتتحركين بالعواطف التي كانت تحركني، وقد اختصصتك بأسراري وآمالي وآلامي، وحرمت نفسي من الخير لخيرك، وتحملت الآلام لراحتك ونعيمك، والآن وقد صرت شابة لم أرَ قلبك يتناغم مع دقات قلبي، ولا عطفك يساير عطفي، وأرى شخصك في البيت وأحلامك وآمالك خارج البيت، وأرى حبًّا مني لا يقابل بحب منك، وحناني لا يجازَى بحنانك.

قالت البنت: أصارحك يا أمي أني أحترمك أمًّا، ولكن لا تنتظري أن تكوني معقد أملي ومجال حبي، إنك إن تطلبي ذلك تطلبي محالًا في الطبيعة، إن كان الحب أنواعًا فنوع منه أساسه الاحترام والاعتراف بالجميل، وهذا لك مني، ولكن هناك نوع آخر من الحب أسمى وأرقى وأصفى، وهذا أمنحه لمن يكون زوجي، إن الرابطة بيني وبينك رابطة الدم، والرابطة بيني وبينه رابطة الروح، إني ألجأ إليك حتى ينضج هذا الحب، كما تبقى الثمرة على شجرتها حتى تنضج، وألجأ إليك -لا قدر الله- إذا فشل هذا الحب، ففيك العزاء - سأحافظ على شرفي من أجلي وأجلك وأجل أبي، وسأحافظ على الوفاء لك لمعروفك عندي، ولكن ليس من حقك أن تطلبي مني الحب الروحي الخالص الذي لم تعدّه الطبيعة إلا للأليف. إذا طلبت إجلالًا واحترامًا فهذا حقّ لك جزاء تضحيتك، وإذا طلبت حبًّا ساميًا خالصًا روحيًّا فليس ذلك لك ولا تجابين إليه؛ لأنك إذ ذاك لا تتكلمين باسم التضحية ولكن باسم الأنانية.

دهشت الأم كما دهش الأب من قبل، وساد الجميع سكون عميق.

ثم بدأت الزوجة تقول لزوجها: ما دمنا وصلنا إلى هذه الدرجة من الصراحة ومن العتاب، فلأصارحك بما في نفسي: لقد أصبحت حياتي معك عناءً في عناء، حرمت متاع الدنيا لإدارة البيت ومطالبك ومطالب أولادك، وأصبت بالأمراض، وأنا طول النهار موزعة بين نظافة البيت وإعداد الأكل إلى ما لا يحصى من مطالب، فلا يجيء وقت النوم إلا وقد دار رأسي، وفتر جسمي وكَلّ عقلي؛ وقد أصبح البيت سجنًا أبديًا مظلمًا، ليس له نافذة إلى العالم - ومع هذا كله لا أرى منك اعترافًا بحسن صنيع ولا إقرارًا بجميل، ولا مظهرًا لحب، ولا تقديرًا لقديم؛ وأصبحت المعيشة كآلة تدور بلا زيت، وزيت الحياة هو العطف والحب، وقد فقدا، فلست أسمع إلا أوامر جافة، ونواهي حازمة قاسية، متى يأتي الموت ففيه راحتي؟

قال الزوج: وهل أنا أقل منك في حمل الأعباء واحتمال الرزايا؟ فلا أزال أسعى وأكد سدادًا لمطالبكم، وحرصًا على راحتكم، وليس لي نصيب مما أجمع إلا أقل من نصيب

أحدكم؛ ولو كنت وحدي لكنت سعيدًا، أنعم بملذات الحياة ولا أحمل عبء الواجب، وأعيش كالفراشة تنتقل من زهرة إلى زهرة، ثم تتطلبين أن أظهر لك بمظهر الحب كأيامنا الأولى، ونسيت أن الزمن له حكمه، فالحب إن لم ينطفئ هدأ، والنار تشتعل ثم تكون رمادًا، وطول العشرة يُذهب الكلفة ويذهب بالتصنع، وأنت تغارين أن أضحك مع الضيوف ولا أضحك معك، وأمزح مع الأصدقاء ولا أمزح معك، وتحاسبينني على أني أتكلم في التليفون برقة لا تبدو في خطابي معك؛ وفاتك أن التصنع عبء ثقيل يتكلفه المرء مع الغريب، وثوب مصطنع مع الناس؛ فكيف تكلفينني أن أتصنع دائمًا وأُرائي دائمًا؟ ألا ترينني أتجمل في ملبسي إذا خرجت وأتبذل إذا رجعت؟ أتريدينني مرائيًا حتى في البيت، ومتصنعًا حتى معك؟ فأين إذًا تكون سعادة المعيشة على الفطرة - ثم لا تكثري من ذكر التضحية، فتضحيتك لا تساوي شيئًا بجانب تضحيتي، ومتاعبك تافهة بجانب متاعبي - أين عمل اليد من عمل العقل، وأين مطالب الأولاد من مطالب الرؤساء، وأين تعب الإنفاق من تعب الكسب؟

* * *

ساد الجميع سكون رهيب، وانتهى الأكل ولم يشعروا أنهم أكلوا، وانتهت الأصناف ولو سألتهم ما دروا ماذا طعموا؛ لأن الحديث التهم عقولهم وأفكارهم، وتسلط على كل حواسهم، ثم انتقلوا إلى حجرة أخرى وانتظروا كلام الشيخ الحكيم.

بدأ الشيخ يقول:

- لعل أسرتكم هذه من خير الأسر شعورًا بالتبعة وأداءًا للواجب، وإن متاعبكم التي سمعت الليلة بعضها ليست شيئًا بجانب ما أعلم من أسر تحطمت، وبيوت خربت، وأمراض فتكت، وكانت أمراضها أشكالًا وألوانًا، هذه مرضها في ربها، سَكِرَ وقامر حتى خرَّ البيت على رأسه، وهذه مرضها في ربتها، أسرفت في ملذاتها وملاهيها حتى انهار البنيان عليها، وهذه مرضها في أبنائها وبناتها، أسرفوا على أنفسهم، وجرفهم تيار المدنية حتى أصبح البيت شعلة من نار، لا يستقر لأهله قرار.

أما أنتم فمرضكم على هامش الأسرة لا في صميمها، والأعراض قريبة العلاج سهلة الدواء، ويخيل إليّ أنها ترجع إلى سببين: أولهما - أن الأبوين لم يُدخلا في حسابهما عامل الزمان، فلكل زمن تقاليده، ولكل جيل مطالبه؛ ومحال أن تتجاهلوا فعل الزمن وتغيير الأحداث وتطور الناشئة، فمنشأ كثير من النزاع تحجر عقول الآباء وقلة مرونتها، ومحاولتها

إخضاع الحاضر للماضي، وهو ما تأباه الطبيعة، إن أبنائكم مخلوقون لزمن غير زمانكم، فإما أن تحسبوا في سلوككم حساب زمانهم، وإما أن يثوروا عليكم. ألا ترون أن أثاث البيت من عشرين عامًا لا يصلح أن يكون أثاث بيت اليوم، وأن البِدَع في ملابس أمس غير البدع في ملابس اليوم، وأن طراز البيوت منذ أعوام غير طرازها الآن، وأن التربية والتعليم ومناهجهما ونظمهما منذ عهد قريب غيرهما في عهدنا؟ فلماذا تؤمنون بهذا كله ولا تؤمنون بتغير طباع الأولاد وعاداتهم وتقاليدهم، وتودون أن تسلكوا معهم سلوك آبائكم معكم، على أن الفرق كبير بينكم وبين آبائكم وبينكم وبين أبنائكم! فقد حدثت في العالم ثورة قلبت الأوضاع وكسرت الحدود، ولا أمل في المسالمة وحسن العلاقة بينكم وبين أبنائكم إلا أن تفهموا الواقع وتسايروا الزمان؛ نعم إن الأبناء يجب أن يعذروكم في نظرتكم ويقدروا حسن نيتكم، ولكن من العسير أن يفهموا ذلك ولما تنضج عقولهم وتكتمل مشاعرهم.

وثاني الأمرين أني لمست في حديث كل منكم طغيان الشعور بـ«أنا» وضعف الشعور بـ«نحن»؛ إنّ «أنا» مبعث الاحتكاك والنزاع والخصام. فمتى برزت «أنا» في الميدان قابلتها «أنوات» أخرى تعاكسها وتحاربها. أما «نحن» فليس لها محارب؛ لأنها تعبير عن الجميع. إذا قلت: أنا ضحيت؛ قال الآخر: أنا ضحيت. وإذا قلت: أنا فعلت، قال الآخر: أنا فعلت. ولكن إن قلتم جميعًا «نحن» لم تكونوا في حاجة إلى «نحن» أخرى تعارضها.

إنكم في أسرتكم كالهواء في منزلكم، وأشعة الشمس تغمر حجركم، والروحانية ترفرف عليكم. إنها تسعكم جميعًا من غير نزاع. فكونوا كالهواء سعة، وأشعة الشمس امتدادًا، والروحانية شمولًا، تَضْمُر «أنا» فيضمر النزاع، ويضمر المن بالتضحية، إن «أنا» مظلمة ظلمة السجن، ضيقة ضيق القبر، و«نحن» شاملة شمول الشمس، منعشة إنعاش النسيم، سمحة سماح الكريم.

* * *

نزل كلام الشيخ بردًا وسلامًا على الجميع. كما استقبلوه بالتبجيل والتعظيم، وعاد كل إلى مأواه يفسر كلام الشيخ بما يهواه. وكل يُغنِّي على ليلاه.

* * *

سلطان العلماء

(1)

هذا لقب لقّبه به تلاميذه لما رأوا من سعة علمه، وعظمة خُلُقه، فسار اللقب في الناس، وأصبح في البلاد سلطانان: سلطان الدولة، وسلطان العلماء. وكان السلطانان أحيانًا ينسجمان ويتصالحان، وأحيانًا يتصارعان ويتصادمان؛ فيكون لصراعهما منظر رهيب كمنظر الجيوش إذا تقاتلت، والسباع إذا تصاولت، والديكة إذا تهارشت. وأكثر ما يدعو المنظر إلى الإعجاب إذا رأيت المحارب غير المسلح يغلب المحارب المسلح، وسلطان الدنيا بجنوده وبنوده يخضع لسلطان الدين وليس له جنود ولا بنود، إلا قوة الخلق، وقوة الحق، وقوة اليقين.

عُمّر «سلطان العلماء» هذا عمرًا طويلًا عريضًا، فقد عاش ثلاثة وثمانين عامًا، والأعوام وإن اتحدت في الطول فهي تختلف في العرض. فهناك أعوام طويلة لا عرض لها، وهناك أعوام طويلة عريضة، وهناك أعوام عقيم، وأعوام ولود. وأعوام «عالمنا» هذه أعوام خصبة طالما ولدت الأحداث العظام، والخطوب الجُلّى، فقد شاهدت دولة الأيوبيين في هرمها وآخر أيامها، وشاهدت دولة المماليك البحرية في نشأتها وعزها، وشاهدت بعض الحملات الصليبية على الشرق ومقاومته لها، وشاهدت حملة التتار على الممالك الإسلامية واكتساحهم لها، ووقوف مصر أمامهم تصد هجماتهم وتكسر شوكتهم، وشاهدت سقوط الخلافة العباسية في بغداد وانتقالها إلى القاهرة.

ذلك كله شاهدته حياة «عالمنا» الدمشقي. لقد ولد سنة 577، وتوفي سنة 660هـ. لقد نشأ في دمشق فقيرًا يعمل بيديه ليكسب عيشه ويحصل قوته، يبيت في مسجد دمشق إذ لم يجد له مأوى. وظل على هذا حتى صار شابًّا، ثم حبّب إليه أن يتعلم وهو كبير فقير، فمارس العلم وسُرعان ما نبغ فيه، ولفت النظر إليه، وجمع إلى العلم التصوف، فيأخذ العلم عن شيوخه، والتصوف عن رجاله، ويكسبه العلم سعة في عقله وصقلًا لذهنه، ويفيده التصوف

صفاءً في قلبه، ونورًا في روحه وقناعة وطمأنينة في نفسه، وزهدًا في نعيم الدنيا، وحبًّا لله وطلبًا لرضاه؛ فهو إذا تكلم رأيت علمًا غزيرًا من دراسته، ورأيت إخلاصًا من تصوفه، ورأيت هيبة وجلالًا، ونفوذًا لكلامه إلى قلوب سامعيه من قوة يقينه وصفاء روحه. وإذا بعالمنا «عبد العزيز بن عبد السلام، أو عز الدين بن عبد السلام» الذي كان يعمل بيديه نهارًا، ويفترش أرض المسجد ليلًا، خطيب الجامع الأموي وإمامه، وقبلة الناس ومنارهم، ومعقد رجائهم.

لقد رمى بنظره بعد أن نضج عقله، فرأى حال الدولة تدعو إلى الأسى، هذه الأسرة الأيوبية تقسَّمَ أبناؤها المملكة. ففرع في مصر، وفرع في دمشق، وفرع في حلب، وفرع فيما بين النهرين، وفرع في حماة، وفرع في حمص، وفرع في جزيرة العرب، وبين بعضهم وبعض إحن وعداء، وحزازة ودماء. والصليبيون على الأبواب، والتتار يتحفزون للوثوب، ولا قبل لهم بذلك كله إلا أن تذهب حزازاتهم، وتتوحد كلمتهم، وتصفو قلوبهم، ويُعدّوا ما استطاعوا من قوة، فاتخذ عالمنا هذا منهجه في الخطب على المنبر، وفي الوعظ، وفي نصح الأمراء. فها هو يدخل على الملك الأشرف موسى بن العادل بدمشق وهو يتأهب لغزو أخيه السلطان الكامل في مصر، فيقول له: هذا أخوك الكبير ورَحِمُك، وأنت مشهور بالفتوح والنصر على الأعداء، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين، فخير لك ألا تقطع رحمك، وأن تتوجه إلى نصر دين الله وإعزاز كلمته، وأن تحوّل وجهتك في مقاتلة أخيك إلى مقاتلة أعداء الله وأعداء المسلمين، وأن تتقرب إلى الله قبل ذلك بإصلاح داخل مملكتك، فتبطل المكوس، وترفع المظالم، وتمنع الخمور والفجور، فيصغي السلطان إلى نصيحته ويعمل بها، ويقول له: جزاك الله خيرًا عن إرشادك ونصيحتك. ثم أصلحَ ما في الداخل وحوّل وجهته إلى الخارج، وقدّم السلطان للشيخ ألف دينار يستعين بها على شؤون الدنيا، فردها الشيخ في لطف وقال: إن هذه نصيحة لله وللدين، فلا أكدرها بشيء من الدنيا، وذاعت نصيحة الشيخ وزهده في المال، فزاد مقامه علوًّا ومكانته رفعة.

* * *

لكن في كل عصر سخافات تستوجب الضحك، لولا أنها تحدث في مأتم، فهؤلاء ضيقو العقول من الحنابلة، والدولة كلها معرضة لخطر الغزو من عدوين لدودين قويين: وهما التتار والصليبيون - يعيدون فتنة خلق القرآن والكلام فيها كما كانت أيام المأمون والمعتصم والواثق، فهم يزعمون أن كلام الله القديم هو ما نقرؤه بألسنتنا، ونكتبه بمدادنا، ونخطّه في

أوراقنا، وترمقه عيوننا. والأشعرية من أهل السنة يرون أن كلام الله الأزلي القديم ليس بحرف ولا صوت، وإنما ألفاظنا وكتابتنا ومصاحفنا دلالة عليه، فيجب احترامها لدلالتها على كلامه، كما يجب احترام أسمائه لدلالتها على ذاته.

وتقوم الثورة في هذا بين الحنابلة والأشعرية، ويتبادلون السب والضرب، فهنا في دمشق مجادلات حارة ومناقشات حامية: هل الحروف والأصوات كلام الله؟ وهناك على مقربة منهم في صفوف الصليبيين دعوة حارة أخرى لتنظيم الآلات، وإعداد المعدات، وتوحيد الصفوف: هنا كلام وخصام في الكلام ودعوة إلى الانقسام، وهناك عمل وإعداد وسيوف وقنابل ودعوة إلى الوئام.

ويشتد النزاع بين الحنابلة والأشعرية: المكتوب والمقروء كلام الله - ليس المكتوب والمقروء كلام الله. كلمات يعلو بها صوت الناس في المساجد والشوارع والبيوت، ويتزعم فريقَ الأشعرية عالِمُنا. وأعوان السلطان منقسمون كذلك إلى قسمين، والسلطان يسمع من هؤلاء اتهامًا ومن هؤلاء إتهامًا: هؤلاء يتهمون الأشعرية بأنهم يستهينون بالمصحف، وهؤلاء يتهمون الحنابلة بأنهم مُجسِّدة. ويعكف العلماء من هؤلاء وهؤلاء على تأليف الرسائل واستنباط الأدلة. وأخيرًا يحار السلطان بينهم فيأمر بقطع الكلام في هذا الموضوع بتاتًا، ويأمر الشيخ عز الدين بأمور ثلاثة: ألا يفتي، وألا يجتمع بأحد، وأن يلزم بيته. فلما جاء الملك الكامل من مصر وسمع ما جرى قال للملك الأشرف: ما فعلت أكثر من أنك سويت بين أهل الحق والباطل، وحرضه على القول برأي الأشعرية ونصرة الشيخ عزالدين. ففعل وشدد على الحنابلة فسكنوا، وانتهت المشكلة بعد أن أخذت من قوتهم وأكلت من تفكيرهم، وعاد عز الدين إلى مجده وسلطانه.

* * *

أخذ الشيخ يدعو دعوته الأولى إلى أن يتحد سلاطين الأيوبيين وتتحد كلمة المسلمين، ويخطب في ذلك على منبر دمشق ويختم خطبته -في العادة- بقوله: «اللهم أبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا، تُعز فيه وليّك، وتُذل فيه عدوك، ويُعمَل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك»، والناس وراءه يبتهلون ابتهاله، ويدعون بدعائه، حتى ترتفع أصواتهم إلى عنان السماء.

وكان يقول: «كل جندي لا يخاطر بنفسه فليس بجندي»، و«المخاطرة بالنفوس مشروعة لإعزاز الدين»، و«ينبغي لكل عالم إذا أُذِل الحق وأهمل الصواب أن يبذل جهده في نصرهما، ومن آثر الله على نفسه آثره الله، ومن طلب رضا الله بما يسخط الناس رضي الله عنه وأرضى

عنه الناس، ومن طلب رضا الناس بما يسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، وفي رضا الله كفاية عن رضا كل أحد [من الطويل]:

«فَلَيْتَكَ تَحْلو والحياةُ مَريرةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضى والأنامُ غِضابُ»[1]

هذا بعض ما كان يقوله الشيخ. ولكن من كان يظن أن هذا القول الصريح الذي لا مجمجة فيه ولا إبهام يُؤَوَّل بأنه يريد به نصرة بعض الأيوبيين على بعض، ومن كان يظن أن هذه الدعوة التي يبذلها الشيخ إلى الاتحاد تنتكس ولا يستجاب لها، وتنتهي بأن الملك الصالح إسماعيل يصالح الصليبيين على أن يسلم لهم صَفدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين لينجدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب، ومن كان يظن أن الشيخ لا تُسمع دعوته، فيرى المسلمين في دمشق يبيعون السلاح للصليبيين ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين؟

لقد صرخ الشيخ من أعماق قلبه مستنكرًا هذه الأحوال، مستغيثًا بالله من هذه المخازي والأهوال؛ فاعتُقل وعذّب، فما بالى باعتقال ولا بعذاب. وجاءه رسول من قبل الصالح إسماعيل يحتال عليه كما يحتال الشيطان ويوسوس له ويخوفه ويمنيه؛ وأخيرًا يقول له: «ليس بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وأكثر منها إلا أن تطأطئ رأسك للسلطان وتقبل يده».

هاج الشيخ وغضب واحمر وجهه، وصاح في الرسول: «يا مسكين، والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلًا عن أن أقبّل يده. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

هؤلاء ملوك المسلمين في الشام يعبثون بحقوق المسلمين، ويسلمون الصليبيين الحصون والقلاع، ويسمحون لهم بشراء السلاح من بلادهم اليوم ليحاربوهم به غدًا، والشيخ في اعتقاله في خيمته، يحزّ في قلبه الألم مما صار إليه حال المسلمين، فيعكف على القرآن يتلوه وعلى العلم يَدْرسه. ويمر الملك الصالح إسماعيل الذي فعل تلك الأفاعيل مع ملك الفرنج من الصليبيين على الشيخ في خيمته، فيفتخر الملك ويزهى بعمله ويقول:

«هذا أكبر قسوس المسلمين، واعتقلته لأنه أنكر عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة وعن مناصبه، ثم أخرجته من دمشق، وأبعدته هنا في بيت المقدس، كل هذا لأجْلكم وحبًا في رضاكم».

قال ملك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لتشفعنا به وتبركنا بماء طهوره.

---

(1) البيت لأبي فراس الحمداني في ديوانه ص 41.

وانتصرت العساكر المصرية فأطلق سراح الشيخ، فأبى أن يكون في دمشق، حيث رأى ما رأى.

وفي سنة 639 رؤيت قافلة فيها شيخ أبيض اللحية مهيب وقور، يتجاوز الستين قليلًا، ومعه صديق له يبدو عليه أنه مصري اسمه ابن الحاجب[1] وفيها أسرتهما وأمتعتهما وأتباعهما، تجتاز بلاد الشام قاصدة مصر.

* * *

-2-

دخل عز الدين بن عبد السلام مصر، وقد سبقته شهرته بالعلم الواسع في مذهب الشافعية، وبغيرته الدينية وبعظمته الخلقية، وكان يعرفه بذلك كله ملك مصر «نجم الدين أيوب». فولاه الخطابة في جامع عمرو بن العاص، وقلّده القضاء في مصر (الفسطاط) والوجه القبلي (أما القاهرة فأفرد لها قاضيًا خاصًا)، وعهد إليه بعمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة.

وزاره المحدث الكبير وعالم مصر العظيم «عبد العظيم المُنْذري» فرأى من عز الدين فقهًا غزيرًا وعلمًا كثيرًا، ورأى عز الدين من عبد العظيم بحرًا في الحديث وعلمه، فامتنع «عبد العظيم» من الفتوى وقال: «لا أفتي وعز الدين بها، وامتنع عز الدين من «الحديث» وقال: لا أحدّث وعبد العظيم بها».

وسرعان ما شاهد الناس من «عز الدين» فصاحته في الخطابة، وعلمه بأسرار الفقه وإخلاصه في عمارة المساجد، ونزاهته في القضاء، وصلابته في الحق، فكانت مكانته في مصر كمكانته في الشام.

ولكن هذه المناصب مع هذه الأخلاق لا بد أن تصطدم بذوي الرغائب وأولي الجاه والسلطان، فالحق مُرّ لا يحلو في ذوقهم، والعدل ثقيل لا تهضمه نفوسهم، فما لقيه في الشام بدأ يلقاه في مصر.

هذا السلطان أيوب تُقبَّلُ الأرض بين يديه، فيستفظع «عزالدين» هذا العمل أيما استفظاع،

(1) ابن الحاجب: هو العالم الكبير والمؤلف المشهور في النحو والصرف والأصول.

ويستنكره في صراحة أمام السلطان وأمام الحاشية وأمام الجمهور، ويخشى أخصاؤه عليه من هذه الجرأة فيقول: «لقد استحضرت هيبة الله فرأيت السلطان أمامي قِطًا». ويطيع السلطان أمره وتنتهي المسألة بسلام.

ولكن كل يوم أحداث تؤلم الشيخ وتثير غضبه.

كان في منصب «أستاذ الدار» فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ، وقد كان عظيمًا في منصبه، فهو القيّم على الدواوين، والواسطة بين الرعية والسلطان، والمشرف على تحصيل الأموال من الملاك والمزارعين، والمتسلط على كثير من شؤون الدولة، كما كان عظيمًا في جاهه فأولاد شيخ الشيوخ الأربعة متقلدون أهم المناصب، مقربون إلى السلطان لأنهم إخوته من الرضاع.

هذا فخر الدين[1] - وهو ما قد رأيت - يعمد إلى مسجد من مساجد مصر، فيبني فوقه بناءً يتخذه «طبلخاناه» تضرب فيه الطبول، وتنفخ فيه الأبواق، وتزمر المزامير لاستدعاء الجند والإعلام بالنوبة، وكان لكل أمير «طبلخاناه» لجنده، تضرب فيها الصنج من النحاس بإيقاعات خاصة يدل كل إيقاع على معنى، فإذا خرج الجند للقتال صحبت كل فرقة «طبلخاناتها» تحمسهم للقتال، وتفهمهم حركات الحرب من تقدم أو تأخر، أو تجمع، أو نحو ذلك - ففخر الدين يبني هذه الطبلخاناه لأخيه عماد الدين، فالناس تحت في صلاة، والجنود، فوق رؤوسهم يطبّلون ويزمّرون، ويفسدون عليهم عباداتهم.

هذه قلة ذوق لا ترضي أحدًا. أفيليق أن تستخدم بيوت الله بيوتًا للجند؟ وأن يؤذن المؤذن للصلاة والجنود تنفخ في بوقها، وتزمّر بمزمارها، وتضرب بكاساتها؟ إن في هذا إفسادًا لسكون العابد، وانتهاكًا لحرمة الصلاة. وكان في الأرض ذات الطول والعرض ما يسع الطبل والزمر بعيدًا عن بيوت الله، ولكنه الغرور بالجاه الذي لا يعبأ بشيء.

وآذان المغرورين لا تسمع لنصح ناصح، ولا عظة واعظ، فما هو إلا أن يأخذ «عز الدين» أولاده وتلاميذه وأتباعه وبيدهم الفؤوس والمعاول. وإذا بحركة هدم عنيفة تقضي على الطبلخاناه في لمحة، وإذا الشيخ عائد إلى مكان القضاء فيحكم على «فخر الدين» بإسقاط عدالته وعدم قبول شهادته، ثم يسجل ذلك ويكتب استقالته ويرفعها إلى السلطان فيقبلها، ويجلس في بيته راضيًا عن عمله مخلصًا لربه.

---

(1) ينسب المقريزي في السلوك هذه الحادثة لمعين الدين أخي فخر الدين، وينسبها غيره لفخر الدين.

وتذيع الحادثة، وتَرِد على كل لسان في مصر، ويُعجَب المصريون بالشيخ وصلابته في الحق، وتضحيته بمناصبه حسبة لله؛ ويتنقل الخبر من مصر إلى الشام، ومن الشام إلى بغداد، حتى يصل إلى أذن الخليفة، فيُكبّر الشيخَ ويجلّه. وتشاء الأقدار أن يبعث السلطان برسالة إلى الخليفة؛ فيسأل الرسول: هل سمعتها من الرسول مشافهة؟ فيقول الرسول: لا - ولكن سمعتها من أستاذ الدار فخر الدين عثمان. فيقول الخليفة: لا أقبلها؛ لأن عز الدين أسقط فخر الدين فلا تقبل روايته.

* * *

استراح الشيخ من عناء المناصب الحكومية، وتفرغ للدرس، والتفَّ حوله نوابغ الطلبة الذين تصدروا للعلم في الجيل التالي، كابن دقيق العيد، وعلاء الدين الباجي، وهبة الله القفطي؛ فهو يدرس فقه الشافعية، وتتحلق حوله الطلبة يناظرون ويتفقهون ويستفتون، والشيخ في بيته يحضّر دروسه، وفي المسجد يلقي دروسه، وكلهم معجب بصفاء ذهنه، وصدق نظره في الاستنتاج الفقهي وسعة اطلاعه. وفي لحظة إعجاب قال تلميذه «ابن دقيق العيد»: إنه «سلطان العلماء»، فصادفت هوى من نفوس السامعين، وشاعت على الألسنة ولبست الشيخ، كما قرر صديقه ابن الحاجب أنه أفقه من الغزالي، وأصبح الشيخ مصدر حركة علمية واسعة في مصر، في الفقه والتوحيد والتصوف. وتأتيه الأسئلة الدينية من الأقطار الإسلامية فيفتي فيها. ويخطئ مرة في فتواه، فيرسل من ينادي في مجتمعات الناس: إن الشيخ أفتى بكذا، فلا يؤخذ به لأنه قد أخطأ في الفتوى.

* * *

ولكن اضطربت البلاد بغزو الصليبيين لمصر، فجمع لويس التاسع (ملك فرنسا) الجنود، وأعد الأسطول، وقاد ذلك كله بنفسه، وإذا بسبعمئة سفينة حربية صليبية محملة بالجنود وآلات القتال تظهر أمام دمياط، فيهرع أهلها إلى المنصورة. وتأتي الأخبار إلى مصر بأن الصليبيين أخذوا برج السلسل(وهو برج عال مبني في وسط النيل، ومن ناحيتيه سلسلتان عظيمتان إحداهما تمتد منه إلى دمياط، والأخرى منه إلى البحيرة، تمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها، وكانوا يسمون -بحق- هذا البرج بسلاسله «قُفْل الديار المصرية»)، ونزل الصليبيون دمياط وتوجّهوا إلى المنصورة.

تحوّل الشيخ عز الدين من عالم مدرس في المسجد إلى خطيب في المجتمعات يحرّض على القتال، ويؤلب المسلمين على الصليبيين، ويستحث الأمراء على السرعة في الإعداد،

والشعب على الإمداد، ويقوم بما تقوم به الآن الدعاية، مع فارق واحد، وهو تأسيس الدعاية إذ ذاك على العزة الدينية والغيرة الإسلامية.

وها هي الدعوة تستجاب، والعدة تعد، وينضم إلى جيوش الأمراء والمماليك وجنودهم طائفة كبيرة من العربان ومن عامة الشعب المصري، وإذا الشيخ عزالدين - الرجل الأشيب المسن - يسافر مع العسكر إلى المنصورة، وينضم في صفوفهم، ويخطب فيهم، والجنود، إذا رأوه ازدادوا حماسة وقوة، وامتلأوا أملًا في الله، وعقيدة في النصر.

حارب المسلمون في البر والنيل، وانكسر الصليبيون، وأُسر لويس التاسع واعتقل في دار ابن لقمان القائمة بالمنصورة إلى اليوم. وبعثت الكتب إلى الأمصار تبشر المسلمين بالظفر بالعدو وتقول في وصفه: «وكان قد استفحل أمره، واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد، والأهل والأولاد، فنودوا: لا تيأسوا من روح الله... فانتصرنا عليهم، فتركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم... وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل، وقد حلّ بهم الخزي والويل، فلما أصبحنا قتلنا منهم ثلاثين ألفًا، غير من ألقى نفسه في اللجج، وأما الأسرى فحدّث عن البحر ولا حرج، وطلب الفرنسيس (لويس التاسع) الأمان فأمّنّاه، وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته».

ورجع الجيش ظافرًا منصورًا، وعاد الشيخ عز الدين فرحًا مسرورًا.

* * *

-3-

التاريخ يعيد نفسه، فقد نبتت فكرة استعانة الخلفاء بالموالي من الأتراك وغيرهم في العصر العباسي، يجندونهم أيام الحرب، ويتخذونهم زينة لهم وأبهة لملكهم أيام السلم. يُخضعون بهم الخارجين عليهم لما عرف من بأسهم، ويتخذونهم عُدة لهم في أيام شدتهم. وبدأ يفعل ذلك المهدي والرشيد، واستكثر منهم المعتصم، حتى ضاقت بهم بغداد، فاتخذ لهم مدينة سامرّا، وما زالوا يقوون ويستولون على شؤون الدولة شيئًا فشيئًا حتى صاروا كل شيء، ولم يبقَ للخلافة شيء.

كذلك فعلت الدولة الأيوبية، فاستكثر منهم صلاح الدين الأيوبي وأخوه العادل، ثم من أتى بعدهم، حتى بالغ الصالح نجم الدين أيوب في ذلك، وحتى كان كل عسكره من هؤلاء

الموالي؛ ثم ضاقت بهم القاهرة كما ضاقت بغداد بإخوانهم من قبلُ؛ فاتخذ الصالح أيوب لهم مكانًا في الروضة إزاء المقياس، ثم استفحل أمرهم أيضًا، فكان لهم الملك والسلطان، وزالت على أيديهم دولة الأيوبيين.

كانَ هؤلاء الموالي من ترك وتركمان وأرمن وروم وجركس وغيرهم، وكانوا يصلون إلى أيدي الأيوبيين إما عن طريق الأسر في الحروب، وإما عن طريق تجارة الرقيق. وكانت تجارة رابحة واسعة منظمة، تستخدم في ذلك البر والبحر، ويورِّد النخاسون من الرقيق أشكالًا وألوانًا؛ فهؤلاء جنود ضخام شداد يصلحون للقتال في البر والبحر، وهؤلاء غلمان حسان يملكهم الأمراء ويلازمونهم، وهم يتجملون بالملابس ويتزينون تزيين النساء، ويفتنون الناس بجمالهم وزينتهم، وهؤلاء جوارٍ كاللآلي، عيون نجل وشعور شقراء وبياض مشرب بحمرة وقدود حسان. والبريد كل حين يحمل ما يتمنّى الأمير من مماليك وجوارٍ، والمراكب تحمل المئات من هؤلاء وهؤلاء.

وقد كثرت في تلك الأيام هذه التجارة؛ لأن غزو التتار قد هيّج هذه البلدان، وأوقع بالترك والجفجاق والروس والأرمن، فشرّد السكان، وخرجوا هائمين على وجوههم، فمنهم من قتل ومنهم من سبي، وكثير ممن سبي شحن إلى مصر بلاد الغنى والترف والرخاء، وهي التي تقوّم الجندية وتقوّم الجمال.

يأتون كلهم إلى مصر ولا يَعْلَمون شيئًا من العربية ولا من الإسلام ولا من تقاليد الأمة، فيأخذ الأيوبيون في تعليمهم كل ذلك، والجند يمرنون على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والرمي في البر والبحر. والغلمان والجواري يمرنون في القصور حتى ترق حاشيتهم وتهذب طباعهم وتصقل عاداتهم؛ فما هو إلا قليل حتى يملكوا زمام الأمور في الحكومة، وزمام الأسر في البيوت، ويَرْقى المملوك حتى يكون السلطان أو نائب السلطان، وترقى المرأة حتى تكون شجرة الدر. ثم هؤلاء المماليك ينقسمون أقسامًا ويتشعبون شعبًا، ويختلفون نسبًا؛ فهؤلاء العزيزية مماليك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وهؤلاء الصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين إلخ، وكل فرقة تتعصب لسيدها وتتحزب ضد خصمها.

* * *

أصبح الناس في مصر في ذلك العهد - عهد آخر الدولة الأيوبية وعهد المماليك - ينقسمون قسمين متميزين: عنصر المماليك من أتراك وأرمن وما إليها، وفي يدهم أغلب

المناصب الحكومية وأمر الجيش، ومنهم أغلب الجنود، وعنصر الشعب المصري، وهؤلاء هم الفلّاحون والتجّار والصنّاع، وعلى الجملة هم القائمون بالحركة الاقتصادية في البلاد، وأحيانًا يجنّد منهم جنود إذا اشتد الأمر وجدّ الجدّ. وهناك طبقة العلماء، وهؤلاء يكادون يكونون حلقة الاتصال بين الطبقتين الأوليين؛ فطبقة الشعب تحتاجهم في أخذ الدين والعلم عنهم والاستشفاع بهم عند الولاة الأمراء، وإيصال شكاياتهم وتبليغ رغباتهم وما إلى ذلك. وطبقة الأمراء تحتاجهم في بعض المناصب الحكومية كالقضاء والخطابة والإمامة، وتحتاجهم في تنفيذ رغباتها؛ لأنهم مسموعو الكلمة عند الشعب، فالشعب يطيعهم من قلبه ويطيع الأمراء من خوفه، والأمر إذا جاء من قِبَل الدين فالناس له أطوع، وقيادهم له أسلس.

من أجل هذا كانت تلتقي في العلماء رغبات الشعب ورغبات السلاطين والأمراء؛ فإذا ضجّ الشعب من شيء وسَّطوا العلماء، وإذا احتاج الأمراء إلى مال من الشعب وسَّطوا العلماء. وكان كثير من العلماء يخضعون للولاة والأمراء أكثر مما يخضعون لله، فهم يتحسسون رغباتهم ليجاروهم في أهوائهم، ويؤولون أوامر الدين ونواهيه حسب مطالبهم، ويقلبون صفحات كتب المذاهب ليعثروا على قول لأحد الفقهاء يجاري رغبة الأمراء. وقليل منهم قد باع دنياه لآخرته، ورضا الأمراء لرضا ربه، فلا يهمه ماله بقي أم صودر، ولا تهمه حريته أطلق أم سجن، بل لا تهمه نفسه حي أم قتل.

وكان صاحبنا عبد العزيز بن عبد السلام من هذا القليل الذي فني في الحقّ وأخلص لدينه، فلا يقدر عاقبة نفسه، وإنما يقدر عاقبة أمته وموقفه بين يدي ربه.

* * *

لقد اشتد التتار في الغزو واجتاحوا البلاد، ووصلوا إلى «عين جالوت»، ولا بد لمصر أن تقف أمامهم وترد كيدهم، ولكن العدو شديد وعدده وفير، والقوة لا تدفع إلا بالقوة؛ والعدد بالعدد والعدة بالعدة، وهذا يتطلب أن تبذل الأمة أقصى ما تستطيع من المال في سبيل المكافحة، والعلماء هم الذين يستطيعون أن يقنعوها بالإنفاق من طريق الدعوة الإسلامية والغيرة الدينية.

فهذا الملك المظفر سيف الدين قطز يجمع العلماء بحضرته، وعلى رأسهم عبد العزيز بن عبد السلام، ليتدبروا في المال كيف يجمعونه، والعاطفة الدينية كيف يستفزونها؛ فيقف الشيخ ويقول: «يجب أولًا أن تخرجوا ما في بيوتكم من حليّ لا حصر لها، وما في بيوت أمرائكم

وجنودكم من الثياب المزركشة والمناطق المذهبة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة في أيديكم وأيدي أتباعكم ومماليككم، ثم تذيبوها وتضربوها نقودًا وتنفقوا منها على إعداد الجيش وتموينه؛ فإذا تم ذلك واحتجتم إلى مال بعدُ فكلنا على استعداد -إذًا- أن نطلب من الناس أن ينفقوا، ومن العامة أن يخرجوا عما في أيديهم. أما أن تبقوا على ما في أيديكم من أنواع الترف والسرف، ونطلب من الناس أن يتبرعوا بما في أيديهم من ضرورات الحياة فلا يجب أن يسوى الأمراء بالرعية فيما يملكون، فإذا تساووا وجب الإنفاق من الجميع». وإذا قال الشيخ لا فلا، ولا رجعة فيها، والأمة وراءه.

فاضطر الملك أن ينفذ ما قال، فخرجت الأكداس المكدسة من الحلي والثياب المزركشة، وانتزع الذهب والفضة من السيوف والأواني، وصيغا سِكّةً فكفت وأغنت، ولم يحتج إلى أن يُمس الناس في شيء من أموالهم.

* * *

ثم كانت الحادثة العجيبة الجريئة التي أقامت الدنيا وأقعدتها، هؤلاء جماعة من المماليك دُفعت أثمانهم عند الشراء من بيت المال ثم لم يعتقوا، والشيخ في منصب القضاء والمشرف على بيت المال، والمسؤول عن مال المسلمين وصحة الأحكام الشرعية، وهؤلاء المماليك أصبحوا أمراء بارزين وبيدهم الحلّ والعقد، ومنهم من بلغ أن يكون نائب السلطنة، وجاههم عريض وأمرهم نافذ؛ ولكن الشيخ لا يأبه بذلك كله، ويُحدث أزمة حادة قلّ أن يكون لها مثيل. أعلن الشيخ أنهم أرِقّاء لا يصحّح لهم بيعًا ولا شراءًا ولا زواجًا، فتعطلت مصالحهم؛ فهم إن ملكوا لا يسجِّل لهم ملكًا، وإن تزوجوا لا يعقد لهم زواجًا، ثم هم أُهينوا في أنفسهم وشرفهم وجاههم بدعوى رقهم؛ ولكن الشيخ واقف وقفة الأسد لا يلين ولا يتزحزح.

- وما الحلّ أيها الشيخ؟

- الحلّ أن يباعوا في الأسواق ويتزايد الناس في شرائهم، ومن ملكهم إن شاء أعتقهم وإن شاء استرقهم، وثمنهم يدخل في مال المسلمين كما خرج منه.

- هذا غير معقول. نائب السلطنة يباع؟ ومن هم أسياد البلد يصبحون عبيدًا كالسلع يباعون ويُشْتَرون؟ هذا ما لا يكون ولا يدخل في عقل!

الشيخ - هذا حكم الله وكلنا عبيده وعبيد أحكامه، وأنا القيّم على تنفيذها.

والمسألة كل يوم تتسع وتتحرج، وينقسم الناس حزبين: طبقة الأرستقراطية والحكام

والسلطان في جانب، والشعب وعلى رأسه الشيخ في جانب، والمجالس تعقد، والأزمة تستحكم، والحلول تعرض، والشيخ يأبى إلا بيع الأمراء.

* * *

غضب السلطان واحتد على الشيخ، وأعلن أنه لا يعمل برأيه.

ها هي الحمير تعد، ومتاع الشيخ يُزَمّ، والشيخ يعتزم الخروج من مصر كما خرج قبل من الشام، ويطير الخبر، فيعتزم كثير من الأعيان والعلماء والتلاميذ الخروج مع الشيخ والرحيل معه متى رحل، والإقامة معه حيث يقيم؛ وإذا البلد في حركة عجيبة وفوران شديد؛ وإذا طائفة كبيرة من العلماء والصلحاء والتجار بنسائهم وأولادهم وأمتعتهم يستعدون للرحيل، وإذا العزم يصبح تنفيذًا، فها هي قافلة كقافلة الحج تخرج من مصر.

وينظر السلطان فيرى أن خير من في البلد راحل من مصر، وأن مصر لا تصلح بعد خروجهم، وأن من بقي بعدهم باقٍ على مضض، فكيف يستقيم ملك مع هذا كله؟ فإما أن يرجع الشيخ وإما أنْ يضيع الملك.

لا بد مما ليس منه بد - هذا السلطان يخرج مسرعًا ويلقى الشيخ في طريقه فيستسمحه ويرجوه في العودة، فيأبى الشيخ إلا أن ينفذ البيع في الأمراء، فيقبل السلطان ويعود الشيخ.

* * *

علم نائب السلطنة أنه سيباع فيمن يباع؛ فهاج وغلى الدم في عروقه، واعتزم ألا يتم ذلك بأي وسيلة، فركب فرسه وجرد سيفه، وقصد إلى الشيخ يحتز رأسه وقرع الباب، وأُبلغ الشيخ أن نائب السلطنة حضر وسيفه مسلول يريد قتله؛ فنزل الشيخ في هدوء واطمئنان وثبات، وهو يقول: «أنا أقل من أن أقتل في سبيل الله». فما رآه نائب السلطنة حتى تمازجت في نفسه مشاعر مختلفة: هيبة الشيخ ووقاره، والخوف من نقمة الناس وهياجهم عليه حتى لقد يفقد نفسه، والرحمة على شيخ مسن لم يقل ما يقول شهوة لنفسه، ولكن إرضاءً لدينه؛ فيبست يده على سيفه، وتخاذلت عزيمته وعاد كما أتى.

* * *

هذا هو مجلس البيع يعقد، وهؤلاء هم الأمراء ينادى عليهم، وهذا هو الشيخ يقبل ثمنًا ويرفض ثمنًا، حتى يبلغ ثمن المثل، وهذا هو يقبض المال، وهذا هو يُودِعه في بيت مال

المسلمين، وهذا هو يبلغ ذروته في المجد والعظمة، ويحتل في نفوس الناس مكانًا لا يحتله أحد من بعده.

لقد مات الشيخ فخرجت مصر تشيعه، وتشيع الصلابة في الحق والعظمة في الدين والإخلاص للعقيدة.

ويطل الظاهر بيبرس، فيرى مصر وراء جنازة الشيخ وقلبها يتفجع لفقده، فيلتفت إلى بعض خواصه ويقول: «اليوم فقط طاب ملكي».

* * *

نظرة في الكون

ما أجمل الطبيعة، وما أجلها، وما أحكمها، وما أغناها!

هذه حبَّة واحدة أنبتت سبع سنابل، في كل سُنبلة مئة حبة، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: 66]. وهذه الأرض يصيبها الماء فتخرج من الأزهار ومن بدائع الألوان، في الجبال وفي الوديان وفي الغابات، ما يسحر العين ويأخذ باللب؛ وهذا المحار في البحار ينشق عن نصفين منسجمين ومتساويين في النقوش والألوان والتعاريج يعجز عن تقليدهما أمهر فنان؛ وهذا الفم الذي يأكل ويقضم يُخرج الدر من الحكم، والطيِّب من الكلم؛ وهذه الشجرة العظيمة الضخمة خرجت من بذرة، وهذا الإنسان العجيب نشأ من ماء مَهين!

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 10 ـ 15].

وهكذا من ملايين وملايين من العجائب، قلّل عجبَنا منها إلْفُنا لها وأُنسنا بها.

ومن أعجب هذا الباب ما يأتي من باب الغرائز! فهذا ضرب من الأسماك يسافر آلاف الأميال إلى حيث يجد المكان الملائم لنسله، فإذا ماتت الكبار عادت الصغار إلى مكان آبائها بهاد من غريزتها، وهذه الطيور تحشد في الربيع والخريف جماعات، وتقطع الجبال الشامخة والبحار الشاسعة لتصل إلى الأقاليم الملائمة؛ ما الذي دلها على الطريق في ذهابها وإيابها، ولا علامات ولا دلالات؟ إنها الغريزة العجيبة التي تدل حمام الزاجل على مأواه، والقط

على مسكنه، إنها الغريزة التي تحمل كل حي من نبات وحيوان وإنسان على أن يأتي بمختلف الوسائل والأعاجيب ليحفظ نفسه ويحفظ نوعه.

إن أعمال الطبيعة وأعاجيبها ونظامها ودقتها فوق أفهامنا، وفوق منطقنا وتفكيرنا وتعليلنا. كل صغير مما لا يرى إلا بالمكروسكوب، أو كبير يرى بالتليسكوب، يحيي حياة عجيبة يدق سرها عن الفهم، ويقصر عن إدراكها العقل، الحبة في الأرض، والذرة في الهواء، والسمكة في الماء، والنجم في السماء.

وصدق الجاحظ إذ يقول: «ولو وقَفْتَ على جناح بعوضة وقوف معتبر، وتأملته تأمل متفكر، بعد أن تكون ثاقب النظر، سليم الآلة، غواصًا على المعاني... لملأت - مما توجد العبرة من غرائب - الطواميرَ[1] الطوال، والجلود الواسعة الكبار... ولتبجست عليك كوامن المعاني ودفائنها، وخفيات الحِكَم وينابيع العلم... وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: الآية 27]؛ والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف، وإنما يريد بها النعم والأعاجيب، وما أشبه ذلك، فإن كلاً من هذه الفنون لو وقف عليها رجل رقيق اللسان، صافي الذهن صحيح الفكر، تام الأداة، لما برح أن تحسره المعاني، وتغمره الحِكَم».

* * *

ولكن بجانب هذه المعاني اللطاف والعجائب التي لا تنتهي، نرى الطبيعة كذلك تقسو ولا ترحم، لا تعبأ بالألم يصيب الأحياء، كأنها آلة عمياء، سلحت القويَّ ومكّنته من الضعيف والضعيف من الأضعف. «هذا الأسد يصيد الذئب فيأكله، والذئب يصيد الثعلب فيأكله، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها، والأفعى تصيد العصفور فتأكله، والعصفور يصيد الجراد فيأكله، والجراد يصيد فراخ الزنابير فيأكلها، والزنابير تصيد النحل فتأكلها، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها». والإنسان سلط على الجميع، وسلط بعضه على بعض، إنها لا تندم على إيلام، ولا تحزن لموت، ولا تعبأ أن تكون كلها ساحة قتال، تسلح الغالب والمغلوب، والقوي والضعيف؛ ثم تقف متفرجة على القتال والالتهام، والتنكيل والآلام؛ كأن الأمر لا يعنيها في قليل ولا كثير. وضعت الشهوة في كل حي،

(1) الطوامير جمع طومار، وهي الصحيفة.

وأخضعت لها القوة والمكر والحيلة، وأطلقت لكل أولئك العنان في المنافسة والمحاربة، واتخذت ذلك قانونها وديدنها في كل شيء، من أصغر حيوان إلى أعظم إنسان، ثم نفضت يدها من كل ذلك، ووقفت تسجل ولا تتدخّل، بل تمد هؤلاء وهؤلاء، حتى لا يفتر النزاع ويبطل الخصام.

هذه أمة آمنة مطمئنة تلهو وتلعب، وتعمل وتسعد، تثور عليها الطبيعة ببركاتها وتجعلها في لحظة حممًا؛ وهذه مدينة جميلة بسكانها وما عليها زلزلت بها الأمراض فخسفت وأصبحت كأن لم تَغْنَ بالأمس، وهذا مركب يعد خير إعداد، ويوسع أكبر سعة، ويجهز أحسن جهاز، فيبتلعه البحر بمن عليه في لمحة، وهذه الأمراض تنتاب الإنسان فلا ترحم طفلًا صغيرًا ولا شيخًا هرمًا، ولا ترأف بالأم في وحيدها، ولا بالأسرة في عائلها، وهذا الموت سلط على كل حي، فذهب بلذته، وطاح بأمله. وهذا الإنسان لعبت به غرائزه، فأشعل نيران الحروب، وأقام كل حين مجزرة هائلة مفزعة. وهكذا حتى أصبحت لذائذ الكائن الحي - وسط هذه الأمواج من الآلام - لحظات خاطفة، ولمعات كوميض البرق.

* * *

نقرأ الصفحات الأولى من الطبيعة، فنرى الجمال والجلال، والحسن والانسجام، والعظمة ودقة الصنع، وعجائب الغريزة؛ ونقرأ الصفحات الثانية فنرى القسوة والفظاعة والتعذيب والإيلام.

من قديم حار العقل في تفسير هذه الظواهر المتناقضة كيف يكون من الطبيعة بجانب هذه الحكمة هذا السفه؟ وكيف يكون بجوار هذه الرحمة هذه القسوة؟ وكيف يكون مصدر هذه اللذائذ مصدر هذه الآلام؟

لقد ذهب بعض علماء الدين إلى أن نقمة الطبيعة من غضب الله على الإنسان إذا خالف أمره وارتكب ما نهاه عنه؛ ولكن -مع الأسف- لم نَرَ هذا مطردًا، فقد ينعم في هذه الدنيا الماكر المخادع، والغادر المنافق، ويألم المؤمن الورع والتقي الصالح؛ وكما قال الأول:

قد يُقْتر الحُوَل التَّقِـ ... ـيّ ويكثرُ الحمقُ الأثيم

ومن أجل هذا جرى على ألسنة الناس المثل المعروف: «المؤمن مصاب».

وذهب بعض الطبيعيين المحدّثين إلى أن الألم يصيب الإنسان إنما هو تحذير من

الأخطار المستقبلة؛ فصداع الرأس علامة مرض تنبّهُ الإنسان إلى وجوب ملاقاته، والمغص كذلك، والرمد كذلك، وهذا التعليل أيضًا ليس صادقًا دائمًا، وإن صدق في آلام الإنسان، فما تفسير إيلام الطبيعة بأحداثها؟

وأذكر أني قرأت مرة قولًا طريفًا لبعض المفكرين في هذا الموضوع، خلاصته أن موضع الخطأ في هذا السؤال هو أن الإنسان يريد أن يطبق أخلاقيته على أخلاقية العالم، فهو يسمّي بعض الأعمال رحمة وبعضها قسوة، وبعضها نعمة وبعضها نقمة، وبعضها لذة وبعضها ألمًا؛ ولكن هذه التسمية صحيحة بالنسبة له فقط وبمقياسه هو فقط، ولكن وراء عالمه الإنساني عوالم أخرى في الأرض، ووراء عوالم الأرض عوالم لا عداد لها في غير الأرض. أليس من غرور الإنسان أنه يريد أن يطبق العدل والظلم في العالم حسبما يدرك بنظره القاصر وفكره المحدود، يريد أن يخضع العوالم الواسعة لعالمه الضيق، ويريد أن يطبق قوانين العالم الكلية على قوانينه هو الجزائية؟

وهو جواب ماهر لم أستطع أن أقف أمامه موقف تأييد أو تفنيد، ومشايعة أو معارضة.

يظهر لي أن موضع الخطأ في فهم هذه المسألة أنهم يعرضون مشكلة الآلام وحدها ويريدون حلها، وهي لا يمكن أن تفهم إلا إذا عرضت الدنيا كلها على أنها وحدة. كيف نفهم الأبيض من غير أسود، والحرارة من غير برودة، والطول من غير قصر، والعمى من غير بصر؟

كذلك الآلام لا يمكن أن تفهم إلا على أنها جزء لا يستغنى عنه من نظام هذا العالم، ولو انعدمت الآلام لانهار نظام هذا العالم من أساسه.

إن الفضيلة لا يمكن أن توجد في هذا العالم إلا إذا وجدت الرذيلة؛ فلا نفهم الإيثار حتى نفهم الأَثَرة، ولا توجد البطولة حتى توجد النذالة، ولا العدل حتى يوجد الظلم، ولا الشجاعة حتى يكون الجبن؛ كذلك لا يوجد الحب من غير عذاب، ولا اللذة من غير ألم، ولا التوبة من غير إثم.

ولو انعدمت الآلام والرذائل والآثام ما كانت الفضائل العالية، ولا الأعمال النبيلة، ولا أعمال البطولة التي يتغنّى بها الشعراء. ولو انعدم القبح لانعدم الجمال. ولولا الأشقياء ما كان السعداء.

لا معنى لأني أُحب من أحب إلا إذا اشتمل ذلك على الألم، فمعنى أني أحبه أني أشاركه أحزانه، وأخاف عليه الأذى يناله، وأخاف انقطاع الصلة بيني وبينه، وهل هذه كلها إلا آلام إذا ذهبت ذهب الحب؟

إن احتمال الآلام في هذه الدنيا كان لنا منه أكبر الفضائل، من حزم وصبر وثقة بالنفس وتضحية للخير وعذاب للإصلاح، ولولاه ما كانت.

لولا عواطف الألم ما كان شعر ولا فن، ولا نحت ولا موسيقى ولا تصوير، ولا معان إنسانية، ولا وطنية ولا قومية.

فلو كان العالم كما يتطلبه العامة خاليًا من الآلام لكان بالطبيعة أيضًا خاليًا من اللذائذ، ولو كان خاليًا من الرذائل كما يبغون لخلا أيضًا من الفضائل، إذ لا يمكن أن تتصور لذة بدون إلم، ولا فضيلة بدون رذيلة.

إن عالمنا هذا بني على الخير والشر، واللذة والألم، والفضيلة والرذيلة، والسعادة والشقاء، وكل منهما كأحد جانبي الوجه لا يكمل إلا بجانبه الآخر، ولا يفهم إلا بالآخر. فمن أراد عالمًا لا ألم فيه فليطلبه في غير هذا العالم، وعلى غير هذا النظام كله.

وتبارك الله رب العالمين.

* * *

أول ثورة على التربية في مصر

قلت للكتبي الذي اعتدت أن أمرَّ عليه حينًا بعد حين:

- هل عندك من جديد؟

نعم. عندي تاريخ اليمن لعمارة اليمني طبع أوروبا، وثمنه مئة وخمسون قرشًا.

- وماذا غيره؟

- وعندي رحلة ابن جبير طبع أوروبا أيضًا، وثمنها مئة وعشرون قرشًا.

- ثم ماذا؟

- وعندي كتاب قيّم جدًّا لم يقع في يدي إلا مرة واحدة منذ احترفت بيع الكتب، وسيعجبك جدًّا.

- هو مما طبع في أوروبا أيضًا؟

- لا لا، هو أثمن من ذلك، قد طبع في مصر، ولكنه نادر جدًّا، وأثمن من كل ما طبع في أوروبا.

- وما اسمه وما موضوعه؟

لا أخبرك باسمه ولا بموضوعه حتى تراه. ولا أريكه حتى تنتهي في هذين الكتابين وتشرب القهوة.

وشربت القهوة، وشريت الكتابين، واستنجزته وعده، فأحضر الكتاب وهو يضحك، وفتح صفحة من الكتاب، فإذا فيها «ألف وباء» إلى آخر حروف الهجاء، بالثلث!

شاركته في الضحك، واستظرفت مزحته، وآليت أن أنقل مزحه جِدًّا، فأجعل من الكتاب موضوعًا.

فقلت: ما ثمنه؟

قال: هو أتفه من أن يكون له ثمن.

وأخذت الكتب وانصرفت.

لم يجذبني إلى القراءة تاريخ اليمن ولا رحلة ابن جبير كما استرعى نظري كتاب «ألف باء».

رأيت في الصفحة الأولى منه: («كتاب طريق الهجاء والتمرين على القراءة في اللغة العربية» بالعناية الخديوية الإسماعيلية أعزها الله، وبهمة سعادة علي مبارك باشا مدير المدارس الملكية، والأشغال العمومية، وسكك الحديد المصرية والقناطر الخيرية، للتعليم على مقتضاه في المكاتب الأولية المصرية). ثم قريبًا من الذيل حديث شريف: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»، وفي آخر الصفحة «الطبعة الأولى بمطبعة وادي النيل في القاهرة سنة 1285».

* * *

رأيت في أول الكتاب مقدمة بديعة حقًّا، مفيدة حقًّا، تعد ثورة على طرق التربية القديمة، ورسمًا لخطة جديدة، كتب في أولها: إنها «مقدمة تشتمل على بعض تعريفات تتعلق بأصول طريقة التعليم التي يقتضي أن يجري عليها العمل»، وإنها «خطاب من إدارة عموم المدارس المصرية الملكية إلى حضرات الخواجات (ولعله يريد الخوجات)، والمؤدبين بالمكاتب الأهلية وسائر المندوبين للتربية الأولية». وكتب في آخرها «حرّرها علي مبارك باشا».

هي ثورة تعليمية حدثت من نحو ثمانين عامًا، فقد كتبت كما أسلفت سنة 1285هـ-1868م.

كانت نظم التعليم قبل ذلك في المكاتب تجري على أنماط القرون الوسطى، فالطفل يذهب إلى الكتَّاب، فيسلم له «سيدنا» أو «العريف» لوحًا من الصفيح كتب فيه بالحبر: ا، ب، ت، ث،...إلخ، ويحفظه: «ا» لا شيء عليها، ب واحدة من تحتها، ت إثنان من فوقها، ث ثلاثة من فوقها إلخ؛ فيكررها الطفل كما يقول «سيدنا» أو «العريف» وهو كاره لذلك كل الكره، غير فاهم لما يقول، فإذا لم يحفظ فالعصا على ظهره، فإذا لم ينجح فرجلاه في «الفلقة»؛ فإذا انتهى من ذلك بعد عناء، انتقل به «سيدنا» إلى خطوة أخرى، فكتب له في اللوح: «ألف». ونطقها ألف لام فاء، «با» با ألف، «بو» با واو إلخ. وهي ألغاز لم أفهمها إلاّ وأنا في سن العشرين، وتفسيرها أن كلمة ألف تتركب من ألف ولام وفاء، وكلمة «با» تتكون من باء وألف، و«بو» تتكون من باء وواو إلخ. وهو نمط عجيب في

التعليم، فإذا انتهى من ذلك كتبت الحروف مشكولة، و«سيّدنا» ينطق والطفل ينطق وراءه كالببغاء.

فإذا تم ذلك كله بعد مشقة وعناء تدوم أشهرًا؛ كتب له سيدنا في اللوح سورة الفاتحة فسورة الناس إلخ. والطفل يقرأ اللوح ويحفظه ويسمعه؛ وهكذا يسير في حفظ القرآن إلى أن يتم حفظه أو ينقطع. ومن حين إلى حين يعلمه «سيدنا» أن يكتب اللوح بنفسه، ثم لا التفات إلى شيء من العلوم، ولا إلى شيء من السلوك، ولا مراعاة لعقلية الطفل.

جاء «علي مبارك» فأراد في هذه المقدمة أن يغيّر هذا كله ويقرر مبادئ في التربية جديدة يأخذ بها المعلمين، أجملها في خمس عشرة فقرة.

فقرر أن خير مناهج التربية ما أوصل إلى الغاية من أقرب طريق، من غير أن يمل الطفل أو يتعبه مع مراعاة قواه العقلية.

وأن تكون التربية مؤسسة على استخدام الطفل جميع حواسه ما أمكن، ولذلك يجب أن تقترن كتابته بقراءته.

ويجب تأخير استعمال الحبر والورق في التعليم، والبدء باستعمال الطباشير والألواح السوداء، فذلك أوفر وأنظف».

وأن تكتب أولا الحروف المفردة بالخط الثلث التخين في لوحات سوداء بالطباشير ويكررها المعلم على التلاميذ؛ فمن تقدم منهم في معرفة ذلك جعلوا عرفاء، ثم يوزع المعلم التلاميذ الضعفاء على العرفاء ليعلموهم على اللوحات المختلفة نطق الحروف، ثم كتابتها تحت إشراف المعلم، ولا ينتقل من درس إلى درس حتى يتصوروا الدرس القديم ويتقنوه ويعرفوا نطقه وكتابته.

وبعد ذلك يعلمهم الحروف متصلة بحروف العلة، فيكتب الباء مع الألف هكذا «با» وينطق بها «با» ممدودة وكفى من غير الفلسفة القديمة في التهجية، ثم يعلمهم الحروف بالعلامات كذلك.

فإذا عرفوا الحروف الهجائية انتقلوا إلى الكلمات الصغيرة من حرفين فثلاثة إلخ، ثم الجمل، ولا يعطى المعلم لهم جملة من غير أن يفهّمها لهم.

وقد وضع منهجًا لمدة الدراسة وهي ثلاث سنوات، ففي السنة الأولى يتعلم القراءة

والكتابة باللغة العربية واللغة التركية (وهذا عجيب)، ويحفظ بعض نوادر ونصائح وأمثال وحكم وأعداد الحساب.

وفي الثانية والثالثة يتعلمون قواعد النحو والصرف مع الاستمرار على المطالعة في الكتب، وحفظ بعض نوادر تركية، ومواد تاريخية وجغرافية، وتكميل العمليات الحسابية، ورسم جميع الأشكال الهندسية، وفهم بعض خواصها وتعريفاتها.

هذا من حيث التعليم. أما من حيث التربية، فوضع لها خططًا محكمة، وجّه المعلمين إلى العناية بحسن سلوك التلاميذ، ومراعاة صحتهم، فالمعلمون يجب أن يلاحظوا سلوك التلاميذ ونظافتهم، ويضعوا لذلك «نمرًا» كل يوم، تجمع مع «نمر» العلوم، ويرتب التلاميذ بحسبها جميعًا، ويوضع على كل فصل لوحة كل ستة شهور بأسماء التلاميذ مرتبة حسب متوسط درجاتهم العلمية والخلقية والنظافة.

ويجب أن يكون المأمور (ناظر المدرسة) أبًا رحيمًا مثالًا لحسن السلوك والفضائل والشرف، للتلاميذ والمعلمين، وأن يفهم «أنه القائم في وظيفته مقام الحكومة في تأدية ما يلزم من الواجبات، والنائب من طرف الأهالي في الرأفة بأولادهم، ومزاولة أحكامهم، والتحفظ على صحتهم، فهو مسؤول عن هؤلاء الأطفال بين يدي الخالق والخلق».

ثم ذكر أن من أهم ما يجب على المعلمين، تربية حواس التلاميذ، فيجب أن يمرنوا حاسة البصر، بأن يؤتى بالطفل ويؤمر بالوقوف عند شباك مفتوح وينظر ما أمامه، ثم يؤمر بالتحول، ويكلف وصف ما رأى بالتفصيل، ومقدار بعده وارتفاعه إلخ، وأن تمرن أذنه، فيعوَّد الطفل - وعيناه مربوطتان - أن يعرف الناس بمجرد سماع أصواتهم ولو غيروها، وعلى معرفة الأشياء بما ينشأ عنها من رنين وحركات، وهكذا وضع خطة لتمرين كل حاسة.

ونصح بعدم التضييق على الأطفال، لميلهم الطبيعي إلى اللعب والحركة، فينبغي انتهاز فرصة ميلهم الطبيعي وتوجيهه إلى توسيع دائرة معلوماتهم وتحسين سلوكهم.

* * *

هذا مجمل الخطة التي اختطها في تقريره، وسميتها ثورة لبعد الفرق بين ما كان وما أراد «علي مبارك» أن يكون.

ثم أراد أن يخرج الفكرة إلى العمل، فوضع أول كتاب -فيما أعلم- لتعليم القراءة والكتابة والمطالعة على النمط الحديث؛ فالجزء الأول هو الحروف الهجائية في الخطوط

المختلفة، ثلث وفارسي ونسخ وتوقيع ورقعة، ثم الحروف متصلة بحروف العلة، ثم الحروف مضبوطة بالحركات، ثم كلمات مركبة من حرفين فثلاثة إلخ، ثم كلمات في جسم الإنسان ومراحل عمره، ثم جمل صغيرة، ثم أمثال ومواعظ ونوادر تاريخية، ثم أشكال الحرف الكوفي، وبذلك ثم هذا الجزء.

ولم يشأ أن يجعله حروف مطبعة لصعوبتها على التلاميذ، فعهد إلى أكبر خطاط في مصر، وهو «مؤنس أفندي»، فكتب هذا كله ونوّعه بخطه الجميل، وطبعه على مطبعة الحجر، وتدرج بذلك من كلمات مشكولة إلى كلمات مشكولة بعض الشكل إلى كلمات غير مشكولة؛ فإذا جئنا إلى الجزء الثاني رأيناه مجموعًا من الحروف ومطبوعًا كذلك، وقد قسمه إلى جملة مجموعات، سمي كل فصل مسامرة؛ فالمجموعة الأولى تاريخية اجتماعية، والثانية في الكون وأجزائه من إنسان وحيوان ونبات ومعادن وهواء ونور ونار وزلازل وماء وبخار وندى وسحاب ومطر وشمس وقمر وكسوف وخسوف، والثالثة في الدين وقواعده وأركانه، والرابعة في قوانين الصحة، والخامسة في النصائح والمواعظ والأخلاق الإسلامية، وبذا يتم الكتاب.

ويذكر في أول الجزء الثاني أنه استعان في أداء هذه الخدمة بقلم السيد صالح مجدي أفندي. والكتاب بجزئيه يصور عقلية القائمين بأمر التعليم في هذا العصر، ويصور أسلوب الكتاب ومنهج تعبيرهم وتفكيرهم، والمثل الذي ينشدونه لأبنائهم، ومقدار ذوقهم في تخير ما يعرضونه على أطفالهم، وفيه موضع لدراسة دقيقة وافية لمدى تقدمنا الآن ومراحل سيرنا، وهل هي تساوي ثمانين عامًا أو لا تساوي، وفيه موضع عبرة كيف يتوفر وزير المعارف بجلالة قدره، مع ما عهد إليه من إدارة الأشغال والسكك الحديدية والقناطر الخيرية، يعاونه أشهر الكتّاب في ذلك العصر السيد صالح مجدي، لوضع كتاب في ألف باء للأطفال بعدًا في النظر وشعورًا بعظم الواجب.

فهل ترى يا صديقي «الكتبي» أن هذا كله لا يساوي شيئًا غير الاستهزاء به والضحك منه.

* * *

في الهواء الطلق

-1-

كانت جلسة ظريفة على شاطئ النيل، والنسيم عليل، بعد نهار يخنقنا بحرّه ويلفحنا بسمومه.

في رفقة منسجمة تتسامر وتتحاور، وكل شيء حولها هادئ، نور هادئ، ونسيم هادئ، ونيل هادئ، وحوار هادئ.

وكانوا يختلفون في ثقافتهم ويتحدون في قوة عقلهم وسعة نظرهم ونبل عواطفهم: من مؤرخ صرف عمره في تحقيق الأحداث، والبحث في تعليلها وأسبابها ونتائجها، واقتصادي يرى كل شيء ورقة مالية، أو نقودًا ذهبية وفضية، حتى ما نسميه نحن بواعث روحية، وأديب يتفلسف، أو فيلسوف يتأدب، له نزعة شعرية وطبيعة صوفية.

أخذ الحديث يجري على هواه من غير ضابط، فمرة يسير في اتجاه السلم والحرب، وتارة في الشرق والغرب، وأخيرًا تركز في أسباب نهضة الأمم وكيف يجري الزمان في سهولة ويسر ونظام، وإذا بحادث فجائي أو أحداث فجائية تغير مجرى الأمة تغيرًا خطيرًا، حتى كأنها بعثت بعثًا جديدًا، وحتى يخيل للناظر أن ليس من صلة بين قديمها وحديثها، ونومها ويقظتها.

قال صاحبنا المؤرخ: تعليل ذلك عندي ما تلده الأمة من عظماء ونوابغ، والزمان شحيح في ولادتهم، فقد يمر العصر الطويل وهو عقيم، ثم يلد عظيمًا فيغير وجه التاريخ، وكأن في يده عصا سحرية يحوّل بها الحديد ذهبًا، والخمول نشاطًا، والضعف قوّة؛ والتاريخ نفسه أكبر شاهد على ذلك، فما الأمة العربية لولا «محمد»؟ وما الفتوح الإسلامية وتنظيمها لولا «عمر»؟ وهكذا تقول في سائر الأمم أمثال الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون وغيرهم. إنهم يأتون فيفرضون قوَّتهم وروحهم على الأمم فيسيِّرونها حسبما رسموا، ويُملون إرادتهم على أحداث الزمان، فيتشكل التاريخ وَفق أغراضهم، وتسير الفتوح أو الثقافة أو أشكال الحكومة

تبعًا لإرادتهم، ويتحدد مستقبل أممهم بما نفخوا من روحهم، ونشروا من تعاليمهم، وأوضحوا من غايتهم. وهؤلاء العظماء النوابغ -عادة- يخلفهم من يؤمن إيمانًا تامًّا بمبادئهم، فيسيرون على طريقهم، ويكملون ما بدؤوا به، وإن كانوا أقل منهم قوة وأضعف أثرًا.

هذا هو قانون التاريخ قديمًا، وهو قانونه حديثًا، فلو أتاح الله لأمم الشرق اليوم نوابغ أقوياء، لتغير مجرى حياتهم، وارتفع شأنهم، وتلفَّتَ العالم إليهم يسبِّح بحمدهم.

* * *

وفجأة كسر هذا الهدوء رجل ضخم الصوت ينادي «العظيمة يا منجة»، فالتفت الصحب إليه وأعجبتهم فاكهته، ونادوا فتى القهوة فغسلها وثلجها، وجرى ريق القوم، وأخذوا ينعمون بأكل شهي إلى الحديث الشهي.

* * *

قال صاحبنا الاقتصادي وهو يتلمظ:

– أظن يا أستاذ أن هذا غير صحيح. أتظن أن هذا العظيم ينزل على الأمة بمظلة من السماء، أو يخرج فجأة من الأرض؟ إن لخروج العظماء والنابغين قانونًا طبيعيًّا لا يتخلف، كقانون الحرارة والبرودة والجاذبية، وإن كان أكثر تركبًا وتعقدًا، فالنوابغ نتيجة لا سبب، هم تعبير الحياة الاجتماعية. العوامل المختلفة تعمل، والأحداث تتفاعل، والنفوس تتهيأ؛ فإذا الأمة تتمخض عن نابغة؛ فالأحوال الاجتماعية أولا والنوابغ ثانيًا؛ وليس العكس. إن الحالة الاجتماعية إذا تهيأت واستعدت بحثت عمن يقود الحركة وخلعت عليه الزعامة، فإذا اتجهَتْ إلى «س» فعاقته عوائق عن النبوغ اتجهت إلى «ص»، وعلى كل حال فلا بد من نابغة، فإذا لم تتهيأ الظروف فلا نابغة؛ وهذا هو تعليل عدم الانتظام في ظهور النوابغ، فيظهر كثيرون في زمن، ولا يظهر أحد في أزمان.

لست أنكر التأثير الكبير للنابغة، ولكنه لا يكون إلا بعد أن تتهيأ الأمة أو لا، ولو فرضنا النابغة خلق وجاء لأمة على غير استعداد لتعاليمه لم يفد أية فائدة، وذهب كما جاء، إنما يفيد النابغة يوم يجد عقولًا خصبة كانت تنتظر الزعيم فتدخل في دينه وتتجمع حوله، وتكون جنده، يفتح بهم أمته، ثم أممًا مع أمته.

وفرغوا من أكل «المانجو» و«الخمته»، وتفرّغوا للجو والحديث.

المؤرخ: إن نوابغ الأفراد لا المجتمعات هم الذين يأتون بالأفكار الجديدة الثوريَّة – في

الأخلاق، في السياسة، في الفنون، في العلوم؛ ووظيفة المجتمع أنه يعرقل سيرهم أولاً، ويضع العقبات في سبيل تعاليمهم، ويتهمهم بالمروق والزندقة والإفساد، ويصب عليهم العذاب ألوانًا؛ ومع ذلك تبقى آراؤهم، ويزيدها العذاب قوة، ثم تكتسح الأفكار القديمة وتحل محلها، ثم ما كان من الأفكار جديدًا تأثرًا يصبح قديمًا محافظًا، حتى يأتي النابغة فيعيد السيرة، وهكذا دواليك إلى اليوم، وإلى غد، وبعد غد.

فترى -يا أخي- من هذا أن المجتمع ليس سبب النهوض والتغيير، إنما هو عامل القرار والثبات؛ فإذا كان لا بد للمجتمع من قوتين: قوة الدفع وقوة التعويق، فالنوابغ هم الدافعون والمجتمع هو المعوِّق، النابغة يحمل المشعل والمجتمع يحاول إطفاءه، وكلما كان النابغة أكثر رقيًا وأشد إمعانًا في النظر، كان أكثر بعدًا عن قومه، وكانوا له أكثر اضطهادًا، حتى ليرمي بالجنون؛ وبعد اضطراب وعنف وتخريب وضحايا يستقر رأي النابغة، وكثيرًا ما يحدث أن يكون ذلك بعد موته أو قتله، ثم تسفر النتيجة عن أن النابغة هو المقترح، ومشخِّص المرض، وواصف العلاج، والمجتمع أخيرًا جدًّا هو منفِّذ العلاج.

* * *

وهنا أدار أحدهم عينه في الأفق، فلمح نجمًا يلمع لمعانًا برّاقًا، فقال: انظروا هذا النجم الصافي اللّامع المضيء القوي، ما اسمه؟

– والله لا أدري، فأنا أجهل الناس بشيئين: أسماء النجوم وأسماء النبات، فلست أعرف من النجوم إلا الشمس والقمر، ولا من النبات إلا النخل والذرة، حتى القطن لا أعرفه إلا إذا «لوَّز».

ضحكٌ من الجميع.

* * *

الاقتصادي: إنك لم تردّ على شيء مما قلت، غاية الفرق بيني وبينك أنك عمدت إلى النتائج فأوضحتها، وأنا أعمد إلى الأسباب فأشرحها: إنك تبين عمل النابغة، وأنا أبين الأسباب التي تحمل على خلق النابغة؛ وخير إذا شرحنا الأمور أن نتعمق إلى جذورها، فإذا نحن عمدنا إلى ذلك رأينا أسباب نهوض الأمم وتغيرها أسبابًا اقتصادية بحتة.

كل شيء في هذه الحياة يرجع إلى المادة، فهي التي تعكس صورها وأثرها على العقل، فيجب أن تتغير المادة -أولًا- ثم يتبعها العقل في التغير فيكون الرقي أو الانحطاط؛ ولو

رجعنا إلى التاريخ -كما تقول- لوجدنا كل الآراء وكل النظم ترجع في أساسها إلى البيئة التي نشأت فيها والتغيرات التي وضعت لها. لقد كان الإنسان الأول يعيش على صيد الحيوان في البر والسمك في البحر، فكانت آراؤه وأفكاره ومعيشته مشتقة من بيئته، ثم تغيرت البيئة، فأصبح يعيش على رعي القطعان أو الزراعة، فتغيرت آراؤه وأنواع معيشته وحاجاته تبعًا لذلك، ثم تغيرت إلى نظام إقطاعي، ثم إلى نظام رأسمالي، فتغيرت كل نظمه وكل آرائه حتى الأخلاقية والسياسية؛ ويمكن أن نرجع أدق التفاصيل وأعمق الأفكار إلى هذا النوع من البيئة كما درسنا في الاقتصاد؛ ولكن مما لا شك فيه كذلك أن أنواع الحياة وتفاصيلها وعواملها أصبحت الآن أكثر تعقدًا؛ لأن كل النظم القديمة النابعة من البيئات القديمة لم تفقد أثرها وورّثتنا كثيرًا من تعاليمها ووحيها.

لم يكن في المجموعة من الناس طبقات يوم كانوا يصيدون ويرعون، ثم لما أصبحت زراعية نمت الملكية الخاصة، فكان غني وفقير وبدأت الطبقات، ونشأ عن ذلك مالك وأجير، أو مالك وعبد، فوجد نوعان من العلاقة: علاقة الملاّك بالبيئة الطبيعية، وعلاقة الملاّك بالعبيد، فنشأ عن هذا تغير في الأفكار لا عدَّ لمظاهره، وثورات واضطراب، ومصلحون ونوابغ يحلون هذه المشاكل، وتعقدت هذه العلاقات في النظام الإقطاعي، ثم زادت تعقدًا في النظام الرأسمالي، وما نشاهد من عادات ومن رقي ومن اختراع ومن أسواق، ومن نظريات في الاقتصاد، ومن نظم في التجارة، ومن مذاهب اشتراكية وفاشية وشيوعية، ومن نزاع طبقات، ومن حروب أمم؛ كله نتيجة هذه العوامل الاقتصادية، وإن شئت فقل البيئة الطبيعية.

ثم استمر يقول: وإني أومن بالجبر على هذا المعنى، معنى أن نوع الحالة الاقتصادية منتج لا محالة نوع المعيشة الاجتماعية التي يعيشها الشعب، واختيار الإنسان وبواعثه وحرية إرادته كلها تلعب في دائرة ضيقة ضمن الدائرة الواسعة، وهي دائرة الجبر، كحرية الإنسان في بيت مغلق؛ والنوابغ الذين ينبغون في كل عصر مع الاعتراف بقوة أثرهم إنما هم نتيجة هذه الظروف الاقتصادية؛ وحتى رقيّ الآداب والعلوم والفنون أو ضعفها ناتج أولًا من الحالة الاقتصادية، فهي التي تخلق نوابغها، ثم هؤلاء النوابغ يسيّرون حركتها.

وأحداث التاريخ التي أشرت إليها يمكن أن تفسّر هذا التفسير الاقتصادي؛ فحالة العرب الاقتصادية قبيل البعثة كانت مهيّئة لنبي، ولأمر ما كانت بعثة النبي في مكة، لا في غيرها من بقاع جزيرة العرب، لما كان فيها من الحركة التجارية العظيمة، فهي مورد التجارة من

الخارج، وهي مصدر الإصدار لسكان الجزيرة في أيام الحج، بما كانوا يقيمون من أسواق، وما كان من أدب في سوق عكاظ فتابع للسوق التجاري؛ ولأمر ما كذلك كان أكثر من دخل في الإسلام أول الأمر من رقيقي الحال الذين سمّاهم صناديد قريش «الفقراء والمستضعفين والأذلة» وأكثر الذين عصوا وعاندوا هم الأثرياء الأغنياء، كأبي لهب، وأبي سفيان من الذين خشوا على مركزهم المالي وما يتبعه من جاه؛ وفي القرآن كثير من النصوص التي عني فيها بالشؤون التجارية، كمن الله على قريش بتيسير أسباب التجارة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾ [قريش: 1 - 2]، وتأنيبه ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ [الجمعة: 11]، وتحريم الربا وحل البيع، إلى كثير من ذلك، ثم المطالبة بنزول الأغنياء عن بعض ما لهم للفقراء بالزكاة والصدقة ونحوهما؛ كل هذه أمور اقتصادية هيأت الظروف وأنتجت النتائج. ويمكنك على هذا الأساس - وبهذه النظرية الاقتصادية - أن تفسر أحداث التاريخ الإسلامي والثورات ورقي العصور وانحطاطها.

والآن يمكن تطبيق هذا على الشرق والغرب والمستعمِر والمستعمَر؛ فالاستعمار ليس إلا ظاهرة اقتصادية، إذ أدّى الانقلاب الاقتصادي الذي حدث في أوروبا في القرن الثامن عشر إلى التوسع في الإنتاج الصناعي، فاحتاجت أوروبا إلى امتلاك مستعمرات تحصل منها على المواد الأولية للصناعة، ثم لتصرّف فيها سلعها؛ فكانت خيرات الشرق للغرب، وأصبح الأول ضعيفًا غير ناهض لفقره ولسوء حالته الاقتصادية والعكس.

فإن شئت للشرق رقيًا فأغنه، وابحث عن الطريق التي تمكنه من استغلال بيئته الطبيعية لنفسه، فإذا هو غني وإذا هو عالم، وإذا هو أديب، وإذا هو مخترع، وإذا هو ما شئت.

* * *

ساد الجميع سكون لم أتبينه، أهو سكون رضًي واقتناع، أم هو سكون تفكير واستعداد للدفاع!

والتفت أحدهم إلى الأديب المتفلسف أو الفيلسوف المتأدب، فقال: ما رأيك؟ لقد أطلت السكوت وسمعتَ وجهتي النظر. وكان طول الجلسة ساهمًا حالمًا يسمع بنصف نفسه، ونصفها الآخر في الجو والهواء والنيل والسماء.

فقال: أما أنا فإني أردد قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11]، رأيي أن كليكما حكى بعض الحقيقة؛ فليس عامل التغير النابغة وحده، ولا الفرد

وحده، ولا البيئة وحدها؛ وإنما هو «الإنسان في البيئة» والنابغة في الظروف؛ وكلاكما أهمل جدًّا جانب الروح، مع أن التاريخ كله ليس تاريخ النوابغ ولا تاريخ المال، وإنما هو تاريخ الروح أيضًا. إن الروح الإنسانية تسعى دائمًا لغايتها المرسومة لها، وغايتها الحرية العاقلة، والظروف الخارجية تضغط عليها، وهي تحاول دائمًا دفع هذا الضغط وكسر الأغلال حتى تصل إلى غايتها.

وأحداث التاريخ سلسلة من الضغط على اختلاف الأشكال، ومحاولة النفس تحررها من الضغط والأغلال غير العاقلة، وهي دائمًا في خطوات إلى الأمام نحو تحقيق هذه الغاية.

ومن الخطأ في نظري تفسير كل شيء بالمادة وإهمال الروح، والقول بأن الإنسان مُسيرٌ بجيبه لا بروحه. إن النظر إلى المادة وحدها جعل الغرض المنشود هو القوة المادية بالمال وبالقوة الحربية، فماذا كانت نتيجة ذلك؟ نتيجته صراخ الأرض حتى ضجت من صراخها السماء، وتلوين الخرائط بمالك ومستعمر، واستعباد أكثر الإنسانية لأقلها، ولذة الأقلين بألم الأكثرين. إن الأمم ظلت تتسابق في القوة المادية حتى ضاعت حكمة حكيمها، وفلسفة فيلسوفها، وعميت عن الغاية من القوة، واتخذتها غاية لا وسيلة، حتى ذهب عن الأرض سلمها وجمالها؛ وفي التاريخ ما يرشدنا إلى أن القوة المادية كالقوة العسكرية تنتهي دائمًا بتحطيم نفسها. كان كذلك اليونان والرومان، والقرطاجيون، ومن أتى بعدهم إلى اليوم.

إن العالم قوَّى جسمه وقوَّى عقله وقوّى يده، بقي عليه أن يقوّي قلبه؛ ولعل الكوارث الحاضرة تنتهي إلى الالتفات إلى القلب كما التفت إلى إخوته.

وقوة الروح هي التي تغير الأمة وتخلق المادة.

الاقتصادي: ألست ترى أن دعوتك إلى الروحية كدعوة المتصوف إلى الصوفية؟ وما ظنك بصوفي ينازل جنديًّا مسلحًا؟ إن شئت أن تدعو إلى الروح فعمم الدعوة، ولا تدْعُ إلى وضع السلاح حتى يضعه خصمك، وإلا أُكلت.

الأديب - إن السلاح سيأكل نفسه.

الاقتصادي - إني أشك.

ونظر أحدهم إلى الساعة فوثب قائلًا: هذا آخر موعد لآخر ترام.

* * *

-2-

أما جلستنا هذه المرة فكانت في سفينة شراعيَّة عند روض الفرج، وقد بلغ النيل أوجه في علوّه وفخامته وشدة جريانه واحمرار لونه، وبلغ القمر أوجه في جماله ونوره، وامتزج جمال القمر بجمال النيل بجمال الجو بجمال الحديث، فكان لنا من ذلك متعة فنية، ومتعة عقلية، أحببت أن أشرك القراء فيها.

كان ثلاثتنا في الليلة السابقة هم بعينهم في هذه الجلسة، وزاد عليهم صديق رابع عاد من إنجلترا حديثًا بعد أن درس الاجتماع والاقتصاد والسياسة؛ وعاد إلى مصر فتولّاه نوع من الكآبة وانقباض الصدر وطول اللسان، والنقمة على كل شيء يراه، فلا يعجبه حياة الأسرة، ولا نظام المجتمعات، ولا نظام الاقتصاد، ولا منظر الناس في الشارع، ولا حجاب المرأة ولا سفورها، ولا شيء يقع تحت سمعه وبصره؛ وهو بجانب ذلك شديد اللوم لاذع النقد.

ذكرنا ونحن في الطريق والمجلات العربية، فأخذ يشنع عليها، ويقذفها بكل نقيصة، ويتهمها بأن أمثلها يتكلم في السماء ولا يتكلم في الأرض، ولا ينير الشعب بما ينبغي أن يعلمه، ولا يُفهمه موقفه، ولا يحلّ له مشاكله، ولا يرسم له خطة سيره، وتمر الأحداث بجانبها وكأنها حدثت في المريخ. فإن اعتذرنا له بالحرب وملابساتها قال: وهل كانت مجلاتكم قبل الحرب خيرًا منها الآن، وأحس تقديرًا للظروف، وأصدق معالجة للأمراض الواقعية؟ وهكذا كلما عرضنا لشيء أوسعه نقدًا، حتى سارت بنا السفينة وحلَّت شراعها.

كان هذا المنظر يفتح الشهيّة للحديث كما فتحه للأكل، ولكن لا أدري السبب في أن جميع الأصدقاء القدماء تفتحت شهيتهم للصمت دون الكلام، إلَّا صاحبنا الجديد، فقد كان ثرثارًا لا يسمح لغيره أن يبدي رأيًا أو يتحدث حديثًا؛ وبذلك انقلب الوضع من سمر تشترك فيه، إلى محاضرة يلقيها علينا صاحبنا.

لا أدري من حسن الحظ أو من سوئه أن أحدنا سأله رأيه في مصير العالم بعد هذه الحرب، فقال: إن هذا سؤال لا تمكن الإجابة عنه بكلمة ولا بنوع من التنبؤ، ولا بالحدس والتخمين؛ إنه لا يمكن شرح الغاية إلا إذا عرفنا الاتجاه، فإذا شئتم حدثتكم بشرط ألا تقاطعوني، فأكره ما أكره في مصر أن المتحدث لا يستطيع أن يتم حديثه، ففي كل كلمة ينطق بها يقاطع، وقبل أن يتمم فكرته يعترض عليه، وقد يكون الآتي شرحًا للماضي ولكن لا يمكّن من ذلك؛ وقد يطول الجدل في القشور قبل أن يصل المتحدث إلى اللباب.

والحق أن المصريين يحتاجون إلى من يُعَلِّمُهم فن الصمت كما يعلّمون فن الكلام؛ والحق أن الصمت فن له رسوم ومناهج يطول الحديث عنها، فهل أحدّثكم في فن الصمت أو تلتزمون الإصغاء فأحدثكم فيما سألتم؟

وعدناه أن نلتزم الصمت؛ لأنه يوافق مزاجنا في هذه الآونة، ولأننا صائرون إلى هذه النتيجة شئنا أو أبينا، فإن تدفقه لا يسمح بالكلام لغيره.

قال: لست أريد أن أرجع بكم في الحديث إلى الماضي البعيد فإن شأنه يطول، ولكني أحدثكم في الحاضر مشوبًا بشيء من الماضي، وأبني عليه المستقبل.

في عصر فكتوريا كان العالم المتمدن يتجه إلى السير على مبدأين هامين: المبدأ الأول الحرية بأوسع معانيها، ولست أعني الحرية السياسية وحدها، بل أعني أن الحرية أصبحت مزاجًا عقليًا يحاول تطبيقها على كل شيء؛ حرية في الشؤون السياسية، وأن ينال كل فرد نصيبه في سياسة أمته بطريق التصويت؛ وحرية اقتصادية بالسير على مذهب Laissez faire - ولا أدري ماذا تسمونه باللغة العربية - وأعني به حرية الفرد أن يشتري من أرخص سوق ويبيع في أغلى سوق، وحرية الضمير، وحرية العقل في أن ينميه كما يشاء، ويغذيه بما شاء، ويفك قيوده من الخرافات. والمبدأ الثاني الروح العلمي وعدم تقيده بأي قيد، والبحث الحر الخالص، والإيمان التام بأن العلم هو الذي يجب أن يحكم الحياة ويسيّرها.

وفي ظلال هذين المبدأين نمت الفردية، أعني احترام الفرد وحرية الفرد، وكان كل شيء ينبئ بأن السير في هذا الطريق سيوصل حتمًا إلى سعادة الأمم ورفاهيتها، وإلى السلام العام وحسن التفاهم بين الشعوب؛ ولكن - مع الأسف - خاب الأمل، وأنتجت الحرية الاقتصادية غنى مفرطًا لقليل من الأفراد، وفقرًا مدقعًا للأغلبية، وحرية واسعة للأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال، وعطالة ورقًا لكثير من العمال، كما أنتجت صراعًا حادًا على الأسواق؛ وذلك أنتج الحواجز الجمركية، وآل هذا كله حتمًا إلى الحروب الطاحنة التي شاهدناها في حرب سنة 1914، والتي امتدت عواملها وبواعثها إلى الحرب الحاضرة.

وانقسمت الأمم إلى معسكرين، معسكر ظل على مبدأ الحرية الفردية ومظهرُها الديمقراطية، مع تعديل بما تستوجبه الظروف، وحامل عَلَمه إنجلترا وأمريكا؛ ومعسكر كفر بالفردية وآمن بالجماعة ولم يسمح للفرد بالحرية إلا في حدود مصلحة الجماعة، وحامل هذا العَلم روسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية وألمانية النازية.

وهذا المعسكر الثاني قد وضع نظامه الاقتصادي والسياسي على هذا الأساس، أساس الجماعة لا الفرد، وإن اختلفت مناهج أممه ووسائلهم، ففي السياسة أعطيت الهيئة التنفيذية سلطة واسعة جدًا، وحُدّت قوة السلطات الأخرى وضيقت المعارضة إلخ، ومن الناحية الاقتصادية حلّت النقابات في النظام الفاشيستي محل حرية الأفراد، وتدخلت الحكومات في الأمور الاقتصادية، ورسمت المناهج، ووضعت يدها على كثير من موارد الدولة إلخ. وكانت الشيوعية أكثر إمعانًا في اضطهاد الفردية ونصرة الجماعة، ووضعت التربية في هذا المعسكر جميعه على أساس استمالة الفرد، ليعد نفسه جزءًا من جسم المجموع لا شخصية مستقلة؛ وتبع هذا تضييق حرية الفكر وحرية النقد، بل وأحيانًا حرية العلم إذا كانت النتائج العلمية لا تتفق ونظام الدولة.

ومن ناحية أخرى رأينا المعسكر الأول نفسه قد شعر قادته بأن النظام الديمقراطي أيضًا في حاجة إلى تعديل، وخطب عظماؤه في وجوب إصلاحه لمواجهة العالم الجديد، فنظام رأس المال يسبب دائمًا أزمات حادة وعطلة محزنة؛ فنادوا بأنه يجب أن تتدخل الحكومات الديمقراطية ولو بعض الشيء لوضع حد لهذه المآسي، وتقييد الحرية نوعًا ما لمصلحة المجموع؛ وقالوا إن النظام البرلماني بطيء في تسيير الأمور بطئًا يحتاج إلى علاج، والمطابع والتمثيل والسينما والراديو قد جاوزت حدودها في الحرية، ولا بد من تدخّل في وضع حدٍّ لها مسترشدين بالمصلحة العامة.

* * *

وإلى هنا توسطنا النيل، وهبّت ريح فضربت الشِّراع فمالت السفينة ميلًا شديدًا، ففزعنا وكان أفزعنا صاحبنا المحاضِر فصاح، وسكت عن الكلام المباح.

ثم جاوزنا الوسط، وهدأت الريح، فاعتدلت السفينة فعادت شهوته للكلام وشهوتنا للاستماع.

وسألناه: فماذا تنتظر بعد؟

لعلكم ترون من هذا كله الصراع العنيف بين الفردية والجماعية، واضطراب العالم بين النزعتين، وشكواه من كبت الحرية العقلية في ظل «الجماعية»، وقلقه من البطء والعطالة في ظل الفردية.

إن العالم سيتحرر من خضوعه المطلق للعوامل الاقتصادية، وستكون المسائل المالية

عاملًا من جملة عوامل، لا العامل الوحيد؛ وسيتعلم من هذه الكوارث إيمانه بنوع من الأخلاقية الأخوية؛ وسيتبين أن النظرة الاقتصادية وحدها أدَّت إلى حياة جافة بائسة، وسيعود إلى التعاليم التي أهملت من أن الإنسان أخو الإنسان، وسيتجلّى له أن التضييق على الحرية العقلية وإخضاع العلم للسياسة تُدهور العقل، وأن دعوى المصلحة العامة لا تغني ما لم يقصد إلى المصلحة العامة في صدق وإخلاص.

أما من ناحية الصراع بين الفردية والجماعية التي حدثتكم عنها، فإني أرجّح أن العالم سيهتدي إلى نوع جديد هو «الفردية في الجماعة»، وأعني بذلك أن العقول ستبتكر نوعًا من النظام يحفظ فيه للفرد شخصيته في حدود مصلحة الجماعة، وستؤسس التربية والتعاليم والنظم السياسية على تغذية العاطفتين من غير أن تتضاربا وتتعارضا، وسيكون هذا علاجًا لكل مشاكل العصر الحاضر.

وهذا النظام المرجو لا يتحقق إلا إذا قبله العالم المتمدن كله، ونفّذه في صدق وإخلاص وقوة عقيدة، وقامت على رعايته قادة الأمم ورجال السياسة ورجال العلم ورجال الدين، وتلاشت عصبية الأمم، وعصبية الأجناس، وعصبية الأحزاب، وعصبية أصحاب رؤوس الأموال، وعصبية الطبقات، وتولى الزعامة رجال واسعو النظر شديدو الإخلاص، محبو الإنسانية، بين قوة العقل وقوة الشعور، تسيّرهم العقيدة الحقة المخلصة، لا الرأي العام المحلّي المتحزّب.

* * *

وتعب الصديق من الحديث الطويل ووفائنا بشرطه، وتركنا إياه يحاضر من غير مقاطعة؛ وطلب ماءًا فشرب ثم سكت.

فسأله أحدنا: وهل تظن -يا دكتور- أن العالم سيصل إلى هذه الغاية بعد هذه الحرب؟

فقال: إن هذا هو الأمل الوحيد لخلاص العالم، فإن لم يبلغها في هذه الحرب، فسيظل في كوارث تتبعها كوارث، وستزيد الويلات زيادة المتواليات الهندسية تبعًا لتقدم العلم وازدياد الحزازات، حتى يمل الإنسان فيؤمن بالغاية التي شرحتها.

أما أنها الغاية فلا أشك في ذلك، وأما أنها الغاية من الحرب الحاضرة فلست أجزم به.

* * *

ومرّت بجانبنا سفينة ملئت فرحًا وسرورًا، وبها «جوقة» موسيقية تعزف وتغني، ويأخذ أهلها الطرب ويتصايحون ويتنادرون ويضحكون.

فأخذ صديقنا يلقي محاضرة أخرى في الموسيقى الشرقية وعيوبها، وبدأ يقارن بين الموسيقى الشرقية والغربية، وكاد يتدفق في هذا تدفقه في ذاك.

قال أحدنا: على رِسْلك -يا دكتور-!! فإن لقدرتنا على الاستماع حدًّا، والمتحدث ينبغي أن يوائم بين أحاديثه، فأين ما كنت فيه من مصير العالم من الموسيقى العربية والغربية؟ فإن كنت خبيرًا بالموسيقى فتجنب «النشاز».

وضحك الجميع، ورست السفينة، وإلى اللقاء.

* * *

قصتان طريفتان

قرأتُ في هذا الأسبوع كتابين بالإنجليزية، أحدهما في «التصوف» لمؤلف هندي، والثاني في «المنطق العملي»، أو كما يسميه صاحبه «فن التفكير» لمؤلف إنجليزي.

وتسألني: ما الذي جمع الشامي على المغربي، وألّف بين التصوّف والمنطق على بعد ما بينهما من منهج؟ فهذا يعتمد على مقدمات ونتائج وقياس وبراهين، وذلك يعتمد على ذوق وإلهام ورياضة وكشف، هذا لا يؤمن إلا بالعقل، وذلك لا يؤمن إلا بالنفس، وكلاهما يكفر بصاحبه.

فأقول: إنه قد جمعت بينهما المصادقة البحتة، فقد كنت أبحث عن كتاب في مكتبتي، فعثرت على هذين الكتابين، فأغراني موضوعهما بقراءتهما، ولم أكره هذا الجمع «فالضد يظهر حسنه الضد»، ولست تتبين في جلاءٍ سواد الأسود إلا إذا نظرت بجانبه إلى بياض الأبيض، وخير ما تتذوق حلاوة الحلو إذا تذوقت ملوحة الملح، وكثيرًا ما تعمد الغانية الجميلة إلى أن تظهر جمالها بجانب الوصيفة القبيحة.

على أن هذا الاختيار ولم يكن عبثًا، ولم يكن اعتباطًا، وإن كان مظهره كذلك، فالإنسان إذا سئم الأرض طار إلى السماء، وإذا مجَّ اللذائذ مال إلى الزهد، وإذا سئم من دنيا الناس عاش في عالم المثال، ثم إذا هو عجب من تفكير الناس هرع إلى البحث في أسباب خطئهم، وإذا لم تعجبه عقليتهم نشد المثل الأعلى للعقلية، وإذا رآهم يُجَنّون في التفكير والتصرّف لذّه أن يبحث في نوع جنونهم، ونقطة الانحراف في تفكيرهم.

* * *

ما لي ولهذا، فقد كاد ينسيني القصتين.

كان من كل كتاب قصة لفتت نظري، واستخرجت إعجابي.

كلا الكتابين قصّ قصته من وجهة نظره، ومن زاوية نفسه، ولعلهما ترميان إلى غرض واحد، ونمط في التربية واحد، وإن اختلف العَرْض.

فأما القصة الصوفية فهي أن «بُلّاشاه»، أحد أولياء «بنجاب» أرسله أبوه -وهو طفل- إلى الكتاب، فكتب له المعلم «ا» و«ب»، وأمره أن يحفظهما ويكتبهما، فوقف «بلاشاه» عند الألف، لا يحسن تعلمها ولا كتابتها، والأطفال الذين دخلوا معه الكتّاب ساروا شوطًا بعيدًا، فأتمّوا حروف الهجاء إلى «الياء»، وانتقلوا إلى ما بعدها، وصاحبنا واقف عند الألف لا يتعداها، ومرّت أسابيع على هذه الحال، والموقف لم يتغيّر، وأخيرًا ضاق به المعلم ذرعًا، وأخذه وذهب به إلى أبيه وقال: «إن ابنك ناقص العقل، غير قابل للتعلم، ولست بمستطيع تعليمه».

فحاول أبوه أن يعالج هذا النقص، وعرضه على معلمين آخرين ليتحرك من الألف إلى الباء فما أمكن، وحزَّ هذا في نفس الطفل، وأحسَّ أنه حمل ثقيل على والديه، وأنهما يئسا من نجاحه، ففرّ إلى غابة وأقام فيها وذهنه مشغول بمظهر الألف ونكبته بها؛ فأدرك أن الألف تظهر له في الحشيشة النابتة في الغابة، في جذع الشجرة، في كل فرع من فروعها، في كل ورقة من أوراقها، في الجدول الذي يشق الأرض، في جسمه منتصبًا، في الجبل الضخم يشرف على الوادي، في جسم الحيوان ممدودًا، في كل شيء، فليس إلا الألف، والعالم كله وحدة، هو ألف أو جملة ألفات، و متشابه التركيب، أو هو واحد التركيب. أليست الأَلِف في أصلها نقطة ثم بنيت عليها نقط فكانت الألف؟ فالعالم كله نقط تكونت منها أَلِفات، وهو إذا كتبها فإنه عندما يلمس القلم الورقة ترسم نقطة، ثم بامتداد القلم يكرر النقطة فتكون ألفًا، ثم تتعدد الأشكال، وتختلف الأوضاع والأصل واحد، والجوهر واحد، وقد يطغى الشكل على الأصل فلا تلتفت إليه النفس البلهاء؛ ولكن إذا دقق نظره وطهّر فكره عرف وحدة الأصل ووحدة الخالق؛ ثم هذا العالم مكون من ألفات، والألف مجموعة نقط، والنقطة صفر، والصفر لا شيء. وليست الألفات إلا مظاهر تساوي أصفارًا، وتخفي وراءها خالقها، كما يختفي وراء الألف كاتبها، فلا شيء إلا الخالق ولا شيء إلا الله.

فرح الطفل بفهم درس الألف، وتذكر فضل المعلم عليه لأنه هو الذي علّمه ولم يكن يفهم، فطرده من الكتّاب لجهله، فنزل من الغابة إلى المدينة، وذهب إلى المعلم وقبّل يده، وقال له: «لقد تعلمت درس الألف وفهمته، فهل تتفضل وتعلمني الدرس الذي يليه؟». ضحك المعلم من سخافته، وأراد أن يمتحنه فسأله أن يقرأ الألف ويكتبها، فقرأها وكتبها، وشرح للمعلم ما فهم منها، فدهش المعلم وحار عقله مما سمع، وقال للطفل: «يا بني أولى بك أن تكون أنت معلمي، وقد تعلمتَ من حرف الألف ما لم أتعلمه أنا من كل دروسي،

وقد استفدتَ من الألف ما لم يستفده كل أطفال الكتّاب ومعلميهم من الألف ولا من الباء ولا من كل الحروف متفرقة أو مجموعة».

فأخذ «بلّاشاه» يغنّي:

«أيها المعلم! جَنِّبني علمك، فلست في حاجة إلا إلى الألف. لقد أثقلتَ عقلك بعلمك، وأثقلت بيتك بكتبك، وضاعت المعرفة الحقة بين كثرة العلم وكثرة الكتب فيجنبني طريقتك.

أي معلمي! قد يكون الفرق بين الحق والباطل شعرة، وقد يخفي الحقّ عن الأنظار نسيج مهلهل، وربما كانت الألف مفتاح الكنز.

قالت لي روحي: إني راغبة في المعرفة الحقة فعلمنيها إن استطعت.

قلت: ألف.

قالت: ذاك يكفيني، فالإنسان إذا تفتحت نفسه، وصدق نظره كفاه حرف واحد».

* * *

هذه هي القصة الصوفية، وأما القصة المنطقية فهي أن شابًا قصّ على سيدة برنامجه في يومه، فقال:

«إني استيقظت صباحًا أذاكر «أجرومية» اللغة البرتغالية في أثناء حلقي ذقني، ثم أقرأ ساعة في اللغة الأسبانية قبل إفطاري، فإذا أفطرت ترددت بين القراءة والكتابة إلى الغَداء».

واستمر يقص عليها كيف يقضي نهاره وجزءًا من ليله بين قراءة وكتابة وأكل وحديث وألعاب رياضية إلى أن ينام، وهكذا دواليك.

أنصتت السيدة إلى حديث الشاب حتى أتمّه، وصمتت برهة ثم قالت:

«هذا كله حسن يا صديقي، ولكن قل لي: متى تفكر؟

وكان صمت، وكانت حيرة في الجواب؟

* * *

كلتا القصتين ترمي إلى غرض واحد، وهو التقليل من قيمة القراءة الكثيرة من غير تفكير، ورفع قيمة التفكير ولو في الدرس القليل.

ما أكثر ما نقرأ، وما أقل ما نفكر! وقد رأينا أن التفكير في الألف أنتج أكثر ألف مرة مما ينتج من حفظ حروف الهجاء كلها ومركباتها من غير تفكير.

لقد حدّثونا عن «ديمقريطس» الفيلسوف اليوناني أنه قلع عينيه لئلا يشغله النظر عن التفكير، والقراءة عن التأمل، وحدثونا حديثًا أخف فظاعة من هذا عن «فيثاغورس» أنه كان يقضي ليله في التفكير العميق في أحداث يومه. ولسنا نتطلب هذا ولا ذاك، ولكنا نتطلب تفكيرًا يعادل القراءة، وتأملاً يوازن النظر.

القراءة جمع أزهار، والتفكير تأليف طاقة.

القراءة جمع خرزات، والتفكير نظمها في عقد.

بل القراءة جمع أزهار وحشائش، وضم حجر كريم إلى حجر غير كريم. والتفكير اختيار الصالح واختيار المناسب، واستبعاد الفاسد واستبعاد غير المناسب.

القراءة ضم عقيمٍ إلى عقيم، والتفكير قدرة على الاستيلاد حتى من العقيم.

قراءة الكتاب وحفظه زيادة نسخة مطبوعة منه، والتفكير نفخ الروح في الصورة، ورد الحياة إلى الميت.

كثرة القارئين في الأمة زيادة مكتبة جامعة فيها، وعقل مفكر واحد باعثُ الروح، ونور الظلام، وحافز الهمم، وهادي الطريق.

كما أن في الكُتّاب كاتبًا مقلدًا وكاتبًا خالقًا، كاتبًا ناقلًا وكاتبًا مبتكرًا، كذلك في القراء قارئ ناقل وقارئ ناقد، قارئ مستقبِل لاقط، وقارئ مبتكر خالق.

القارئ الخالق هو الذي يقرأ الصفحة أو الجملة فيولدها، ويشعر أنه تفتحت له منها آفاق للتفكير كأنه يطل منها على العالم، يدرك وجوه الشبه بين الأفكار ووجوه الخلاف، يدرك وجوه الفروق الدقيقة بين ما يظنه الناس متشابهًا، ووجوه الشبه الدقيقة فيما يظنه الناس متخالفًا.

القارئ الصادق يأبى أن يجعل عقله مستودعًا للأشياء المتناقضة، ثم يتركها كما هي متناقضة؛ إنما يعمل فكره ليكوّن مما في عقله وحدة متجانسة، بعد أن يطرد منه ما لا ينسجم مع هذ الوحدة، يصفف أفكاره في نظام كما يصفف التاجر اللبق سلعته، ويستبعد منها الزيف كما يستبعده التاجر الأمين.

القارئ الناقد هو الذي إذا قرأ فهم، فإذا فهم قوَّم، فإذا قوَّم احتفظ بالصحيح واستبعد الزائف، فإذا احتفظ بالصحيح فكر في العلاقة بينه وبين ما سبق له ادّخاره في ذهنه، ثم كوّن من ذلك كله وحدة متجانسة ينظر من خلالها إلى العالَم، ويصدر بها حكمه على الأشياء.

* * *

ما أشقه من عمل! ولذلك لم يستطعه في كل أمة الأبطال.

أدرك هذا «بُلّاشاه»، وأدرك تبعة المعلومات يحصّلها، وعظم الواجبات للفكرة تحل في عقله، فلم يرضَ أن يحمل عبئًا غير عبء الألف.

وأدركت هذا السيدة فارتاعت من كثرة ما يلتهم صديقها من غير هضم، وأرشدته في لطف إلى أن خير ما أُكل ما هضم.

ألست معي في أن القصتين طريفتان؟

* * *

الربيع

لعن الله السياسة وألاعيبها، فقد أفسدت علينا كل شيء، حتى الطبيعة وجمالها. كنا ننتظر القمر ننعم بجماله، وتمرح نفوسنا في ضيائه، فإذا الغارات تنتهزه كما كنا ننتهزه، وترقبه كما كنا نرقبه، فاقترنت هالته بالقتل والدمار، وتلوّن بياضه بحمرة الدماء، وأصبح ضياؤه وخير منه الظلام، وبياضه وخير منه السواد، وفقد شعريته وفضيته وجماله وبهاءه، إلى حين.

وعَدَتْ أيضًا على الربيع الذي لم يمسس جماله أحد، ولم ينتقص جلاله أحد؛ فأخرجت لنا «لعبة» شيطانية سمتها «هجوم الربيع» أفقدته جماله وجلاله، وأحلت بها الخوف محل الأمن، وكراهة الاستقبال مكان بهجة الاحتفال.

ومع هذا فسنتناسى ألاعيبها وإفسادها، ولنلخص للربيع نستقبله ونحيِّيه، فألاعيب السياسة موجات لا تعلو حتى تفنى، ولا تُخلَق حتى تنعدم. ولا تكون حتى تفسد؛ والزمان باقٍ، والقمر باقٍ، والربيع باقٍ، وقلوب الناس لاستقبال الجمال والاحتفاء به باقية.

* * *

هذا أنت -أيها الربيع- أقبلتَ فأقبلت معك الحياة بجميع صنوفها وألوانها؛ فالنبات يَنبت، والأشجار تورق وتزهر، والهرة تموء، والقُمْري يسجَع، والحمام يهدر، والغنم تثْغو، والبقر يخور، وكل أليف يدعو أليفه، و«يا حسنها حين تدعوه فينتسب»؛ حتى الأغصان في الأشجار تغار فتتمايل وتتعانق، ولا تهدأ حتى تُمثِّل دور الأحباب. فكل شيء -بك- يشعر بالحياة، ويمتلئ بالحياة، ويستولد الحياة، ويستجمل الحياة، وينسى هموم الحياة، ولا يذكر إلا سعادة الحياة؛ فإن كان الزمان جسدًا فأنت روحه، وإن كان مظهرًا فأنت سره، وإن كان عمرًا فأنت شبابه.

* * *

هذا أنت تغار على النهار المضيء، وقد اعتدى عليه الليل وظلمته، فسلبه قطعة منه،

صبغها بأديمه، وأمده الشتاء القاسي فأعانه على ظلمه، حتى أعتدَلْتَ في منصبك، واستويتَ على عرشك، فرددتَ ظلامته في رفق وأناة، بالثانية والدقيقة، حتى اعتدل الليل والنهار؛ ثم أبيتَ إلَّا أن يَظْلم النهارُ كما ظلم الليل، فالجروح قصاص، فكنتَ في ظلمك عادلًا، وفي محاباتك منصفًا، وكان لك المجد إذ وقفتَ بجانب النور والبياض، على حين وقفَ غيرك بجانب الظُّلمة والسواد.

* * *

وهذا أنت -بسحرك العجيب- استطعت أن تجعل من الشمس حائكًا وشاءً نساجًا، يحوك أجمل الروض ويوشِّيه، ويبدع في النقش والألوان والتصوير، فإذا الدنيا كلها جمال ألوان وجمال تصوير، يقلده أكبر فنان فيفشل، ويحاكيه أكبر مصور فيعجِز، فأين المادة من الروح؟ وأين التقليد من الإبداع؟ لقد حولت فعل الشمس في السماء إلى الأرض فجمَّلْت الثرى بنجوم الثريا، ونسقَتْ فيه ألوانًا تزري بقوس قزح، وألفت من أزهاره أشكالًا وألوانًا وهندسة أين منها نهر المجرة، حتى خِلتُ أن أهل السماء يرحلون منها ليروا ما أبدعت الشمس في الأرض [من الرجز]:

أبــدى لــنــا فَــصْــلُ الــرَّبــيــعِ مــنــظــرًا
بــمِــثْــلِــهِ تَــفْــتَــنُّ ألــبــابُ الــبَــشَــرْ
وشــيًــا وَلٰــكِــنْ حــاكَــهُ صــانِــعُــهُ
لا لابــتــذالِ الــلّــبــسِ لٰــكِــنْ لــلــنَّــظَــرْ
عــايَــنَــهُ طَــرْف الــسَّــمــاءِ فــانــثَــنَــتْ
عــشــقًــا لــه تَــبْــكــي بــأجــفــانِ الــمَــطَــرْ
فــالأرضُ فــي زِيِّ عــروسٍ فــوقَــهــا
مــن أدمُــعِ الــقَــطْــر نِــثــارٌ مــن دُرَرْ

جعلْتَ الدنيا ملء العيون بما أبدعت من ألوان، وما مايلت من أغصان، وما حكت من وشي، وما صنعت من جمال؛ فأبيض ناصع في أخضر ناضر، وتعاريج سوداء في زهرة صفراء أو بيضاء، وأشكال مهندسة تستخرج العجب وتأخذ باللب [من الرجز]:

مــن زهــرةٍ جــمــيــلــةِ الــمــنــظــورِ
ضــاحــكــةٍ كــالــوافــدِ الــمــحــبــورِ

باكيةٍ كالعاشقِ المهجورِ
شذرها الغَيْثُ بلا شُذورِ
شقائقٌ كناظِرِ المَخمورِ
وأقحوانٌ كثغورِ الحُورِ
ونرجسٌ كَأَنْجُمِ الدَّيْجُورِ
والطَّلُّ منثورٌ على المَنْثُورِ
يرصِّعُ الياقوتَ بالبَلُّورِ

تذكرنا قدود الأشجار بقدود الحسان، وحمرة الورد بحمرة الخد، وبياض الزهر ببياض الثغر، وتعانق الأغصان بتعانق الخلان. فأنت تعرض الجمال وتوحي بمعاني الجمال [من المتقارب]:

أرتكَ يدُ الغَيْثِ آثارَها
وَأَعْلَنَتِ الأرضُ أسرارها
فما تَقَعُ العينُ إلاَّ على
رياضٍ تُصَنِّفُ أنوارها
يفتِّحُ فيها نسيمُ الصَّبا
خباها ويَهْتِكُ أستارها
وَيُدني إلى بعضِها بعضَها
كضَمِّ الأحبَّةِ زُوَّارها
كأنّ تَفَتُّحَها بالضُّحى
عَذَارى تُخَلِّلُ أزرارها
تغضُّ لنرجِسها أَعْيُنًا
وطورًا تحدِّقُ أبصارها
إذا مُزْنةٌ سكبت ماءَها
على بقعةٍ أشعلت نارها

وعلى الجملة فقد كانت الدنيا -كما قال أبو تمام- بغيره معاشًا، فأصبحت به منظرًا.

* * *

وكما جعلْتَ الدنيا ملء العين جعلتها ملء السمع، فرأت الأطيار ما وشَّيْتَه في أرضك، فحرّك أشجانها، وأطلق أصواتها، وجعلَت منها موسيقى مختلفة النغمات، متعددة الأصوات. هذا البلبل يغني ضاحكًا، وهذا الحمام يغني باكيًا...

كانت عَجْماءَ فأفصحَتْ في أيامك، وكانت خرساء فأنطقها جمالك، وكانت بكماء فراعها منظرك؛ فوقفَتْ على السَّرْو والدَّوح من خطبائك، فلما غنت حركت أشجان الإنسان، وأوحت إليه بالمعاني الحسان؛ فأفاض الشعراء في وصفها، وبكوا لبكائها، وتغنوا من غنائها.

* * *

ثم هذا أنت ملأت الجو عطرًا بأزهارك الطيبة، وثمارك العطرة، فأنعشت النفوس، وبعثت الأمل. فلما خاف الناس من غيبتك، وانقطاع شذاك، أمعنوا الفكر في الاحتفاظ برائحتك، فاستخرجوا الروائح من أزهارك، وتحايلوا للانتفاع بها في غيابك، فاخترعوا الغوالي والندود، وعُنوا بالاستقطار والتصعيد، يتعطرون بها ذكرى لعطرك، ويتفننون فيها تقليدًا لعبيرك.

* * *

لقد اعتدلْتَ في حرارتك فلم تغل في بردك غلو الشتاء، ولا في حرك غلو الصيف، فكنت جميلًا في جوك، كما كنت جميلًا في كل شيء من آثارك.

* * *

ليت الزمان كان ربيعًا كله، إذًا لتذوّق الناس الحال كما ينبغي، فكان كل ما يصدر عنهم جميلاً لا قبح فيه، خيرًا لا شرّ فيه. فهل الرذيلة والشر إلا قبح كقبح الشتاء والصيف؟ وهل الفضيلة والحق إلا جمال كجمال الربيع؟

* * *

المتنبي وسيف الدولة

-1-

كان لسيف الدولة ناحية فنية قوية، لا تقل شأنًا عن ناحيته السياسية والحربية، فهو يحب الفن ويولع به، ويتذوقه ويساهم فيه.

وقد وردت في ذلك أخبار متفرقة تدل عليه.

فهو مولع بالتصوير، رغم النزعة الشائعة إذ ذاك في كراهيته، فيروي صاحب اليتيمة أن سيف الدولة أمر بضرب دنانير للصِّلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته، فأمر يومًا لأبي الفرج البَبّغاء بعشرة منها، فقال [من المنسرح]:

نَحْنُ بجودِ الأميرِ في حَرَمِ
يرتَعُ بينَ السُّعُودِ والنِّعمِ
أبدعُ من هذهِ الدنانيرِ لم
يجرِ قديمًا في خاطرِ الكرمِ
فقد غَدَتْ باسمِهِ وصورتِهِ
في دهرِنا عُوذةً من العدمِ

ولعله استوحى ذلك من صورة دنانير الروم.

وأدل على ذلك ما ذكره المتنبي في صفة خَيْمة لسيف الدولة، تدلنا على ذوقه وحبه للفن حقًّا، فقد ذكر المتنبي أن هذه الخيمة أو القبة التي كانت تضرب على سيف الدولة، كانت قطعة فنية رائعة.

ففيها صورة روضة بديعة لم يُحكْها السحاب وإنما حاكها النسَّاج، وأغصان الأشجار ترفرف عليها طيور لا تنقص عن الطيور الطبيعية إلا بالغناء.

وفيها صُوَر وحوش يحارب كل جنس عدوه، ولكنها سلبت الروح فتسالمت.

وإذا ضربتها الريحُ ماج بعضها في بعض، فكأن صُوَر الخيل تجول، وكأن صُوَر الأسود تختِلُ صُور الظباء لتصيدها وتدركها.

وفي ناحية من الخيمة صورة ملك الروم، وصورة سيف الدولة، وملك الروم يسجد لسيف الدولة، ويخضع له ويتذلل، ويُقبّل بساطه، إذ لا يقدر على تقبيل كمه ويده لارتفاع مكانه.

وبين يدي سيف الدولة الملوك متكئين على مقابض سيوفهم من هيبته، وفي حواشي الخيمة لآلىء من النسيج تكاد لا تختلف عن اللالىء الحقة إلا أنها لم تنظم ولم تثقب. ففي ذلك يقول المتنبي [من الطويل]:

عليها رياضٌ لم تَحُكْها سَحابةٌ
وأغصانُ دَوْحٍ لم تَغَنَّ حمائمُهْ

وفوقَ حواشِي كلِّ ثوبٍ مُوَجَّهٍ
من الدُّرِّ سِمْطٌ لم يُثَقِّبْهُ ناظمُهْ

ترى حيوانَ البرِّ مُصْطلِحًا بها
يحاربُ ضِدٌّ ضِدَّهُ ويُسالمُهْ

إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ ماجَ كأنَّهُ
تجولُ مَذاكيهِ وتَدْأى ضَراغمُهْ

وفي صورةِ الرُّوميِّ ذي التَّاج ذِلَّةٌ
لأبلجَ لا تيجانَ إلاَّ عَمائمُهْ

تُقَبِّلُ أفواهُ الملوكِ بِساطَهُ
ويَكبُرُ عنها كُمُّهُ وبراجِمُهْ

قِيامًا لمن يشفي من الدَّاء كَيُّه
ومِنْ بَيْنَ أُذْنَيْ كلِّ قَرْمٍ مواسِمُهْ

قَبائعُهَا تَحْتَ المرَافقِ عِيْبةً
وأنفَذُ ممَّا في الجُفُونِ عَزَائمُهْ[1]

---

(1) ديوانه 4/ 52 ـ 54.

وهي صُورة بديعة، تشهد بحب سيف الدولة للتصوير والفن.

ثم أولع بالموسيقى، فكان في قصورة الجواري المغنيات، ويرون أن الفارابي لما زاره عرض على سيف الدولة قيانه فأسمعنه، فأسمعه الفارابي من قانونه خيرًا مما سمع.

وأنمى من هذا وأظهر ناحية سيف الدولة الأدبية، ولم يذكر المؤرخون لنا كيف ثقّف وكيف عُلِّم، إلا أنهم ذكروا أنه كان من شيوخه أبو ذر الشاعر، وابن خالويه اللغوي النحوي، وأنه درس دواوين الشعر القديم، وكانت تغذى عواطف العربية، من تمدح بالشجاعة والكرم، كما كان يعرف أيام قبيلته تغلب ومفاخرها.

وتدل الدلائل كلها على دقة حسّه الأدبي وذوقه الفنيّ. يقول فيه المتنبي [من الطويل]:

عليمٌ بأسرارِ الدِّياناتِ واللُّغَى له خطراتٌ تفضحُ النَّاسَ والكُتْبا[1]

فهل نستدل بهذا على أنه كان يعرف غير اللغة العربية أيضًا؟ أظن ذلك؛ فابن خلكان يروي في ترجمة الفارابي أنه كان لسيف الدولة مماليك، وله معهم لسان خاص يحدثهم به.

ومن مظاهر حبه للأدب وسعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كان كثيرًا ما يتمثل بأبيات قديمة، وتعجبه أبيات يرددها، أو قافية يستملحها، أو معنى يستجيده؛ فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها. فمرّة ـ مثلاً ـ ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف [من المتقارب]:

أمِنِّي تخافُ انتشارَ الحديثِ وحظِّيَ في سَترِهِ أوفرُ
وَلَوْ لَمْ أصُنْهُ لبُقْيَا عليكَ نظرتُ لنفسي كما تنظرُ[2]

واستحسن المعنى، فأرسل رسولاً مستعجلاً لأبي الطيب ومعه رقعة فيها البيتان يسأله إجازتهما، فقال المتنبي أبياته المشهورة [من المتقارب]:

رضاكَ رِضايَ الَّذي أُوثِرُ
وسِرُّك سِرِّي فما أُظْهِرُ...[3]

وديوان المتنبي وغيره من الشعراء مملوء بهذه الأمثال.

ثم مجلسه الأدبي الحامل في حلب، والذي قلّ أن يكون له نظير؛ فالشعراء والأدباء في

---

(1) ديوانه 1/ 187. (2) ديوان ص 171. (3) ديوانه 2/ 194.

مجلسه يثيرون الموضوعات المتنوعة، ويساهم سيف الدولة، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، ويجزل العطاء لمن أجاد؛ فأحيانًا يستذكرون الشعر القديم، وأحيانًا يسألهم إجازة شعر، وأحيانًا مسألة نحوية، وأخرى مسألة لغوية، حسبما اتفق؛ فمثلاً مرة ينشىء سيف الدولة هذا البيت [من المقتضب]:

لـــكَ جِـــسْـــمـــي تُـــعِـــلُّـــه
فـــدَمـــي لـــمْ تُـــحـــلُّـــهُ

ويطلب من أبي فراس أن يجيزه، فيقول [من المقتضب]:

أنـــا إن كـــنـــتُ مـــالـــكًـــا
فـــلـــيَ الأمـــرُ كـــلُّـــهُ

ومرة يسأل المتنبي أن يعيد إنشاد قصيدته [من الطويل]:

علـى قـدرِ أهْـلِ الـعَـزْمِ تـأتـي الـعَـزَائـمُ
وتـأتـي عـلـى قَـدْرِ الـكـرامِ الـمَـكـارمُ[1]

وكان سيف الدولة يحب هذه القصيدة ويستعيدها، فلما وصل إلى قوله [من الطويل]:

وقفْتَ وما في الموتِ شَكٌّ لواقفٍ كأنَّكَ في حَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نائمُ
تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمَةً ووجْهُكَ وضَّاحٌ وَثَغْرُكَ باسمُ[2]

وقال سيف الدولة: قد انتقدنا عليك هذين البيتين؛ لأن الشطرين لا يلتئمان، وكان خيرًا أن تخالف بينهما فتقول [من الطويل]:

وقـفـتَ ومـا فـي الـموتِ شـكٌّ لـواقـفٍ
ووجـهـك وضَّـاحٌ وثـغـرُكَ بـاسـمُ
تَـمُـرُّ بـكَ الأبـطـالُ كـلـمـى هـزيـمـةً
كـأنَّـكَ فـي جَـفْـنِ الـرَّدى وَهْـوَ نـائـمُ

وهو نقد دقيق، وإن كان المتنبي قد رد عليه فقال: «إن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك».

---

(1) ديوانه 4/ 94.   (2) ديوانه 4/ 101 ـ 102.

وسأل سيف الدولة مرة من في مجلسه: هل تعلمون اسمًا ممدودًا وجمعه مقصور؟ فلم يحيروا جوابًا إلا ابن خالويه فقال عذراء وعذارى، وصحراء وصحارى. وهكذا كان مجلسه حافلًا بالأدب والنقد.

وهو مع ذلك شاعر غير أنه مقل، فقد رويت له في كتب الأدب أشعار، وإن كان كثير منها قد نسب لغيره في بعض دوادوين الشعراء. فلعله كان يتغنّى بها فيظن بعض الناس أنها له، ولكن بعضها يكاد يجمع الرواة على أنه لسيف الدولة، كقوله في جارية رومية له يهواها ويخشى عليها من حظاياه، فأودعها قلعة وقال [من الخفيف]:

راقبتني العيونُ فيكِ فَأشْفَقْـ
تُ وَلَمْ أخلُ قطُّ من إشفاقِ
ورأيتُ العذوَل يَحْسِدني فيـ
كِ مُجِدًّا يا أنفس الأعلاقِ
فتمنَّيتُ أن تكوني بعيدًا
والذي بيننا من الودِّ باقِ
رُبَّ هجرٍ يكونُ من خوفِ هجرٍ
وفراقٍ يكونُ خوف فراقِ

وقال [من الطويل]:

تجنَّى عليّ الذَّنبَ والذَّنبُ ذنبُه
وعاتَبَني ظلمًا وفي شِقِّهِ العَتْبُ
وأعرضُ لمَّا صار قلبي بكفِّهِ
فهلاَّ جفاني حين كان ليَ القَلْبُ
إذا برِمَ المولى بخدمةِ عبده
تجنَّى له ذنبًا وإن لم يَكُنْ ذَنْبُ

سيف الدولة هذا الفنان الناقد الشاعر الملك، هو الذي اتصل به المتنبي.

كان المتنبي بعد خروجه من سجنه لدعواه النبوة، أو لما قبل من دعواه النبوة بائسًا فقيرًا ناقمًا على الزمان وأهله، يشعر بعظمته وعلو نفسه؛ ثم لا يجد لهذه العظمة منفذًا؛ فهو يتردد

على من يسميهم الناس عظماء، فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديرًا لنفسه ولا لشاعريته، حتى رووا أنه مدح على بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها [من الكامل]:

يأبى الشُّموسُ الجانحاتُ غَواربا اللأبساتُ من الحريرِ جَلَابِبا[1]

فأعطاه عليها دينارًا واحدًا فسميت القصيدة الدينارية.

وقالوا إن أكثر ما نال على شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مئة دينار منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيدالله بن طُغْج بالرملة.

فكان اتصاله بسيف الدولة صفحة جديدة في أدبه، وصفحة جديدة في رخاء عيشه.

كان أبو الطيب يتنقل في ربوع الشام مادحًا من يخاله كريمًا محسنًا، حتى نزل على أبي العشائر، عم سيف الدولة، وعامل أنطاكية، ومدحه بقصائد كثيرة، يقول فيها [من الخفيف]:

شاعرُ المجدِ خِدْنُهُ شاعرُ اللَّفْـ ـظِ كلانا رَبُّ المعاني الدِّقاقِ

لم تزلْ تسمعُ المديحَ وَلٰكِنْـ ـنَ صهيلَ الجيادِ غيرُ النِّهاقِ[2]

وسار مع أبي العشائر سيرة مصغّرة للسيرة التي سارها بعد مع سيف الدولة.

ففي شهر جمادي الآخرة من سنة 337هـ زار سيف الدولة أنطاكية، وكان بها أبو الطيب. وكان قد سمع سيف الدولة به وبشعره، ورأى أن يزيد به بلاطه، فقدمه إليه أبو العشائر، وعرض عليه أن يكون شاعره.

كان غير أبي الطيب من الشعراء لو عرض عليه مثل هذا العرض يطير فرحًا، ويرى ذلك أمنية الأماني وسعادة الدهر. ولكن أبا الطيب تردد طويلًا وأداه تردده أن يشترط. لم يشترط مالًا يعطاه، ولا جائزة ينالها، وهو لهذا ضامن. ولكنه اشترط ألا يعامَل معاملة سائر الشعراء؛ لأنه ليس شاعرًا فحسب، بل شاعرًا وعظيمًا. وقد سمع أن الشعراء يذلون لسيف الدولة ذلة لا يرضاها لنفسه: سمع أنهم يقبّلون الأرض بين يديه، وأنهم ينشدون شعرهم وهم وقوف أمامه، فاشترط ألا يكون شيء من ذلك، إنما يكون «ملك الشعراء يمدح ملك الناس»؛ فإذا كان سيف الدولة راكبًا مدحه المتنبي وهو راكب، وإذا كان جالسًا مدحه وهو جالس، ثم لا يظهر بمظهر الخضوع من تقبيل الأرض ونحوه.

---

(1) ديوانه 1/ 250. (2) ديوانه 3/ 110.

وعرف سيف الدولة منزلته وشهرته، وأنه سيكون صوتًا مدوّيًا في العالم العربي يشيد بذكره فقبل شروطه.

لبث المتنبي مع سيف الدولة نحو عشر سنين من سنة 337 إلى سنة 346 أغلبها في حلب، وقال فيها نحو ثلث شعره كمًّا، وأجود شعره كيفًا.

لم يجُدْ شعر المتني في زمنٍ جودتَه أيام سيف الدولة لأسباب: أهمها أن المتنبي لم يجد ما يغذي نفسه وعواطفه في نواحيها المختلفة كما وجدها في هذه الأيام، فالمتنبي عربي يعتز كل الاعتزاز بعربيته؛ فكان يحتقر كافورًا لأعجميته، ويسبّ ابن خالويه لأعجميته، ويقول في أبياته [من الطويل]:

تُهابُ سيُوفُ الهِنْدِ وَهْيَ حدائدُ
فكيفَ إذا كانت نِزَارِيَّةً عُرْبا[1]

وجرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل، فسأل سيف الدولة المتنبي ما تقول؟ فقال [من الرجز]:

إن كنتَ عن خيرِ الأنامِ سائلا فخيرُهُمْ أكثرُهُمْ فَضَائلا
مَنْ كُنْتُ منهم يا هُمَامُ وَائلا الطَّاعنين في الوغى أوائلا
والعاذلينَ في النَّدى العواذلا قد فَضُلوا بِفَضْلِكَ القبائلا[2]

فكان -لهذا- إذا مدح كافورًا وغيره لم يُخْلص ولم يواته طبعه، وإذا مدح سيف الدولة مدح عربيًّا لا يرى غضاضة في مدحه، وانثالت عليه المعاني العربية انثيالًا.

وكان المتنبي وسيف الدولة لِدَيْن، شاء الله أن يولدا في سنة واحدة سنة 303، واصطحبا وسنهما أعز أيام الشباب، فقضيا معًا من سن 34 إلى 44، والعواطف تتمازج وتتحاب؛ إذا تقاربت في السن واتفقت في الشباب.

وسيف الدولة فارس والمتنبي فارس، كلاهما يعشق الخيل والضرب والطعان، فإن خرج سيف الدولة فارسًا خرج المتنبي فارسًا، وقد صحبه في عدة غزوات إلى بلاد الروم، ومنها غزوة قالوا إنه لم ينجُ منها إلا سيف الدولة وستة نفر من صحبه أحدهم المتنبي، فإذا شعر

---

(1) ديوانه 1/ 186.

(2) ديوانه 3/ 232.

المتنبي في الغزوات والقتال والشجاعة والحرب فإنما يستمد ذلك من نفسه، ومن شعوره، لا من ألفاظ حشاها في رأسه ينظمها ولا تتصل بقلبه.

ثم ما أغدق عليه سيف الدولة من مال لم يحلُمْ به ولم تره عينه من قبل؛ وكان المتنبي محبا للمال حبًّا لا يتناسب وطلبه للمجد وعلو همته، وقد علله هو بأن ذلك يرجع إلى أيام صباه يوم كان لا يجد قوت يومه، فعلَّمه ذلك قيمة المال والشهوة إليه والحرص عليه، ويعبر عما في نفسه من ذلك فيقول [من الطويل]:

فلا يَنْحَلِلْ في المجدِ مالُكَ كلُّهُ
فينحَلَّ مجدٌ كان بالمالِ عَقْدهُ

ودبِّرْهُ تدبيرَ الذي المَجْدُ كفُّهُ
إذا حارَبَ الأعداءَ والمالُ زَنْدُهُ

فلا مجْدَ في الدُّنيا لمن قلَّ مالُهُ
ولا مالَ في الدُّنيا لمن قلَّ مجْدُهُ[1]

فغذاه سيف الدولة من هذه الناحية حتى أتخمه، وكان في سيف الدولة الأريحية العربية والكرم العربي، فتقابلت هذه الصفة مع شَرَه المتنبي وطعمه، فكان يعطيه في كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار، غير الهدايا من أفراس وجوار وسيوف، وأقطعه مرة إقطاعًا بناحية معرة النعمان كان يخرج إليها المتنبي أحيانًا، فزاد العطاء في فصاحة المتنبي وحمله على العمق في استخراج المعاني، واللُّهى تفتح اللَّها.

وفوق هذا وذاك فقد كان كل الوسط الذي حول المتنبي أيام سيف الدولة يتطلب منه الإجادة، فلقد كان حوله شعراء عديدون نابهون كأبي فراس والنامي والببغاء وابن نُباتة وغيرهم، ونقاد ونحاة ولغويون، والملك على رأسهم يشعر وينقد ويقدر، ويأتي من أعمال الفروسية والبطولة ما ينطق العيى.

فكيف بعد ذلك كله لا يكون عصر المتنبي مع سيف الدولة خير عصوره وأحسنها إنتاجًا. وقد سئل هو نفسه في ذلك: لِمَ تراجعَ شعره بعد مفارقة آل حمدان فقال: قد تجوزت في قوله وأعفيت طبعي، واغتنمت الراحة، منذ فارقت آل حَمْدان. وفيهم من يقول: «تسائلني من أنت وهي عليمة» يعني أبا فراس، وفيهم من يقول [من الوافر]:

---

(1) ديوانه 2/ 122 ـ 123.

وقد علمت بما لاقته منا
قبائلُ يعرُبٍ وبني نزارِ
لقيناهُم بأرماحٍ طوالٍ
نُبشِّرُهُمْ بأعمارٍ قصارِ

يعني أبا زهير بن مُهلهِل الحمداني.

وفيهم من يقول [من الكامل]:

أأخا الفوارسِ لو رأيتَ مواقفي — والخيلُ من تحتِ الفوارسِ تنحطُ
لقرأت منها ما تخطُّ يدُ الوغى — والبِيضُ تَشكُلُ والأسِنَّةُ تَنقُطُ

يعني أبا العشائر. ا هـ.

وهكذا احتمعت كل هذه الأسباب على إحسان المتنبي في هذه الفترة كل الإحسان. وإن كان ذلك الخوف من الناقدين، والعمق في إعمال الفكر، أخرجه أحيانًا إلى ما يسميه النقاد بالخيال الواهم، ويعنون به الإبعاد في الخيال إلى حد الوهم.

* * *

-2-

اتصل المتنبي بسيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه الأول، فأخذ يسجل أحداثه الحربية والمدنية تسجيلًا أدبيًا. فإن سجل المؤرخون الحقائق صرفة فالمتنبي يسجلها ممزوجة بعواطفه ومشاعره.

قد كانت هذه الفترة فترة غزوات متوالية من سيف الدولة للروم وللخارجين عليه من أقاربه وغيرهم، فأخذ المتنبي يقول قصيدة لكل موقعة، فقد ظفر بحصن برزُوَيه سنة 337 فقال المتنبي قصيدته [من الطويل]:

وفاؤُكما كالرَّبْعِ أشْجاهُ طاسِمُهْ
بأنْ تُسعِدَا والدَّمعُ أشفَاه ساجِمُه[1]

(1) ديوانه 4/ 43.

وحارب سيف الدولة القرامطة هذا العام، واستنقذ منهم عمه أبا وائل، فقال المتنبي قصيدته [من المتقارب]:

إلامَ طَـمَـاعِـيَـةُ الـعـاذِلِ ولا رأيَ في الـحبِّ للـعـاقـلِ[1]؟

وخرج هذا العام أيضًا لنصرة أخيه ناصر الدولة على معز الدولة الديلمي، فاضطر معز الدولة إلى الصلح، فقال المتنبي قصيدته [من البسيط]:

أَعْلى الممالكِ ما يُبنَى على الأَسَلِ والطَّعْنُ عند مُحبِّيهنَّ كالقُبَلِ[2]

واستعد لغزو الروم سنة 339 وأعد جيشه، فقال المتنبي قصيدته [من الوافر]:

لـهـذا الـيـومِ بَـعْـدَ غـدٍ أرِيـجُ ونـارٌ فـي الـعـدوِّ لـهـا أجـيـجُ[3]

فلما انهزم سيف الدولة في هذه الوقعة قال قصيدته [من البسيط]:

غيْرِي بأكثرِ هذا الناس يَنخدِعُ إن قاتلوا جبُنُوا أو حدَّثُوا شَجُعُوا[4]

وقال: إن سبب الهزيمة ما لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجبناء، وإن كل غزوة بعد هذه الغزوة فلسيف الدولة النصرة، لأن جنوده قد نُقِّيت من الأنذال، ولم يبقَ فيهم إلا الأبطال.

وبنى سيف الدولة مَرْعَش سنة 341، فقال المتنبي قصيدته [من الطويل]:

فـديـنـاكَ مِـن رَبْـعٍ وإنْ زدْتـنـا كـرْبَـا

فـإنَّكَ كـنـتَ الـشَّـمْـسَ لـلـشَّـرْقِ والـغـرْبَـا[5]

وجاء رسول ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء سنة 341 فقال المتنبي [من المتقارب]:

لـقِـيـتَ الـعـفـاةَ بـآمـالـهـا وزُرْتَ الـعُـداةَ بـآجـالـهـا[6]

وبنى سيف الدولة ثغر الحدَث سنة 343، فقال فيه المتنبي القصيدة المشهورة [من الطويل]:

عـلـى قـدرِ أهـلِ الـعـزمِ تـأتـي الـعـزائـمُ

وتـأتـي عـلـى قـدْرِ الـكِـرَامِ الـمـكـارِمُ[7]

---

(1) ديوانه 3/ 152. (2) ديوانه 1/ 359. (3) ديوانه 3/ 163. (4) ديوانه 2/ 330.
(5) ديوانه 1/ 182. (6) ديوانه 3/ 215. (7) ديوانه 4/ 94.

وهكذا كان كل عمل حربي يأتيه سيف الدولة يسجله المتنبي ويفلسفه ويؤدبه، ويخرجه قصيدة رائعة.

وكذلك كان يسجل أحداث سيف الدولة المدنية، فتموت أم سيف الدولة فيرثيها بقوله [من الوافر]:

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ والعَوَالي وتقْتُلُنا المنونُ بلا قِتَالِ[1]

ويموت ابن سيف الدولة فيرثيه بقصيدة [من الطويل]:

بنَا منكَ فوقَ الرَّملِ ما بكَ في الرَّملِ
وهذا الذي يُضْني كذاك الذي يُبْلي[2]

ويموت غلام سيف الدولة «يَماك» فيرثيه بقصيدته [من الطويل]:

ولا يُحْزِنِ اللهُ الأميرَ فإنَّني لآخُذُ من حالاتِهِ بنَصيبِ[3]

وتموت أخت سيف الدولة فيرثيها بقصيدته [من الخفيف]:

إن يكُنْ صبرُ ذِي الرَّزِيئة فضلًا
تكُنِ الأفضلَ الأعزَّ الأجَلّا[4]

ويمرض سيف الدولة فيقول المتنبي [من الطويل]:

إذا اعتلَّ سيفُ الدولة اعتلَّت الأرضُ
ومَن فوْقَها والبأسُ والكرمُ المحْضُ[5]

ويخرج لسيف الدولة دُمّل فيقول المتنبي [من الوافر]:

أيدري ما أرابَك مَن يُريبُ
وهل ترقى إلى الفَلكِ الخُطُوبُ[6]

ويشفى سيف الدولة فيقول المتنبي [من البسيط]:

المجدُ عُوفي إذ عُوفيتَ والكرَمُ وزال عنكَ إلى أعدائِكَ الألَمُ[7]

ويأتي عيد الفطر فيهنئه، وعيد الأضحى فيهنئه.

---

(1) ديوانه 3/ 140. (2) ديوانه 3/ 170. (3) ديوانه 1/ 174. (4) ديوانه 3/ 242.

(5) ديوانه 2/ 327. (6) ديوانه 1/ 201. (7) ديوانه 4/ 91.

وبذلك أصبح شعر المتنبي في هذه الفترة سجلًا لكل أعمال سيف الدولة وأحداثه كبيرها وصغيرها، سلمها وحربها، أحزانها وأفراحها، جدها وهزلها.

والمتتبع للديوان يرى أن شعر المتنبي في وصف حروب سيف الدولة، وشعره في الحزن؛ أرقى من شعره في المديح وشعر السرور. وسبب ذلك -على ما يظهر- أن نوع الشعر الذي يشتد اتصاله بنفس المتنبي، يجود ويغزر. وقد كان المتنبي فارسًا تعجبه الفروسية والبطولة، فإذا قال في ذلك يستخرجه من أعماق قلبه، وكانت نفسه حزينة؛ لأنه لم ينل المجد الذي يصبو إليه، فيحزن حزنًا عميقًا على الميت، وهو في حقيقة الأمر يحزن على ليلاه. أما السرور وأما المديح في غير البطولة فصياغته لا تلمس إلا السطح الظاهري من قلبه.

وكما سجل المتنبي أحداث سيف الدولة، سجل نفسه في مشاعرها المختلفة، وانقباضها وانبساطها، وأمنها واضطرابها. وكان المتنبي حادَّ الذكاء، حادَّ المزاج، صريحًا، لا يستطيع أن يخفي ما في نفسه، وقد توالت عليه أوقات شدة ورخاء، وتتابعت عليه ساعات أمن وساعات قلق. وكان مضطربًا بين الرضا والغضب، والبؤس والنعيم. ومما زاد الأمر صعوبة أن سيف الدولة من جنسه، سريع الرضا، سريع الغضب، سمح إلى آخر حدود السماحة، منتقم إلى آخر حدود الانتقام، ينفعل أحيانًا لقصيدة واحدة للمتنبي انفعالات متعاكسة، فيعجبه البيت في مدحه فيطرب له أشد الطرب، ويفخر المتنبي عليه بنفسه فيهيج أشد الهياج. وطبعان على نمط واحد بهذا الشكل لا يمكن أن يسودهما الصفاء التام ولا الجفاء التام، فإذا ساد الصفاء فسرعان ما يعتكر، وإذا اعتكر فسرعان ما يصفو. وهكذا كان حالهما دائمًا، فترى سيف الدولة يعطي المتنبي الألوف في لحظة، ويرضى عن قتله في لحظة ونرى المتنبي له عينان، عين في المجد وعين في المال، يأخذ المال فيرضى، وينظر للمجد فيثور، والمجد في نظره أن يسود هو، ولا يكون مَسُودًا لأحد، حتى ولو كان سيف الدولة.

وبجانب ذلك كان بلاط سيف الدولة مسرحًا تمثل فيه دسائس كثيرة للمتنبي، فقد كان فيه شعراء كثيرون، كانوا شعراء سيف الدولة قبل المتنبي وأيامه، وكانوا ذوي حُظوة كبرى عند سيف الدولة، فكسفهم المتنبي، وعلاهم بنفسه وبشعره؛ فكان من الطبيعي أن يحقدوا عليه ويدسوا له وغير الشعراء من الأدباء والعلماء كذلك، يرون المتنبي يأخذ أكثر مما يأخذون، وينال القرب من سيف الدولة أكثر مما ينالون، فكيف لا يغضبون؟

وربما كان من أشد هؤلاء عداوة له أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس وابن خالوَيْه النحوي اللغوي.

كان سيف الدولة يميل إلى النامي قبل المتنبي، فلما جاء المتنبي مال عنه، فغاظ ذلك النامي، وخلا يومًا بسيف الدولة وعاتبه وقال له: لِمَ تُفضِّل عليَّ ابن عَبْدان السقا؟ (يعني المتنبي) فأمسك سيف الدولة عن الجواب. فلما ألحّ قال سيف الدولة: لأنك لا تحسن أن تقول كقوله [من البسيط]:

يعودُ من كلِّ فتْحٍ غيرَ مُفْتَخِرٍ وقد أغَذَّ إليه غيرَ مُحْتَفِلِ[1]

فنهض مغضَبًا، واعتزم ألا يمدحه أبدًا!

وأبو فراس يقول لسيف الدولة: «إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرق متي دينار على عشرين شاعرًا يأتون بما هو خير من شعره».

ويأخذ دائمًا المسالك على المتنبي، فإذا قال بيتًا جميلًا قال أبو فراس إنك سرقته من قول بشّار، أو من قول دعبل.

ويتجادل المتنبي وابن خالويه في مسألة لغوية، فيغضب ابن خالويه (وهو أستاذ سيف الدولة) فيخرج من كمه مفتاحًا حديدًا ليلكم به المتنبي.

وهكذا كان بلاط سيف الدولة حربًا علنية وخفية على المتنبي. ولم يخلص للمتنبي من حول سيف الدولة من الشعراء إلا أبو الفرج الببغاء. فقد كان المتنبي يأنس به ويبثه شكواه من سيف الدولة وممن حوله، ويأتمنه على سره؛ وقد ساعدت طباع أبي الطيب على نجاح هذه الدسائس، فهو يتعاظم فيغضَب الشعراء، بل ويتعاظم فيغضب الأمير، وهو دائم الإعلان عن نفسه والفخر بها؛ ويجفو سيفُ الدولة فيجفو المتنبي، ويتكلم سيف الدولة فيجيبه المتنبي، وتأتي المناسبات ليقول الشعراء وينتظر سيف الدولة من المتنبي أن يقول فلا يقول، والمتنبي حائر النفس بين المجد والمال، يجفو مجدًا، فلا يمعن في الجفاء مالًا، ويصد لأنفته، ويخضع لطمعه، وهي حال تُرْبِك النفس وتعقد الحياة.

هذا كله قد سجله المتنبي أيضًا في شعره في سيف الدولة، فمن السنة الثانية لاتصاله بسيف الدولة يذكر الحسد ويذم الناس ويقول [من الوافر]:

---

(1) ديوانه 3/ 167.

فَـأَبْـلِـغْ حـاسـديَّ عـلـيـكَ أنِّـي
كـبَـا بَـرْقٌ يُـحَـاوِلُ بِـي لَـحَـاقـا

وهـل تُـغـنـي الـرَّسـائـلُ فـي عـدوٍّ
إذا مـا لـم يـكـنَّ ظُـبًـى رِقـاقـا؟

إذا مـا الـنَّـاسُ جَـرَّبـهـمْ لـبـيـبٌ
فـإنِّـي قـد أكـلـتُـهُـمُ وذاقـا

فـلـم أرَ وُدَّهـمْ إلا خـداعًـا
ولـم أرَ ديـنـهُـمْ إلا نـفـاقـا[1]

ويتمنى لو تعطِي الملوكُ على أقدار الناس، فلم يكن ينال الخسيسُ شيئًا [من البسيط]:

لـيـتَ الـمـلـوكَ عـلـى الأقـدارِ مُـعْـطـيـةٌ
فـلـم يـكـن لـدنـيءٍ عـنـدَهـا طـمَـعُ[2]

ولعل أوضح ما يدل على هذه الحال قصيدته التي مطلعها [من البسيط]:

واحـرَّ قـلـبـاه مـمَّـن قـلـبُـهُ شَـبِـمُ
ومـن بـجـسـمـي وحـالـي عـنـده سَـقَـمُ[3]

فهي تصور هياج نفسه أشد هياج، فهو لا يعبأ بسيف الدولة إلا مداراة، ولا يعبأ بمن حوله من الناس ومن الشعراء، ويمدح سيف الدولة ليمدح نفسه، ويعرض بأبي فراس وغيره من الشعراء [من البسيط]:

يا أعدلَ النَّاس إلا في مُعامَلَتي — فيك الخصامُ وأنتَ الخَصم والحكمُ
أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقة — أن تَحْسب الشَّحمَ فيمن شحْمُهُ وَرَمُ

ومـا انـتـفـاعُ أخـي الـدُّنـيـا بـنـاظِـرِهِ
إذا اسـتـوَتْ عـنـدهُ الأنـوارُ والـظُّـلَـمُ

سـيـعـلَـمُ الـجـمـعُ مِـمَّـنْ ضـمَّ مـجـلـسُـنـا
بـأنَّـنـي خـيـرُ مَـنْ تَـسْـعـى بـه قَـدَمُ

---

(1) ديوانه 3/ 47. (2) ديوانه 2/ 341. (3) ديوانه 4/ 80.

أنا الذي نَظَرَ الأعمى إلى أدبي
وأسْمَعَتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ

الخَيْلُ واللَّيلُ والبَيْداءُ تَعْرفني
والسَّيْفُ والرُّمحُ والقُرطاسُ والقَلَمُ

ما كان أخْلَقَنا مِنْكمْ بتَكْرمةٍ
لو أن أمرَكُمُ مِنْ أمْرنا أَمَمُ

كم تَطْلبونَ لنا عيبًا فيُعْجِزُكمْ
ويَكْرَهُ اللهُ ما تأتُونَ والكَرَمُ

ما أبْعَدَ العيبَ والنُّقْصانَ من شرفي
أنا الثُّريا وذَانِ الشَّيبُ والهَرَمُ

ثم يهدد بالرحيل:

إذا ترحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا
ألا تُفارقَهُمْ فالرَّاحلونَ هُمُ

شرُّ البلاد مكانٌ لا صديق به
وشرُّ ما يَكْسبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

ثم يطعن الشعراء حوله فيقول:

بأيِّ لفظ تقولُ الشِّعْرَ زِعْنِفَةٌ تجوزُ عندَكَ لا عُرْبٌ ولا عجَمُ
هذا عتابُكَ إلا أنَّه مِقَةٌ
قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنَّهُ كَلِمُ

قصيدة -من غير شك- من أقوى شعر المتنبي، سكب فيها نفسه، ولم يعبأ بمقام أحد، وكانت كافية لأن يطرده سيف الدولة شرّ طردة، ولكن -كما قد قلت قيل- إن سيف الدولة من جنس المتنبي، فلئن كانت القصيدة أغضبته أشد الغضب فقد جاء فيها [من البسيط]:

(1) ديوانه 4/ 83 ـ 90.

إن كـان سـرَّكُـمُ مـا قـالَ حـاسـدُنـا فـمـا لـجُـرْحٍ إذا أرضـاكـمُ ألـمُ[1]

وهذا أطرب سيف الدولة أيما طرب.

وانتهت المعركة بأن أعطى سيف الدولة المتنبي ألفًا وألفًا، فقال المتنبي [من البسيط]:

جـاءت دنـانـيـرُكَ مـخـتـومـةً عـاجـلـةً ألـفًـا عـلـى ألـفِ

أشـبـهـهـا فـعْـلُـكَ فـي فـيـلـقٍ قـلَّـبْـتَـه صـفًّـا عـلـى صـفّ[2]

ولكن إن انتهت هذه الحادثة فلا بد أن يعقبها حوادث مثلها ما دام سيف الدولة والمتنبي على ما هما والبلاط على ما هو.

وظلّ المتنبي يتعاظم في شعره، ويعرّض بغيره من الشعراء، ويقول لسيف الدولة [من الرمل]:

إن هـذا الـشِّـعْـرَ فـي الـشِّـعْـرِ مَـلَـكْ

سـار فـهـو الـشَّـمـس والـدُّنـيـا فَـلَـكْ

عَـدَلَ الـرَّحْـمـنُ فـيـه بـيـنـنـا

فـقـضـى بـالـلَّـفـظِ لـي والـحـمـدُ لَـكْ

فـإذا صـار بِـأُذْنَـيْ حـاسـدٍ

صـار مـمَّـن كـان حـيًّـا فَـهَـلَـكْ[3]

وشاء القدر أن يكون آخر شعر في سيف الدولة من هذا القبيل وعلى هذه النغمة وهو [من البسيط]:

لا تَـطْـلُـبَـنَّ كـريـمًـا بـعـد رؤيـتـه إن الـكـرَام بـأسـخـاهـم يـدًا خُـتـمُـوا

ولا تـبـالِ بـشـعْـرٍ بـعـد شـاعِـرِه قد أُفسد القول حتَّى أُحمد الصَّممُ

وظلّت السعايات تعمل، فابن خالويه وغيره يلحّ في الإيقاع بالمتنبي، والمتنبي يمعن في تعاليه حتى فاض الإناء، فملّ سيف الدولة كثرة القول في المتنبي، ومل المتنبي كثرة الغضب والعتاب، فتلاقت رغبة المتنبي في الخروج من حلب برغبة سيف الدولة في الراحة مما ينظر

---

(1) ديوانه 4/ 87

(2) ديوانه 2/ 637.

(3) ديوانه 3/ 113 ـ 114.

(4) ديوانه 4/ 142.

ويسمع، فرحل المتنبي إلى مصر وأسدل الستار عن فصل من رواية المتنبي، وإن كانت الرواية لم تتم فصولًا.

وفي الحق أن الزمان أخطأ فوضع المتنبي في غير موضعه؛ أعطاه نفس ملك ولسان شاعر، ووقفه بدف على أبواب الأمراء يمدحهم، وهو إذا يمدحهم يرى منزلته -حقًّا أو باطلًا- فوق منزلتهم؛ فكان شأنه شأن كثير من الناس لا تتلاءم نفسيتهم ومنصبهم، نفس رئيس ومنصب مرؤوس، أو نفس حرب ونضال ومنصب ذلة وهوان؛ وهذان العنصران إذا اجتمعا سبَّبا شقاء صاحبهما؛ لذلك كانت نفس المتنبي ثائرة دائمًا. ومن يدري؟ لعلّ ما مُنِحْنا من شعر جزل جميل كان نتيجة هذا العناء، ولو تلاءم منصبه ونفسه لأخلد إلى الراحة؛ فكم كان الشقاء والبؤس والفقر والاضطهاد والعذاب نعمة على الإنسانية بما أخرجت من شعور نبيل وفن جميل.

وبعدُ، فمع هذا كله لم يجد المتنبي عوضًا عن سيف الدولة في علو شأنه وكرمه وعربيته وذوقه وفروسيته؛ وخرج يَنْشُد الملك في مصر وغير مصر فلم ينل ملكًا ولم يجد ممدوحًا ينطقه بالمعاني كما أنطقه سيف الدولة، وعرّض في أول أمره بمصر بسيف الدولة، ولكنه أدرك الحقيقة المُرَّةَ بعد، فتاب وأناب وندم على ما كان، وحنّ إلى سيف الدولة وحنّ سيف الدولة إليه، فيقول من قصيدة في غير ديوانه [من الطويل]:

عثرتُ بسيري نحو مصرٍ فلا لَعًا بها ولَعًا بالسَّيرِ عنها ولا عَثْرَا

وفارقْتُ خَيْرَ النَّاسِ قاصد شرّهم وأكرمَهُمْ طرًّا لألأمِهم طُرًّا

فعاقبني المَخْصِيُّ بالغدرِ جازيًا لأنَّ رحيلي كان عن حلبٍ غدرا

وما كنتُ إلا فائلُ الرَّأي لم أُعَنْ بحزمٍ ولا استصحبتُ في وجهتي حِجْرا

لقد كان المتنبي حين فارق سيف الدولة يعتقد أنه غدر به فيقول [من الطويل]:

حَبَبْتُكَ قلبي قبلَ حُبِّكَ مَنْ نأى وقد كان غَدَّارًا فكُنْ أنتَ وافيا[1]

---

(1) ديوانه 4/ 418.

ولكن مرور الزمان، وتكشف الحوادث وخيبة الأمل في غيره جعلته يرى غير رأيه الأول، وأن المتنبي لا سيف الدولة كان هو الغادر، إذ يقول: «لأن رحيلي كان عن حلب غدرا».

وحنّ سيف الدولة إلى المتنبي، فبعث إليه ابنه من حلب إلى الكوفة، بعد أن خرج من مصر، وبعث إليه مع ابنه هدية، فكتب إليه المتنبي قصيدته التي يقول فيها [من الخفيف]:

لـيـس إلّاكَ يـا عـلـيُّ هُـمـامٌ
سـيـفُـهُ دُونَ عِـرْضِـهِ مَـسْـدُولُ

أنـتَ طـولَ الـحـيـاةِ لـلـرُّومِ غـازٍ
فـمـتـى الـوعْـدُ أن يـكـونَ الـقُـفُـولُ

مـا الـذي عـنـدهُ تُـدارُ الـمـنـايـا
كـالـذي عـنـده تُـدارُ الـشَّـمُـولُ

مِـنْ عَـبـيـدي إن عـشـتَ لـي ألـفُ كـافـو
رٍ ولـي مـن نـداكَ رِيـفٌ ونـيـلُ

مـا أبـالـي إذا اتَّـقـتْـكَ الـلـيـالـي
مَـنْ دَهَـتْـه حُـبُـولُـهـا والـخُـبُـولُ[1]

ثم بعث إليه سيف الدولة كتابًا بخطه يسأله المسير إليه فاعتذر بالوشايات [من المتقارب]:

ومـا عـاقـنـي غـيـرُ خـوف الـوُشـاةِ وإنَّ الـوشـايـاتِ طُـرْقُ الـكَـذِبْ[2]

كان ذلك في سنة 353، ولم تطل مدة المتنبي بعد، فقد قتل في السنة التي تليها، وهي سنة 354، كلاهما يحمل نفسًا حبيبًا إلى صاحبه.

* * *

(1) ديوانه 3/ 276 ـ 278.
(2) ديوانه 1/ 225.

الفهرس


Bibliotheca Alexandrina
1099650